شمس النبوة

:المؤلف

فخر الأماثل حكيم الإسلام

القارئ محمد طيب الصديقي القاسمي

(الحنفي الماتريدي الجشتي)

:الترجمة ChatGPT

تحت التصحيح والمراجعة;

https://t.me/turathanafimaturidi/5258

النشر الأول

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

كلمة البداية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

هذه مذكرة طالبية في بعض الجوانب الأساسية من السيرة النبوية. ومن الصعب أن تسمى كتابةً في السيرة، غير أنه يمكن أن يطلق عليها اسم تسكين العواطف الناشئة من الشوق إلى كتابة السيرة. وقد كتبت عفو القلم في ضوء الآية الكريمة: «وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً». ولم تكن هذه المذكرة نفسها في درجة تصلح معها أن تقدم إلى أهل النظر هديةً علمية. وبحسن الاتفاق قُرئت بعض أجزائها في مجلس طالبي، فطلب السامعون، بل ألحوا، أن تطبع وتنشر.

وكانت النفس تنقبض عن الطبع والنشر، لأن السؤال كان: بأي اسم تنشر آخر الأمر؟ فإن كل ما يمكن أن يكون للسيرة من الجوانب العلمية قد تناولها علماء الأمة بأقلامهم، والحقيقة أنهم لم يتركوا لمن يأتي بعدهم مجالاً للعمل القلمي. فقد أُضيئت الجوانب التاريخية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية والدينية والتبليغية والتعليمية كلها من السيرة على الورق بمداد محققي الأمة إضاءةً صار تناولها بالقلم لا زيادةً في النور، بل إلقاء سواد على الورق وحيلولةً دون النور.

ولكن لما كانت السيرة النبوية، أو الخلق النبوي، حسب إرشاد حضرة الصديقة رضي الله عنها، عين القرآن: «وكان خلقه القرآن»، وكانت صفة القرآن قد وردت: «لا تنقضي عجائبه»، وأن عجائبه لا تنتهي أبداً، ففي عبارة أخرى لا تنتهي عجائب السيرة النبوية أيضاً. ولذلك يخرج مجال لأن يقال شيء باسم السيرة. غير أنه، لما قيل في هذا الباب كل شيء على الطريقة التاريخية والمحدثية والفقهية والصوفية والكلامية، لم يبق إلا أسلوب طالبي يستطيع طالب ناقص الاستعداد أن يجرب قلمه عليه. فصار هذا الجانب وحده وسيلة الجرأة على إخراج هذه المذكرة إلى العلن.

والآية التي جعلت عنواناً مزيناً لهذه الكتابة من أجل فتح المقامات الأساسية في السيرة النبوية، أعني قوله: «داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً»، كان أمام هذا الحقير في شأنها هذا الخاطر: إن مقامات النبوة نفسها كامنة فيها، ويمكن فتحها بالتدبر في هذه الآية. وكلما انفتحت ظلت داخلةً في مدلول هذه الآية القرآنية. فكأن هذه الآية الكريمة بمنزلة البذرة لجميع تفصيلات السيرة النبوية، وفيها انطوت شجرة السيرة الطيبة، لا بتفصيلاتها فقط، بل مع جميع تلك الشؤون الامتيازية والفوقيات المتميزة التي لأجلها عُدت هذه السيرة أفضل وأعلى من السير المقدسة لكل السابقين.

ولذلك فموضوع هذه المذكرة ليس مجرد عرض جوانب السيرة أو فتح تفصيلاتها؛ فإن هذا العرض موجود مفصلاً في كل كتاب من كتب السيرة. بل موضوع هذه المذكرة هو إظهار هذه الجوانب خارجةً من القرآن الحكيم، وإبراز آية قرآنية واحدة مختصرة على أنها مصدر السيرة كلها.

ومن الظاهر أنه ليس من الضروري في دائرة هذا الموضوع عرض جميع جوانب السيرة، بل إن إبراز بعض الجوانب الأساسية فقط يمكن أن يكون كافياً لإثبات الموضوع. لأن المقصود الأصلي في هذه الصورة هو نسبة السيرة إلى القرآن، وإظهار جوانب السيرة خارجةً من القرآن، وإثبات أن القرآن مصدرها، لا عرض تفصيلات السيرة كلها. وهذا المقصود يحصل أيضاً بعرض أمثلة قليلة من هذا النوع. ولهذا اكتفي في هذه الكتابة ببضعة جوانب أساسية من السيرة معروضة فيها، وهي ليست إلا في حكم الأمثلة. وللتمثيل تكفي أعداد وأمثلة قليلة، ولا يلزم استيعاب جميع الجوانب، مع أن هذه الجوانب المثالية القليلة ليست قليلة من جهة العدد. فقد عرضت قرابة خمسة وسبعين مثالاً أصولياً، وهي كافية لإثبات المقصود، بل لإيضاحه. أما ذخيرة الأمثلة الفرعية التي جاءت تحت هذه الأمثلة الأصولية فهي أكثر من هذا العدد أيضاً.

ومع ذلك، فالمثال إنما هو مثال، لا يلتفت فيه إلى العدد، بل يتوجه النظر به إلى إثبات المقصود وإيضاح الدعوى، وهذا هو المراد، سواء كان المثال واحداً أم أكثر من واحد. لذلك كان من الضروري التنبيه إلى هذا الأمر، حتى لا ينشأ من ورود لفظ السيرة انتظار التاريخ التفصيلي الكامل للسيرة.

فهذه الكتابة إذن كتابة تمثيلية، يراد بها إيقاع الاعتقاد بأن أمثلة أخرى زائدة يمكن أن تعرض على نحو الأمثلة المعروضة في هذا الباب. فهي إرشاد للطريق. فإن أخذ أصحاب الرغبة في السير بالسير على مقتضاه استطاعوا أن يفتحوا الجوانب الباقية من السيرة من هذه الآية نفسها، وستظل كلها، كلما انفتحت، داخلة في مدلول هذه الآية نفسها.

وخلاصة المقصود أن الأصل في بيان السيرة هو القرآن، وأن جميع هذه الروايات والحكايات الموثقة المنتشرة في كتب السيرة المعتبرة إنما وردت بياناً للقرآن وتوضيحاً له. فالقرآن الحكيم ليس دستوراً أساسياً في باب الأحكام والأصول فحسب، بل هو أيضاً أصل وأساس في باب السيرة وجميع مقامات النبوة وأخلاقها. وكما أن روايات الأحكام ... واقعة بياناً له، فكذلك روايات السيرة واردة بياناً له. وكما أن آية واحدة، وهي قوله: «ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»، على قول المحققين، مصدر جميع أحاديث الأمر والنهي، وأن جميع أحاديث الأحكام واقعة بياناً لهذه الآية، فكذلك في فكر هذا الحقير الناقص أن جميع أحاديث السيرة وأخبارها ورواياتها وآثارها واقعة بياناً لهذه الآية الواحدة: «وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً». فهذه الآية الكريمة هي أيضاً مصدر جميع تلك الأخبار والروايات.

وهكذا فإن هذه الآية الكريمة الواحدة، بإبرازها حضرة النبي صلى الله عليه وسلم في صفة أعظم داعٍ إلى الله في العالم، وهذا هو المحور الأصلي والموضوع الحقيقي لمضامين هذه الآية، قد ألقت الضوء على تاريخ سيرته الدعوية كلها وعلى فضائله وكمالاته النبوية. أي إن كلمة «الداعي إلى الله» هي المقصود الأصلي من البيان، وأما الكلمات الأخرى: شاهد، مبشر، نذير، فقد ذكرت بوصفها مبادئ هذه الدعوة وآثارها. وفيها تكمن السيرة النبوية كلها.

لأن أول ما يأتي أساساً في باب الدعوة هو ذات الداعي: أن يكون حجة وسنداً، وأن يكون كل قول وفعل منه، وسيرته وكلامه، وعاداته وأخلاقه، ومعيشته، وقيامه وقعوده، ومشيه وحركته، ولقاؤه ومخالطته، ونومه ويقظته، وعادته وعبادته، ومعاملاته ومعاشرته، بل كل هيئة من هيئات حوائجه الضرورية، حجةً ومعياراً كاملاً. فبدون ذلك لا تكون دعوته حجة. فكأن الدعوة لا تتحقق من غير عظمة الداعي الذاتية وكماله. فجميع مقامات هذا الخلق الذاتي والعظمة الذاتية وحجيتهما داخلة تحت قوله «شاهداً»، وعليها يقوم بناء الدعوة إلى الله.

ثم إن للدعوة نفسها أصولاً وأركاناً لا تكتمل الدعوة ولا تؤثر بدونها، وهي الترغيب والترهيب. وبدونهما لا يكون أثر الدعوة قوياً بحيث يقبل المخاطبون بالدعوة أثر هذه الدعوة. فجميع هذه المؤثرات الدعوية داخلة تحت «مبشر» و«نذير»، وعليها يتوقف كمال الدعوة وتأثيرها. لذلك جيء قبل «داعياً إلى الله» بكلمات «شاهد» و«مبشر» و«نذير» إرشاداً إلى هذين المقامين من الدعوة إلى الله: عظمة الداعي الذاتية وشأنه، أي كونه شاهداً وحجة، وأصول الدعوة نفسها وأركانها، أي التبشير والإنذار من جهة الترغيب والترهيب، حتى تظهر الصورة الكاملة لأصول الحياة الدعوية للداعي إلى الله ومبادئها.

ثم إن هذه الكلمات الأساسية للدعوة، وهي شاهد ومبشر ونذير، لما جيء بها مطلقةً بلا قيد ولا شرط، كان في ذلك إشارة إلى عموم هذه الدعوة وشمولها، وهو في الحقيقة موضوع ختم النبوة. وفي النهاية، لما جيء بكلمة «سراجاً منيراً»، دُلَّ على طريق فتح هذه الجوانب الشاملة في الداعي والدعوة، وهي منطوية في هذه الكلمات كانطواء البحر في الكوز. ومن ذلك تظهر دفعةً واحدة خريطة جميع هذه الجوانب من سيرة ختم النبوة.

فالكلمة المحورية في الآية، التي تدور عليها جميع مضامين آية السيرة هذه، هي «داعياً إلى الله». والكلمة التفهيمية والشارحة في الآية، التي تنفتح بها هذه المضامين، هي «سراجاً منيراً». ولذلك جعلنا هاتين الكلمتين من الآية موضوع كتابتنا، لنظهر بهما مقامات السيرة النبوية وختم النبوة خارجةً من هذه الآية.

ومن الظاهر أنه إذا جاء الاستناد إلى القرآن بوصفه مصدراً للسيرة النبوية، ودخلت هذه الجوانب تحت الدلالة القرآنية المختصرة، لم تبق لهذه الجوانب كلها حيثية تاريخية محضة، بل تدخل فيها بالدلالة القرآنية شائبة من شأن القطعية، فترتفع بذلك عن سطح التاريخ العام وتبلغ المقام الأعلى من السند والحجية. وهذا يكون حجةً على منكري السيرة أو منكري الحديث، ويكون لعشاق السيرة النبوية سبباً لانشراح كامل وانبساط تام.

ومن جهة أخرى تظهر أيضاً أبلغ الأمثلة على شأن الإعجاز في القرآن الحكيم وعلى بيانه المعجز. فيتضح كيف يجمع القرآن الكريم ويؤدي، في كلماته الصغيرة وجمله الإعجازية المختصرة، ذخائر لا تحصى من الحقائق لا تسعها الدفاتر، وذلك أيضاً على شأن لا تستطيع معه هذه التفصيلات الروائية، ولو اجتمعت، أن تحيط بالمقصود إحاطة ذلك الإجمال القرآني المعجز الذي يظهر شأن إعجازه في عرض المراد عرضاً جامعاً.

ولكن مع هذا كله، فإن مرادي القلبي ومقصدي الحقيقي من هذه الكتابة، إن سئل عن الصدق، ليس إلا هذا: أن يأتي بهذه الحيلة ذكر مبارك لحضرة خاتم الأنبياء، سيد العالمين، محمد صلى الله عليه وسلم، وشيء من الذكر الحسن لسيرته المقدسة على لسان قلم هذا غير اللائق أيضاً؛ وأن يكتب بهذه الذريعة اسم هذا العبد الأسود الصحيفة للنبوة في زاوية من زوايا قائمة كتاب السيرة. ومع ذلك فبمناسبة هذه المقامات الأساسية من السيرة، تدخل في البيان أيضاً بعض الحقائق الشرعية المتعلقة بهذه المقامات في ضوئها، بوصفها خلفية للسيرة.

وإلا فأنا أعلم: أين كتابة السيرة، وأين هذا العلم والعمل العاطلان؟ وأين بيان الحقائق، وأين هذه المذكرة الطالبية لناقص الاستعداد؟ أين السراج الميت وأين نور الشمس؟ ولكن إن لم يعد هذا الذي اسمه كتابة في السيرة دخولاً في الشهداء بقطع الإصبع، واكتفي بأن يفهم أنه تلطيخ الإصبع بالدم لاتخاذ صورة الشهداء، فهو أيضاً كافٍ لسعادتي.

وما العجب في أن ذلك الرب، الذي عادته الكريمة أن يضع الحقائق الحسنة في الصور الحسنة، يملأ هذه الصورة الحسنة التي اختارها عبده العاطل بحقيقة حسنة؟ وما البعيد في أن يصل من هذه الكتابة المختصرة وغير المترابطة كثيراً أثر من بركات السيرة النبوية العلمية أو العملية إلى قلب كاتب هذه الحروف وقلوب ناظريها؟

وما ذلك على الله بعزيز، وهو حسبي ونعم الوكيل.

محمد طيب، غفر الله له ولوالديه
مدير دار العلوم ديوبند
12 ربيع الأول 1375هـ

شمس النبوة

قال الله جل ذكره، وعز اسمه، وأعظم شأنه، وجل برهانه:

.)يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً(

لنا شمس وللآفاق شمس،
وشمسي خير من شمس السماء.
شمس الناس تطلع بعد فجر،
. وشمسي تطلع بعد العشاء

الإعجاز البياني للقرآن في السيرة

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى. موضوع الكتابة في هذا الوقت هو الكلمة الطيبة: «وسراجاً منيراً». فقد أُلقي فيها، في عشرة أحرف فقط، من الضوء التفصيلي على نبوة حضرة خاتم الأنبياء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى المقامات الأساسية لسيرته النبوية، ما لا تستطيع مئات المجلدات أن تبلغه في التوضيح والتفصيل. ثم جاء ذلك في أسلوب جامع بليغ، بحيث لم تفتح مقامات السيرة وحدها، بل بُينت أيضاً فضيلة سيرته وفوقيتها على سير جميع الأنبياء والمرسلين. أي إن تفصيل السيرة وتفضيلها قد جُمعا جميعاً في هذه الكلمة المختصرة الواحدة.

ولعل ناظري هذه الأوراق يعجبون قائلين: إن كلمة «سراج منير»، فضلاً عن أن تكون مشتملة على تفصيلات السيرة، لا نرى فيها حتى إجمالاً؛ بل إن الإجمال نفسه جانب، ونحن لا نشعر في هذه الكلمة ذات الأحرف العشرة حتى بدعوى من دعاوى السيرة. أليس هذا خيالاً شاعرياً يُنسب إلى القرآن؟ فأقول: حاشا ثم حاشا. فلا القرآن الحكيم له صلة بالشعر، ولا يسوغ لمؤمن بالقرآن أن تكون له الجرأة على أن يلصق به شيئاً من شاعريته. فهو المصداق الصادق لقوله: «وما هو بقول شاعر»، ومنبع الحقائق الصادقة الراسخة، حتى إن تصور صناعة الخيال فيه إثم.

والحقيقة أن القرآن الحكيم قد ألقى فعلاً في كلمة «سراج منير» الصغيرة ضوءاً واضحاً على السيرة الرفيعة للرسول، ثم على تفصيلها، ثم على تفضيلها، ثم على جميع مقاماتها الأساسية. غير أنه لم يفعل ذلك من طريق العبارة المباشرة، بل من طريق التمثيل. فلم يعدد بألفاظ طويلة عريضة قائمة طويلة واسعة لأبواب السيرة، بل نبّه من طريق التشبيه إلى وجه الشبه، وفتح من هذه المشابهات مقامات السيرة الخارجة منها بلون إعجازي يمكن فهمه بسهولة بقليل من الفكر.

والسبب الظاهر لاختيار هذا الأسلوب من البيان هو الإرشاد إلى أن مقامات النبوة، وما ينشأ عنها من كمالات الظاهر والباطن، أمور كيفية، تعلقها ليس بالبيان بل بالمشاهدة. والمشاهدة لا تحصل إلا بعد المرور بتلك المقامات. ولذلك فمهما يكن البيان فصيحاً بليغاً جامعاً، فإن الكيفية والحقيقة لا تدخلان في قبضته.

فلو أخذت كيفيات البلوغ والشباب تُبيَّن أمام طفل غير بالغ، فمهما اختير من بيان بليغ، لا تنكشف هذه الكيفية بالبيان، ولا يستطيع الطفل أن يفهمها بأي درجة، حتى يصير هو نفسه شاباً ويمر بمقامات البلوغ. وكذلك كيفيات الشيخوخة أمام الشاب، وكيفيات سكرات المحتضر أمام الشيخ، وكيفيات عالم القبر والبرزخ أمام المحتضر: لا تدخل في قبضة البيان، ولا تستطيع هذه الطبقات التي لم تصل إليها أن تفهمها، حتى تمر بتلك المقامات الكيفية.

لا يدرك حال الناضج خامٌ قط.

السيرة التمثيلية

فإن مقامات النبوة التي هي أعلى بدرجات كثيرة من الكيفيات النفسانية المذكورة، وألطف بدرجات كثيرة، وأدق بمراتب لا تحصى، كيف كانت تدخل في قبضة البيان؟ وكيف كان يمكن إفهامها بمجرد الألفاظ لأناس لا معرفة لهم أصلاً بمقام النبوة؟

ولذلك اختير طريق التمثيل والتشبيه لأجل تقريبها شيئاً ما من أفهام العامة، وهو أسهل طريق لإفهام الحقائق. ذلك أن الصورة الحسية المشابهة للكيفيات المعنوية إذا أُحضرت وأقيمت أمام الناظر، صار فهم تلك الحقيقة المعنوية ممكناً وميسوراً إلى حد ما.

ولهذا بُيّنت في الكتاب والسنة مسائل دقيقة كبرى، مثل الذات والصفات، والحشر والنشر، والجنة والنار، والميزان والصراط، وما إلى ذلك، بالأمثلة نفسها، لا بالحجة والبرهان. فإن هذا الطريق الاستدلالي ليس في الحقيقة طريق فهم وإفهام مثل هذه الأمور المجردة؛ والإنسان الخالي من الكيفية لا يستطيع أن يفهم الكيفيات بمجرد التقليب اللفظي.

السيرة وتمثيلها بالشمس

ولذلك، لما لم يكن ممكناً تقريب كمالات الظاهر والباطن لحضرة خاتم المرسلين، عليه أفضل الصلاة والتسليم، ولطائف كيفيات مقامات النبوة والخاتمية، إلى الأفهام بطريق الاستدلال والبيان، اختير لأجل تفهيمها وبيانها هذا الطريق نفسه، أعني طريق التمثيل. واختير من المحسوسات المادية لهذا التمثيل والتشبيه موجودٌ كان، باعتبار أوصافه وكمالاته المادية، وحيد العالم وعديم المثال. فلم تكن له نظير في سلسلة الماديات، لا في العلويات ولا في السفليات، ولا في السماوات ولا في الأرضين. فكأنه كان، من حيث الكمالات، ذا نوع من التفرد والوحدانية والخاتمية. وحضرة خاتم الأنبياء، عليه الصلاة والسلام، أيضاً لا نظير له ولا مثال في جميع المخلوقات. ولذلك عُرّفت الكمالات الروحانية لذاته الوحيدة في العالم بإحضارها في الصورة الحسية لكمالات

ذلك الموجود الواحد في عالم الماديات. وذلك الموجود الواحد العديم النظير في الماديات هو الوجود النوراني للشمس المنيرة للعالم، الذي اختير مثالاً بليغاً لكمالات الرسول.

خصائص الشمس

فإن في السماء نجوماً أخرى أيضاً، وكلها، وهي في مقام العلو والعظمة، مشرفة بالنورانية. ولكن الجمال والكمال اللذين أوتيا للشمس لم يؤتيا لأي نجم آخر، والتأثير والتصرف اللذان كانا من نصيبها لم يتيسرا لغيرها. وكذلك الغلبة والاقتدار اللذان أعطيا لها لم يعطيا لكوكب آخر. فالشمس إذن بين هذه النجوم كلها بمنزلة الملك، الذي لا يستغني نجم عن حكومته وتأثيره. بل إن النجوم كلها محتاجة إلى الشمس نفسها حتى في نورانيتها ولمعانها، لأن نورانيتها قائمة بنور الشمس.

ومن الظاهر أنه إذا كانت هذه العلويات التي تؤثر في السفليات غير مستغنية عنها، فما القول في السفليات؟ فإنها غير مستغنية حتى عن عامة النجوم، فكيف تستغني عن الشمس؟ فالجو والفضاء، والمركبات المنتشرة في الفضاء، والأرض ونباتها، وبساط التراب والنفوس الساكنة عليه: لا شيء من ذلك غير محتاج إلى فيضها. ولذلك فالشمس، بالنور، مربية العلويات والسفليات وملكها.

عظمة الشمس ورفعتها

إن كثيراً من الأمم، لما نظرت إلى رفعتها وعظمتها العامتين، وإلى تأثيرها وتصرفها الشاملين، وإلى تربيتها التكوينية العامة، التبس عليها أمر ربوبيتها وألوهيتها، فوقعت في عبادتها. فإن ملكة عظيمة مثل بلقيس، مع كونها ذات شأن: «وأوتيت من كل شيء» أي أعطيت كل شيء من أمور هذه الدنيا، قد خفضت جبين الحاجة أمام بهائها وسناها، وحنت رأس العبودية. وليس هذا وحده، بل إن قومها كلهم، الذين كانوا يدعون: «نحن أولو قوة وأولو بأس شديد»، إن خضعوا فإنما خضعوا أمام هذا المعبود نفسه، الذي شهد القرآن في شأنه: «يسجدون للشمس من دون الله»، أي كانوا يعبدون الشمس تاركين الله.

أما أمة المجوس الواعية، فإن الهياكل والمعابد التي بنوها في باب عبادة الكواكب كان أكبرها هيكل هذا الكوكب المنير للعالم، أي الشمس. وقد بني بناؤه بلون الذهب، وصرف فيه قناطير من الذهب وماء الذهب. وصنع تمثال للصورة المثالية للشمس من ذهب خالص ووضع فيه. وكانت تستعمل في حرم ذلك الهيكل أوانٍ وأمتعة بلون شمسي. وهكذا فإن أمة متمدنة من المجوس إن سقطت، فقد سقطت أمام علو هذا الكوكب نفسه، وبقيت غارقة في عبادته.

وكذلك الأمم الفلسفية كأصحاب النجوم، إن اعترفت بقوة تأثير عالم من العوالم ونصرته، فإنما اعترفت بذلك للنجوم، ومن بينها اعترفت بعالم الشمس بوصفه أشدها تأثيراً، فحنت أمامه رأس الحاجة. فهم يعتقدون تأثير النجوم في العالم، وتأثير الشمس بين النجوم. فكأن الشمس شاهنشاه التأثير والنصرة.

وحضرة إبراهيم خليل الله، عليه السلام، أيضاً، إذا قال بين النجوم كلها: «هذا ربي، هذا أكبر»، فإنما قاله عند رؤية هذا النجم المضيء المتلألئ، لكي ينتبه القوم. فإذا أري لهم من هذه الأنوار المجازية النور الحقيقي، ومن طريق «هذا أكبر» تجلي «الله أكبر»، قالوا هم أيضاً: «إني وجهت وجهي»، وحَنَوا رأس العبودية أمام ذلك الرب المطلق.

مسكنة الشمس في الحضرة الإلهية

ولهذا، لما كان لمعان هذا الكوكب العظيم الشأن وشمول تأثيره وتصرفه وتفرده مجالاً لأن يقع البسطاء في توهم ألوهيته وربوبيته، فإن الحق تعالى، حيث عدّد في القرآن الحكيم قائمة تأثيره وتصرفه وفوائده وبركاته، منع في الموضع نفسه عبادته بألفاظ صريحة وعناية خاصة، فقال:

«لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون».

ثم أظهر مسكنة هذا الكوكب العظيم المرتبة وعجزه أمام حضرته الرفيعة، وكشف أيضاً سيرة عبوديته نفسها: فإذا كان هو نفسه يسير ساجداً أمام حضرتنا الأقدس، فما لكم تتركون خالق الشمس والقمر، وتقعون في مستنقع عبادة هذا المخلوق العاجز؟

ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض، والشمس والقمر والنجوم والجبال» والشجر والدواب وكثير من الناس، وكثير حق عليه العذاب.«

ففي هذه الآية لم تظهر عبودية الشمس فحسب حتى تنتفي معبوديتها، بل ذُكرت ممزوجة مع عامة المخلوقات صغيرها وكبيرها على نحو يدل على أن شأنها من حيث المخلوقية ليس أكثر من شأن عامة المخلوق. بل إن ذرة من الأرض وهذه الشمس الفلكية سواء في كونهما مخلوقتين.

ثم زيد على ذلك، فوضحت مجبوريته وعجزه في حركته وتنقله العام، حتى لا يخطر في العقول وسواس ألوهيته بأي درجة، فقال:

«لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون».

وعلى كل حال، فإن المنع الخاص أولاً من عبادتها، ثم الإخبار بمخلوقيتها، ثم إظهار عجزها ومسكنتها في التنقل والحركة، ثم الإعلان الصريح بعبوديتها وطاعتها وانقيادها، إنما كان كل ذلك حتى لا يميل أحد إلى عبادتها عند رؤية تأثيرها التكويني العام وجاهها وجلالها الظاهرين.

عبودية الأنبياء مع عظمتهم

وفي ذات الشمس هذا المثال لعامة الأنبياء، عليهم السلام، وخصوصاً للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم: مثال أحوالهم ومقاماتهم العظيمة، وأحوالهم المملوءة بالعبودية والطاعة.

أي كما أظهرت الخوارق والمعجزات على أيدي الأنبياء وعلى يد حضرة النبي صلى الله عليه وسلم، وأُريَت إنجازات تصرفاتهم غير العادية، فبرزت ذواتهم حاملة لعظمة ورفعة فوق العادة

وغير مألوفة؛ كذلك، خوفاً من أن ترى المخلوقات هذه العجائب والأمور الخارقة للعادة فيستقر في نفوسها ظن ربوبيتهم، أُجريت على الأنبياء عوارض بشرية عامة: الحزن، والألم، والمرض، والمصائب، والمشكلات، والآفات، والضرب، والجراح، وسوء قول الناس، والعجز الظاهر، وفقدان الوسائل، حتى أحوال القتل والمظلومية. بل بنص الحديث النبوي صُيّروا أكثر ابتلاءً بالمصائب من عامة الخلق، حتى تظهر عبوديتهم ومسكنتهم بالنسبة إلى الحضرة الإلهية بأقصى ما يمكن، ولا يبقى في زاوية من زوايا القلوب مجال لألوهيتهم ومعبوديتهم.

حتى إن الفرد الأكمل من هذه الجماعة المقدسة الطاهرة، النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، الذي لا يوجد فرد أكرم ولا أحرم منه عند الله، أُمر أن يخلط نفسه، كسائر الأنبياء، بسائر الناس العاديين، وأن يعترف ببشريته، وأن يقول: «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي»، حتى لا يجرؤ أحد على إنكار بشريته ولا على معاملته معاملات من نوع فوق البشرية.

ثم إنه يخاطب أحياناً بخطاب جلالي صارم وحاكم، كأن مخلوقاً عادياً يخاطب، لمجرد أن تثبت محكوميته وعبوديته من كل جهة. ولذلك قيل في خطاب حضرة الرسول الأكرم، عليه السلام، بأسلوب التخويف والزجر:

«لئن أشركت ليحبطن عملك، ولتكونن من الخاسرين.»

الأمر بإعلان العبودية

ثم أُمر أيضاً أن يعلن من جهته هو عجزه ومسكنته:

«قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً. قل إني لن يجيرني من الله أحد، ولن أجد من دونه ملتحداً.»

وليس الإعلان وحده بأنني لا أملك تصرفاً في غيري، بل أخبر أيضاً بأنني لا أملك لنفسي شيئاً، وأنني لست حاكماً بذاتي، بل أنا تابع للحق، محكوم، وجميع التصرفات فيه للمالك الحقيقي وحده، وهي ستبقى كذلك إلى القيامة وبعد القيامة.

«قل ما كنت بدعاً من الرسل، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم. إن أتبع إلا ما يوحى إلي، وما أنا إلا نذير مبين.»

حتى إذا بدأ المنكرون يطالبونه بمعجزات مخصوصة لأجل تعجيزه، وقالوا:

«لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً، أو يكون لك بيت من زخرف، أو ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه.»
الجزء 15، الركوع 9 .

قيل له: أعلن بألفاظ صريحة عجزك ومسكنة بشريتك:

«قل سبحان ربي، هل كنت إلا بشراً رسولاً؟»

وعلى كل حال، فإن جميع كلمات العجز والافتقار، وهذه عناوين الإجبار والمسكنة، إنما قررت لهذه الذوات المصطفاة، وأُجريت على ألسنتهم، حتى لا يلتبس على فاقدي البصيرة، عند رؤية هذه الأحوال الرفيعة ومعجزاتهم وكراماتهم، أمر ألوهيتهم؛ ومن التبس عليه ذلك فلا يبقى فيه.

وكذلك تماماً، فإن عظمة الشمس ورفعتها غير العادية في الماديات، وهذا التفرد الخاص لها في عالم السماء والأرض، كان يحتمل أن يلتبس على فاقدي البصيرة أمر ألوهيتها، فيتركوا خالق الشمس والقمر ويتبعوا الشمس والقمر، ولا سيما الشمس. ولذلك سلطت عليها هذه الدورات من المسكنة والعجز، لتظل في الدوران ليلاً ونهاراً.

فتارة عروج وتارة نزول، وتارة كسوف وتارة خسوف، وتارة شدة في الضوء وتارة خفة، وتارة حرارة، وتارة شدة، وتارة ضعف، حتى لا يقع الناس عند رؤية هذه الأحوال المتغيرة في وساوس عبادتها، وحتى يخرج منها من وقع فيها، ويبقى لواء معبودية مالك الملك وحده مرفوعاً في العالم.

ومع ذلك، فإن إظهار مسكنتها بهذه الشدة والقوة دليل أيضاً على أن كوكباً عظيم المرتبة كالشمس كان يمكن أن يكون مظنة لشبهات المعبودية، فاحتيج إلى التوقي والمنع.

جامعية الشمس

ومن هذا ثبت مقصودنا بوضوح: أن الشمس، بسبب هذه علامات الرفعة والعظمة، ومعها أيضاً تفرد آثار العبدية والعبودية، كانت وحدها نجماً فريداً جامع الشؤون، يصلح لأن يقوم مقام التمثيل لفتح السير الخاصة والأحوال والكمالات لجوهر عالم الروحانية الفريد ودرته الطاهرة، جناب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكانت هي وحدها أهلاً لأن تعرض أحوالها وصفاتها، فتُرى من خلالها أحوال الرسول وأوصافه الرفيعة في صورة مثال محسوس.

ومن الظاهر أنه إذا حضرت صورة حسية هي الأعلى مشابهةً لحقيقة هي الأعلى ولكيفية روحانية هي الأعلى، صار إدراك الحقيقة المعنوية المشابهة لها سهلاً. فلما لم يكن وصول الفهم إلى كمالات الظاهر والباطن لحضرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، وإلى مقامات النبوة وختم النبوة، ممكناً بأي بيان عباري، لم يكن يمكن أن تكون هناك إلا أبلغ الأمثلة وأجمعها، وهي مثال «السراج المنير». فبالتشبيه به، أي بإظهاره شمس النبوة، قربت جميع مقامات سيرته إلى الفهم. ولذلك شبّهه القرآن بالشمس، وادعى بلهجته المعجزة:

«وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.»

أي: يا أيها النبي، أرسلناك داعياً إلى الله بأمرنا، وسراجاً مضيئاً.

ومن ذلك يظهر دعوى كونه شمس النبوة.

اللقب القرآني للشمس

في هذا الموضع قد يخطر في ذهنكم هذا الإشكال: إن معنى السراج في لغة العرب هو المصباح، لا الشمس. ولذلك، فإن كان قد شُبّه به في هذه الآية، فقد شُبّه بالمصباح المضيء، لا بالشمس. ومجرد تشبيه الحضور بالمصباح لا يحمل أهمية خاصة، ولا يمكن أن يلقى من هذا التشبيه ضوء جامع على كمالاته الشاملة. فكيف إذن حُمل السراج على الشمس؟

والجواب أن يقال: أما من جهة اللغة، فليس معنى السراج في العربية المصباح وحده، بل يأتي بمعنى الشمس أيضاً. ولذلك قيل في المجلد الثالث من لسان العرب: «والشمس سراج النهار»، فسميت الشمس مصباحاً. ومن هذا اتضح أن الشمس تسمى في اللغة مصباحاً أيضاً. ثم قيل: «والسراج الشمس»، فسمي المصباح شمساً. ومن هذا اتضح أن السراج في اللغة يطلق على الشمس أيضاً. ثم إن صاحب لسان العرب ساق هذه الآية الكريمة: «وسراجاً منيراً» دليلاً على ذلك. ومعنى هذا أنه عنده، من جهة اللغة ومن جهة التفسير، يجوز أن يؤخذ معنى السراج في هذه الآية بمعنى المصباح وبمعنى الشمس أيضاً. ولذلك صرح بذلك فقال:

«إنما يريد مثل السراج الذي يستضاء به، أو مثل الشمس في النور والظهور.»
(لسان العرب، ج 3، ص 122)

ومن هذا يتضح أن تشبيه الحضور بالشمس بواسطة «السراج المنير» مطابق تماماً للغة. وإذا نظر في التفاسير، فبحسبها أيضاً يمكن أن يؤخذ معنى السراج للمصباح وللشمس معاً. فقد كتب الصاوي في حاشيته على الجلالين:

«قوله: وسراجاً، يحتمل أن المراد بالسراج الشمس، وهو ظاهر، ويحتمل أن المراد به المصباح.»

وقد ذكر محشي البيضاوي أيضاً الاحتمالين في الآية، فقال:

«وهو الشمس لقوله تعالى: وجعل الشمس سراجاً، أو المصباح الذي يستضاء به.»

وكتب الحافظ ابن كثير المحدث في تفسيره المشهور المقبول:

«قوله: وسراجاً منيراً، أي: وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند.»
(تفسير ابن كثير، الطبعة المصرية، سورة الأحزاب، ج 3، ص 57)

وعلى كل حال، فاتجاه التفاسير في هذا الباب واضح: أن السراج يمكن أن يراد به الشمس، وقد أريد به ذلك. بل إن ابن كثير لم يبين ذلك على سبيل الاحتمال، بل على سبيل التعيين، فأوضح أن

المراد بالسراج هنا هو الشمس نفسها. ولذلك اتفقت اللغة والتفسير على أن حمل السراج هنا على الشمس صحيح وسليم من جهة اللغة ومن جهة التفسير معاً.

وفوق اللغة والتفسير، إذا نظر إلى عين القرآن، اتضح منه بجلاء أن معنى «السراج المنير» هنا قد أخذ بمعنى الشمس نفسها، وأن المقصود إثبات الذات النبوية المباركة شمساً. لأن السراج في اصطلاح القرآن الحكيم لقب الشمس نفسها، وينبغي أن يراد به الشمس نفسها، كما أن لقب القمر في التعبير القرآني هو النور، ويراد به القمر نفسه. ولذلك قيل في سورة نوح عن القمر إنه نور، وعن الشمس إنها سراج. قال تعالى:

«وجعل القمر فيهن نوراً، وجعل الشمس سراجاً».

بل إن هذا اللقب للشمس، أي السراج، معروف ومتعين في العرف القرآني إلى درجة أنه إذا ذكر السراج من غير ذكر اسم الشمس، لم يمكن أن يراد منه شيء غير الشمس. ولذلك في سورة الفرقان، بعد أن وصف القمر بأنه منير، اكتفي في مقابله بذكر هذا اللقب وحده للشمس، أي السراج، فيتبادر منه إلى الأذهان الشمس نفسها. قال تعالى: «وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً».

فمن هذه الآية اتضح أن السراج في العرف القرآني لقب الشمس نفسها، وأن السراج في اصطلاح القرآن يقال للشمس نفسها. فتأملوا الآن: من جهة، قرر القرآن أن اللقب الخاص للشمس هو السراج؛ ومن جهة أخرى، سمى القرآن نفسه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم سراجاً أيضاً، كما هو واضح من آية «وسراجاً منيراً». فمن وحدة اللقب هذه، أي أن الشمس سراج وأن الحضور أيضاً سراج، وأن معنى السراج في العرف القرآني هو الشمس، صار كون الحضور شمساً واضحاً كالشمس.

والحاصل أنه إذا كان اللقب الخاص للشمس هو السراج، وكان هذا السراج نفسه لقباً للحضور أيضاً، فقد ثبت بحسب الاصطلاح القرآني أن الحضور شمس، وهذا هو حاصل التشبيه. والخلاصة أن الشمس إن كانت شمساً فلكية، فالحضور شمس ملكية أرضية؛ تلك تطلع من أفق السماء، وهذا يطلع من أفق الأرض، وبه تنكشف طبيعة هذا التمثيل. والحاصل أنه ثبت أولاً من اللغة، ثم من التفسير، ثم من عين القرآن، أن معنى السراج في «وسراجاً منيراً» هو الشمس، وأن مصداقه هنا هو الذات النبوية المباركة. فثبتت الذات المقدسة للحضور، بحسب اللغة والتفسير والقرآن، شمساً، وظهر أن المقصود في هذه الآية تشبيه الحضور بالشمس. وهذا هو مقصودنا.

ولكن قبل أن نلقي الضوء، بحسب هذا التشبيه، على مقامات السيرة النبوية، نرى من الضروري إزالة شبهة أخرى. وهي أن أحداً قد يتوهم من سلسلة هذا التشبيه مساواةً ومماثلةً بين الذات النبوية المباركة وبين الشمس، فيظن أن هذه الشمس المادية وتلك الشمس الروحانية في درجة واحدة. أو قد ينشأ الوهم عند أحد، بالنظر إلى بعض استعمالات البلاغة، أن المشبه به في باب التشبيه يكون غالباً أفضل من المشبه، فيلزم، معاذ الله، أن تكون الشمس أفضل من الحضور، ما

دام الحضور يشبه بالشمس. ومن الواضح أنه في هذه الصورة لا تثبت فضيلة الحضور التي هي المقصودة، بل تثبت بالعكس فضيلة الشمس، وهذا خلاف المقصود، وقلب للموضوع، وخلاف للواقع أيضاً.

والجواب أن القرآن الكريم ذكر مع هذا التشبيه الألقاب الخاصة لهاتين الشمسين، فأبرز نوعية كل واحدة منهما على حدة، حتى يتشخص ويتضح مقام كل منهما ومرتبته، ولا يلتبس على أحد تفوق الشمس أو مساواتها بالنسبة إلى الحضور. ولذلك ذكر القرآن صفة هذه الشمس المادية بأنها «وهاج»:

«وبنينا فوقكم سبعاً شداداً، وجعلنا سراجاً وهاجاً».

ومعنى الوهج في لغة العرب هو الضوء مع الحرارة. فالشيء الذي يكون مضيئاً وحاراً يسمى وهجاً، والذي يكون فيه ضوء كثير وحرارة كثيرة يسمى على سبيل المبالغة وهاجاً. فالشمس، كما أنها شديدة الضوء إلى حد لا تثبت عليها العين، فهي أيضاً شديدة الحرارة إلى حد أن أصحاب الأبصار أنفسهم لا يستطيعون الثبات تحتها مدة طويلة. ومن هذا يتضح أن هذه الشمس تحمل النارية، وأنها منبع النار. فإن شأن النار أنها مضيئة وحارة معاً. ولذلك تبدو هذه الشمس المادية كوكباً نارياً، ولهذا وصفت بلفظ الوهاج.

أما شمس النبوة، فإن الحق تعالى لما سماها سراجاً لم يذكر لقبها «وهاجاً»، بل ذكره «منيراً»، وهو شأن القمر. فقد سمى القرآن القمر منيراً ونوراً: «وقمراً منيراً» و«والقمر نوراً». وفي هذا اجتمعت البرودة مع الضوء. ولذلك صار معنى المنير: صاحب الضوء البارد. فثبت أن هذه الشمس الروحانية، أي الذات النبوية، فيها ضوء كضوء الشمس، لا ضعف فيه كضعف ضوء القمر بحيث لا يدفع شدة ظلمة الليل؛ ولكن فيها برودة كبرودة القمر، لا فيها إحراق الشمس وحرارتها بحيث تكون مؤذية. والحاصل أن الشمس المادية نارية، والشمس الروحانية نورية. وبهذا ظهر الفرق بين نوعي ضوء هاتين الشمسين ونورانيتهما: فإحداهما نارية، والأخرى نورية.

ومع ذلك ينكشف من هذا أيضاً الفرق بين أصل هاتين الشمسين. وذلك أن الشمس المادية لما كانت تحمل النارية، ومخزن النار هو جهنم، فإن كل شيء فيها ناري ومؤذ. فقد سمي ماؤها حميماً، وشبهت وجوه أهلها المحترقة بالفحم، ووصف لونها بالسواد لشدة نارها، وأظهر بسبب شدة لهبها وحرارته أن بعضها يحرق بعضاً ويؤذيه، وأظهرت ملائكتها كأنهم غضب مجسم، والغضب قطعة من النار. وأظهرت شدة حرارة سموم حياتها وعقاربها، وهي أيضاً جزء ناري. وبالجملة، جهنم نار، فكل شيء فيها نار.

ولذلك لا بد أن تكون للشمس، من جهة هذه النار، مناسبة بجهنم؛ بل تكون في الحرارة والإحراق ممثلة لجهنم، تمتص حرارة جهنم ونارها ثم تقذفهما على الدنيا، كما تمتص العدسة المحرقة حرارة الشمس فتحرق الورق والثوب. ومن هذا يثبت أن أصل هذه الشمس النارية جهنم. ولعل

لذلك، على قاعدة «كل شيء يرجع إلى أصله»، إذا انتهى الحساب يوم القيامة، ألقيت هذه الأجرام العظيمة الثقيلة، أغطية القمر والشمس وأجسامهما الكروية، في جهنم. فكأنها توصل إلى الموضع نفسه الذي منه نشؤها ونماؤها ووجودها.

بخلاف الشمس الروحانية، فإنها بدل النارية مظهر النورانية، وفيها مع الضوء برودة وسلامة. ومن الظاهر أن مخزن النور والسلامة هو الجنة. ولذلك ثبتت الراحة والنورانية في كل شيء من أشياء الجنة. فقد شبهت وجوه أهلها باللمعان والإشراق. وأخبر أن أهل الجنات العلى يتراءون لمن دونهم كالكواكب اللامعة إذا ظهروا لهم. وقيل إن قصورها ومنابر الجلوس فيها مصنوعة من نور. ووصفت سيقان نسائها في الشفافية واللمعان كالزجاج، بحيث يرى ما وراءها. وقيل إن أبوابها وجدرانها كالزجاج، يرى منها ما في الداخل والخارج. ووصف ماؤها بأنه أصفى وأبرد من الثلج وأحلى من العسل. وسميت إضاءتها نور العرش. وبالجملة، الجنة نور وسلامة، ففي كل شيء من أشيائها نور وسلامة.

ولذلك لا بد أن تكون لهذه الشمس، شمس النور والسلامة، من جهة هذه البرودة النورانية التي صورتها المعنوية الرحمة والرأفة، مناسبة بالجنة نفسها. بل تكون هذه الشمس ممثلة لها، تمتص منها النور والسلامة وتقذفهما على الدنيا. ولذلك يظهر في جسده المبارك، وجماله المبارك، وحقيقته الطاهرة، النورانية والجاذبية جميعاً. فظهور النور من أسنانه عند كلامه بنص الحديث، وظهور أن أنفه المبارك مرتفع لشدة لمعانه، وظهور وجهه المبارك في اللمعان والإشراق كالشمس، وبنص الحديث: «كأن الشمس تجري في وجهه»، ومقارنة الصحابة وجهه المبارك بالقمر ليلة البدر وتفضيل نور وجهه على القمر، وتسميه الحقيقة المحمدية في الحديث نوراً: كل ذلك من علامات وآثار أن هذه الشمس الروحانية، لكثرة هذه الأنوار، لها مناسبة بذلك مخزن النور، أي الجنة، لا بجهنم.

فكما أن الشمس المادية كانت في حق جهنم بمنزلة بطارية تمتص حرارتها وتقذفها على الدنيا، فكذلك هذه الشمس الروحانية تكون في حق الجنة والعرش بصورة بطارية تمتص نورها في كل وقت وترشه على الدنيا.

ولعل لهذا، على قاعدة «كل شيء يرجع إلى أصله»، فإن شمس النبوة هذه، حضرة سرور العالم صلى الله عليه وسلم، يتكلم دائماً عن الجنة، ويميل إليها، ويرغب فيها، ويصف جغرافيتها وتاريخها، ويدعو بها، ويطلب الأعمال الموصلة إليها ويعمل بها.

وبناءً على ذلك، سمى القرآن الحكيم الشمس المادية «سراجاً وهاجاً»، وهو مجموع الضوء والحرارة، وسمى الشمس الروحانية «سراجاً منيراً»، وهو مجموع الضوء والبرودة. فإن كانت تلك تحرق الأشياء بوهاجيتها، فهذه تبلغها حد الكمال بمنيريتها. وإن كان يحصل في أوقات مختلفة نفور من تلك بسبب إحراقها وحرارتها، فإن المحبة والعشق يزدادان دائماً من برودة هذه النورانية. إن كان في تلك شأن الوقوع والفعلية، ففي هذه شأن الجاذبية. هناك إحراق، وهنا

إطفاء. هناك تحترق القلوب والأرواح، وهنا تنال القلوب والأرواح الحياة. إن كان البدن يسود تحت تلك، فالبدن يتنور تحت ظل هذه.

ولذلك، فإن القرآن، إذا شبه شمسه الروحانية بالشمس المادية في صفات مخصوصة، فقد ذكر معها وصفي الوهاج والمنير، فوضح الفرق بينهما أيضاً. فشمس السماء نارية لأنها تربت بـ«نار الله الموقدة»، وشمس الأرض هذه نورية لأنها تربت بـ«نور السماوات والأرض». إحداهما مرتبطة بجهنم، والأخرى مرتبطة بالجنة والعرش، حتى لا يخطر لأحد من هذا التشبيه شبهة المماثلة بين هاتين الشمسين، فضلاً عن أفضلية الشمس المادية، وحتى يفهم الفاهمون أن هذه الشمس الفلكية شمس حقاً، لكنها في مقابلة هذه الشمس الملكية لا تملك حتى منزلة مصباح ميت.

أين المصباح الميت؟
وأين نور الشمس؟

ومع ذلك، فإذا كان يمكن أن تفتح منزلة الخاتمية وشؤون النبوة لحضرة ختمي مآب صلى الله عليه وسلم بمثال من الأمثلة، فلم يكن ذلك المثال إلا الشمس. ولذلك، مع هذا الفرق، اختيرت هي نفسها لهذا التمثيل.

لماذا كان هذا التمثيل مركباً من الشمس والمصباح؟

ومع ذلك يبقى هنا هذا السؤال: إذا كان المقصود تشبيه الحضور بالشمس نفسها، فلم ترك لفظ الشمس واختير لفظ السراج؟ فالعبارة المباشرة للتشبيه في الظاهر كانت أن يقال: «وشمساً منيراً»، لا أن يقال له «سراجاً منيراً»، أي مصباحاً مضيئاً، ثم يراد من المصباح المضيء الشمس. فما الحكمة إذن في أن يختار في التشبيه عنوان المصباح، ويكون المراد منه الشمس؟

والجواب أن يقال: إن المقصود هو بالفعل تشبيه الحضور بالشمس، حتى يقع الضوء الكامل على جميع مقامات النبوة من المقامات الحسية للشمس. ولكن اختير عنوان المصباح لأن في المصباح صفة خاصة ليست في الشمس ولا في القمر، وهي أن الشمس لا تصنع شمساً أخرى، أما المصباح الواحد فيضيء منه مصباح آخر. فشُبِّه بالشمس حتى يظهر تفرده في اللمعان والضياء وسائر الخصائص، كما أن الشمس لها بين جميع الأجسام المضيئة تفرد وعدم نظير من حيث ذاتها وصفاتها. غير أن هذه الشمس عُبر عنها بلفظ المصباح حتى يظهر أيضاً كمال صناعة النماذج منه بكمالات تربيته وتأثيره؛ فقد أعد مئات الألوف من النماذج على لونه وطريقته، كما تشتعل مئات الألوف من المصابيح من مصباح واحد.

والفرق إنما هو أن المتربين بعده لا يمكن أن يصيروا أنبياء، لأن النبوة قد كملت وختمت؛ ولكنهم صاروا حتماً أمناء أنوار النبوة وحامليها. لا يمكن أن يقال لهم أنبياء، ولكن يمكن أن يقال عن أسلوب حياتهم، درجة بعد درجة، إنه كالنبي. ولذلك قال الحضور نفسه:

«علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل.»

فكما نزل الوحي على الأنبياء، حصل الإلهام لهؤلاء الربانيين. وكما وقع للأنبياء شهود الأمور الغيبية، وقع الكشف لهؤلاء المقدسين. وكما ظهرت المعجزات على أيدي الأنبياء، ظهرت الكرامات على أيدي هؤلاء الأكابر. وكما صبغ الأنبياء أقاليمهم ومناطقهم المسلمة إليهم بالعلم والأخلاق، فكذلك كل واحد من هؤلاء الكاملين حيثما جلس ملأ ذلك الإقليم بالإصلاح والرشد، وأعد جماعات بعد جماعات من الأتقياء. وكما أخبر الأنبياء عن الغيوب، دل هؤلاء الأولياء على عوالم خفية كثيرة.

وبالجملة، فإن هؤلاء الأولياء والأتقياء والأفراد الربانيين، من الصحابة إلى خاتمة الدنيا، لم يصيروا أنبياء؛ ولكنهم بالاتباع والتربية النبوية صاروا يقال لهم حتماً أمثال الأنبياء. فالشمس تضيء مئات الألوف من الأشياء، لكنها لا تستطيع أن تصنع نموذجاً مثلها. أما الحضور، فكما أنه شمس لأن قلوباً لا تحصى أخذت منه النور، فهو أيضاً مصباح لأنه أعد بعده مئات الألوف من النماذج. فإن لم يبلغوا النبوة، فقد صاروا أمناء كمالات النبوة، وتصفى نور النبوة وظهر من كل قول وفعل من أقوالهم وأفعالهم.

فبهذا التشبيه المركب كان المقصود إثبات ثلاث صفات له. الأولى: أنه أشد نوراً بذاته. والثانية: أنه ينير غيره. وهاتان الصفتان مشتركتان بين الشمس والمصباح. والثالثة: أنه بفيض ضيائه يصنع أيضاً نماذج مضيئة مثله. وهذه هي الصفة التي لا توجد في الشمس، وإنما توجد في المصباح فقط. ولذلك أوضحت هذه الصفة الخاصة بلفظ المصباح، إذ لا تظهر بالشمس، وأوضحت بقية أوصاف النبوة بلفظ الشمس، إذ لم تكن تظهر بلفظ السراج وحده. ولذلك قيل «سراج»، وأريدت الشمس؛ أي إن التشبيه في الألفاظ كان بالمصباح، وفي المدلول كان بالشمس، حتى يقع الضوء بهذا التشبيه المركب على الصفات الثلاث كلها لنبوته.

وجوه الشبه ومقامات النبوة والسيرة

في الشمس آلاف الشؤون والصفات. ولو جمعت واحدة واحدة مما يخطر في الذهن، لصار هذا المبحث مجلداً ضخماً، وامتد حتى لا يبقى تحت الضبط. ولذلك اختيرت وجوه الشبه الأساسية فقط، وألقي بها الضوء على المقامات الأساسية للسيرة والنبوة فقط. ومن بين مئات وجوه الشبه تلك اختيرت وجوه قليلة أساسية على سبيل المثال. والمقصود تحصيل بركة ذكر الرسول، وإظهار مقامات السيرة خارجة من القرآن بواسطة سلسلة هذا التمثيل. أما الإحاطة بالصفات فليست مقصودة، وليست هي في وسع الإنسان.

الحاجة إلى الشمس الروحانية

الأمر الذي يتضح ابتداءً من هذا الشبه هو أنه إذا كانت للكون المادي حاجة إلى شمس جسمانية، وهي حاجة لا ريب فيها ولا شبهة، فإن للكون المعنوي والروحاني أيضاً شمساً روحانية لا بد منها. فكما أن الحق تعالى خلق لهذا الكون الجسماني شمساً مادية استنارت بها الأرض والزمان،

فكذلك خلق شمساً روحانية، هي الذات النبوية المباركة، استنار بها الكون والمكان. تلك تنير الأجسام، وهذه تنير الأرواح. تلك تبرز الصور، وهذه تبرز الحقائق. تلك تحرك الطبائع، وهذه تحرك العقول والفطر. عمل تلك في الحياة، وعمل هذه في المعاني والروحانيات التي لم تبق الحياة نفسها محرومة منها. وبالجملة، فكما أن للعالم المادي شمساً، كذلك لا بد للعالم الروحاني أيضاً من وجود شمس.

فإن الجميع يعلمون أن الحياة والجسمانيات لا تبقى حية بلا حرارة؛ فالحرارة الغريزية في حقها بمنزلة الروح. إن لم تبق، لم يبق هذا العالم الناسوتي أو العالم المادي أيضاً. ففي الجمادات والنباتات والأحياء، من الإنسان إلى أحقر حشرة، جزء الحياة الأعظم هو الحرارة. فمثلاً، إذا لم تكن في البدن حرارة وسخونة، لم تبق الأشياء الجسمانية. بل لو سحبت الحرارة من هذه الدنيا كلها ومن أجزائها، لتجمد الكون كله وصار جليداً، وبقي جماداً محضاً، ولم تبق فيه قدرة على الحركة والانتقال، وهما من أوائل علامات الحياة.

فالحرارة إذن بمنزلة الروح للكون. والجميع يعلمون أن منبع هذه السخونة وروح السخونة ليس شيئاً غير الشمس، ومنها يصل فيض الحرارة إلى الجميع. بل إن جميع وسائل الحرارة التي تنشر النار في الدنيا صارت نارية بأخذ الفيض من الشمس، حتى إن النار المتلهبة نفسها محتاجة إلى هذه الكرة النارية ومستفيدة منها في حرارتها وشدتها. فلو لم تكن الشمس، لما خرجت النار من الصوان. ولو لم تكن الشمس، لبردت الحجارة والحديد كلها، ولم تخرج شرارات النار أبداً من اصطدامها. ولو تركت جميع المواد القابلة للاشتعال مغمورة دائماً في البحر بحيث لا تمسها حرارة الشمس، لتفتت وتهاوت، ولم تنبعث النار أبداً من احتكاكها. ولو لم تقع أشعة الشمس على البحار، لصارت جبالاً من الجليد، وماتت جميع أحيائها، وانقطعت جميع مواسمها، ولم ينل العالم قطرة واحدة من الماء.

ولو لم تلق الشمس ظلها النوراني وأثرها الناري على الحقول، لما نضجت حبة واحدة، ولنزلت الدنيا إلى حتف الفناء محرومة من الحبوب حبة بعد حبة. ولو لم يقع نور الشمس وحرارتها المؤثرة على الشيء المعني كما ورد في النص، لم تبق فيه الكهرباء، وهي نار في حق الماء بمنزلة روح البقاء. ثم إن هذا الإنسان نفسه، وهو عين هذا الكون ومصباحه، قائم على سطح الأرض بفضل هذه الحرارة الشمسية. فإذا انقطعت منه الحرارة الغريزية، انتهى هو أيضاً، مع أن التراب والماء والهواء باقية فيه كما كانت، وقائمة في جثته على حالها، ولكن لا يمكن أن يسمى إنساناً حياً.

وليس الأمر الحياة وحدها، بل عوارض الحياة أيضاً، من صحة وقوة ونشاط وحوصلة وهمّة ونحو ذلك، قائمة على سند هذه الحرارة. فعند طلوع الشمس ترتفع الطبائع. حتى المريض المشرف على الموت يشعر في طبعه بالحياة، وتبدو الهمة والحياة الجديدة كأنها تجري فيه. ولكن عند ميل النهار، وخاصة بعد غروب الشمس، يشعر في الطبائع بالهبوط والتعب والكلال. فإذا حصل البعد الكامل عن الشمس، وانقطع نورها فغشيت ظلمة الليل الدنيا، وقع هؤلاء الأحياء

المتعبون في الموت المؤقت، أي النوم. ثم ما إن تظهر آثار طلوع الشمس حتى تبدأ فيهم آثار البعث بعد الموت. فيبدأ هؤلاء الموتى في القيام من نوم الراحة، وتحمى سوق الحشر والنشر في ميادين الدنيا.

وبالجملة، فإن الحياة المادية للجماد والنبات والحيوان والإنسان والعناصر والمواد موقوفة على الحرارة الغريزية، ومنبع الحرارة هو الشمس. ولذلك يظهر أن الحياة الجسمانية لجميع الماديات تابعة لوجود الشمس. فكان مقتضى فطرة الله أن يعطى هذا العالم الناسوتي شمساً تكفل حياته المادية.

وكذلك تماماً، فإن الحياة الروحانية للكون الواعي، ونشوء أحوال الروح ومقاماتها ونماءها، قائمة أيضاً بحرارة الإيمان ودفء العشق الإلهي، واسم ذلك هو الإيمان. فسوق العلم والأخلاق والمعرفة والأحوال والمقامات والواردات القلبية والوصول والقبول قائمة بهذه الحرارة الإيمانية. وبقدر ما يكون الإيمان ودفء العشق، بقدر ذلك يثور حماس الحمية الدينية والغيرة الملية والمجاهدة والجهاد في سبيل الله. فإذا لم تبق حرارة الإيمان، انتهت هذه الكمالات والمقامات الروحانية كلها، وبقي الإنسان مجرد جماد أو نبات أو حيوان أو مجرد هيكل إنساني لا يذكر فيه شأن الحياة الحقيقية.

وبفوران هذه الحرارة الإيمانية تبقى مظاهر الأمن والأمان، والسلم والسلامة، والمحبة والوفاء، والإيثار والمواساة قائمة في معاملات الدنيا. ولو لم تكن هذه الحرارة، وهذا فوران «الله الله»، وهذه نار الشوق الملتهبة في القلوب من العشق والمحبة الداخليين، لأحرقت أعمال النفس وهوى النفس التخريبية سكون الأنفس والآفاق وطمأنينتها. وعلى كل حال، فإن نار المحبة الإلهية هذه تحرق كل ما سوى الله، وتجعل الإنسان مستغنياً عما سواه. وبذلك تنتهي المنازعات النفسانية والخصومات الشهوانية، وتصبح الدنيا قادرة على أن تتنفس نفس الأمن والراحة.

والجميع يعلمون أن منابع هذه الحرارة الإيمانية ودفء العشق الإلهي هم الأنبياء عليهم السلام، وأن المنبع الوحيد لحرارتهم الإيمانية أنفسهم هو الذات النبوية المباركة، لأنه خاتم النبوة، وبفيضه نال الأنبياء والأمم هذه الحرارة الغريزية الروحانية. فإن كان سائر الأنبياء نجوم النبوة، فهو شمس النبوة. ولذلك فإن آب وتاب الإيمان والإحسان، ونورهما وحرارتهما، للأولين والآخرين منبعها شمس النبوة. وبها تقوم حرارة عالم الروحانية كله وحيويته، وبعبارة أخرى حياته الروحانية. بل لما كانت حرارة عالم الروحانية كله وحيويته وحياته الروحانية ممكنة ومربوطة بشمس النبوة وحدها، كان مقتضى فطرة الله أن يهب الكون الروحاني أيضاً، كما وهب الكون المادي، شمساً روحانية تكفل حياة العالم الروحاني. فكما احتاج الكون المادي إلى شمس مادية لبقائه، كذلك احتاج الكون الروحاني إلى شمس روحانية لبقائه وحياته، وهي الذات المباركة لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.»»

. أي: هو داع إلى الله بأمره، وهو مصباح مضيء

وبالجملة، ثبت بهذا التشبيه أولاً ضرورة النبوة وضرورة ختم النبوة، وكانت مرتبطة بشمس النبوة. وهذا هو المقام الأول من «سراجاً منيراً»، وبه ظهر المقام الابتدائي لسيرة النبوة، أي ضرورة سيرة النبوة: «وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً».

فلك الشمس

ولكن كما أن الشمس المادية تحتاج إلى مدار ومحور تتحرك عليه، وهو الفلك، كذلك تحتاج الشمس الروحانية أيضاً إلى محور لا بد من الدوران عليه، وتكون عليه حركتها وانتقالها. والفرق إنما هو أن فلك الشمس المادية يكون مادياً أيضاً، فيقع أمام الأبصار الحسية، وأما فلك الشمس الروحانية فيكون روحانياً، يقع أمام عين القلب. والجميع يعلمون أن منبع الروحانية هو النبوة. ولذلك يسمى فلك شمس هذه الروحانية سماء النبوة، ويسمى الأنبياء عليهم السلام النجوم اللامعة على تلك السماء، وفيهم جناب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو شمس النبوة. ولذلك تكون حركة هذه الشمس الروحانية وانتقالها على سماء النبوة نفسها. فكأن مقامات النبوة بروج تلك السماء، وفيها تكون حركة شمس النبوة، وتكون لهذه البروج آثار خاصة تقع على الكون. وعلى كل حال، فشمس النبوة على سماء النبوة، وطلوعها وغروبها وعلوها ونزولها على هذه السماء.

الليل المظلم وأسباب الضوء

الجميع يعلمون أن الحال قبل طلوع الشمس تكون هكذا: في أول الليل يبقى الظلام منتشراً تحت السماء. تكون الأرض مظلمة، ويستولي مارد الليل الرهيب بصورته المخيفة على الدنيا كلها. تتعطل الأعمال تقريباً، ويبقى كل حي أسير بيته ومأواه. ويرتب الناس أيضاً شيئاً من الأنوار، ويدبرون أمورهم إلى حد ما في أول الليل. ولكن هذه الأنوار المحدودة والصناعية أولاً ليست شاملة حتى تنفع في كل مكان أو تتيسر في كل مكان. فإذا كان في المدن شيء من اللمعان، بقيت القرى مظلمة. وإذا شوهدت فيها أيضاً مصابيح خافتة تشتعل، فمن المحال أن تضيء بها الغابات كلها، أو أن تنجز أعمال الحقول والبساتين في ذلك الضوء. وإذا وجد شيء من الضوء في أمكنة محدودة، فهو ليس كاملاً بحيث يزيل ظلمة تعب القلب والدماغ وكلالهما، ويجري فيهما روح الهمة والحياة الجديدة نفسها التي تجري من ضوء النهار.

وعلى كل حال، فلا نور صناعي كامل ولا شامل بحيث يقاوم تماماً ظلمة الليل وآثارها الطبيعية. وبهذا تأتي ظلمات هذا الليل الديجور جيوشاً جيوشاً، فتغشى ظاهر الكون وباطنه، وتنتشر ظلمة الحس وظلمة الغفلة والنوم. وبذلك يتعطل الناس ويمتدون على الأسرة، وتصير الدنيا مقبرة للأحياء.

ولكن إذا غلظت الحجب الظلمانية غاية الغلظ، وثبت عجز الأنوار الصناعية عن إزالتها، تولى الحق تعالى، برحمته الكاملة وقدرته البالغة، ترتيب الضوء المناسب لحال الليل. فتبدأ النجوم بالظهور تدريجياً في فضاء السماء: خرج واحد، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تتزاحم النجوم وراء النجوم وتحيط بالسماء كلها. وبهذا التسلسل في طلوع الكواكب تتلألأ السماء كلها بالنجوم. وبها لا

تبقى شدة ظلمة الليل المظلم إلى حد لا يرى الإنسان يده، بل تدخل فضاء الدنيا كلها، مدنها وقراها وغاباتها وأنهارها، على السواء، في ضوء خفيف لطيف.

طلوع نجوم الهداية

وكذلك تماماً، لما كانت أرض الروحانية وزوايا القلوب تحت سماء النبوة محاطة بظلمات الجهل والظلم، وكان هذا الإنسان الظلوم الجهول قد أحاطت به ظلمات شهوات جبلته وظلمات الشبهات، وكان للنفس الأمارة والشياطين تسلط كامل على خلقته، فقد كان هو أيضاً يفكر في نوره. وللسير في هذه الظلمات استعان بقناديل العقل، وأضاء مصابيح الفهم الكهربائية في عالمه النفسي، ودبر أمره شيئاً بالفوانيس الصناعية للفلسفية. ولكن ضوء مصابيح العقل والفهم والفلسفة الخافتة لم يكن أولاً كاملاً بحيث يقطع به، مع الدنيا، منازل الآخرة أيضاً، ومع الحياة الحسية، منازل الحياة المعنوية الأخروية. ولو أمكن هذا إلى حد ما، وقطعت بعض النفوس السليمة بعض المنازل من هذا الطريق، لم يكن في هذا الضوء حياة الأرواح ولا حرارة العشق الإلهي، بحيث يبعث في القلوب همة وفي الأرواح اضطراب الشوق.

وبالجملة، فقد رتبت أنوار العقول، وبدأت على سماء النبوة نجوم ذات ألوان شتى تطلع. وكان أول نجم طلع هو آدم عليه السلام. ثم جاء شيث. ثم جاء إدريس. ثم جاء نوح. ثم جاء هود وصالح. ثم جاء إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم الصلاة والسلام، حتى بدأ على سماء النبوة، كما في نجوم السماء، ورود نجوم النبوة وظهورها متتابعاً.

«ثم أرسلنا رسلنا تترا.»
القرآن.

وبأنوار هذه النجوم النبوية وبركاتها بدأت ظلمات القلوب تنقشع، وبدأت الدنيا، حين رأتهم واتخذت نماذجهم المثالية معياراً، تقطع منازل طريق الحق.

اجتماع نجوم الهداية على سماء النبوة

ظلت هذه النجوم التي طلعت تباعاً على سماء النبوة مضيئة. أي إن آدم ونوحاً، وإبراهيم وموسى، وسليمان وداود، عليهم السلام، كلهم أضاءوا في أوقاتهم، وكانوا في عصورهم سبباً للهداية والإرشاد لأهل العالم. وكل نبي ارتحل ترك آثاره النورانية، فقام بناء الآتي بعده عليها. وهكذا جاء وقت قبل البعثة النبوية بخمس سنوات اجتمعت فيه هذه النجوم الروحانية كلها، في حجاب أنوارها، على سماء النبوة في وقت واحد، وظهر في مقابلة «ظلمات بعضها فوق بعض» ظهور «نور على نور».

المقتضيات الفطرية لطلوع الشمس على سماء النبوة

وصارت صورة السماء والأرض هكذا: في آخر الليل ملايين النجوم الصغيرة والكبيرة مضيئة في السماء، وعلى الأرض ملايين المصابيح، ومئات الألوف من الأنوار الصناعية، والمصابيح والفوانيس، ثم آلاف القناديل الكهربائية المنيرة للعالم متلألئة، ومع ذلك لا تزول الليلة المظلمة ولا ظلمتها. فلا تتبدد الليلة، ولا يطلع النهار. فكأن هذه الأنوار كلها مجتمعة لا تملك القوة على أن تجعل الليل نهاراً، ولا على أن تستأصل الظلمة بالكلية.

ولذلك، لما بلغت ظلمة الليل غايتها، صارت الأرض بلسان الحال تستغيث أن تعان بنور كامل يفرق سحب هذه الظلمات. ورفع هذا النور الناقص للنجوم، بلسان الحال، صوته طالباً أن يكتمل حتى يغلب ظلمة الليل ويظهر النهار المضيء، فيتمكن بذلك من إكمال نفسه.

وهكذا ارتفعت الصرخة الصامتة لظلمة الدنيا المنتشرة وللنور الجماعي لهذه النجوم: أن أعطونا نوراً كاملاً يجعل الليل نهاراً ويكمل الأنوار الناقصة.

آثار الطلوع

فتوجه العطاء الإلهي. وبعد نحو سبعة آلاف سنة من آدم عليه السلام، حين كانت سماء النبوة تتلألأ بجميع نجومها، ظهرت على سماء النبوة آثار قدوم شمس الروحانية المنيرة للعالم.

الصبح الصادق لسماء النبوة

فجأة انشق الفجر، وظهر الصبح الصادق للروحانية، وبشر بأن ذلك المنبع للنور ومصدر الضياء، أي شمس النبوة، موشك أن يظهر، وهو الذي كان الجميع ينتظرونه، والذي كان النور والظلمة يطلبانه بلسان واحد. إنه آت، وبعد مجيئه لن تبقى حاجة إلى نور آخر؛ لأن بعد الشمس لا تطلع شمس أخرى.

فما كانت هذه البشرى بشمس النبوة التي بشرت بطلوع الشمس؟ كانت هي الذات المباركة لحضرة المسيح عليه السلام، الذي جعل المقصد الحقيقي من مجيئه نفسه البشارة بطلوع شمس النبوة، وأعلن:

«وإذ قال عيسى ابن مريم: يا بني إسرائيل، إني رسول الله إليكم، مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.»

فكما أن الصبح الصادق يبشر بطلوع الشمس، كذلك كانت أعظم مهمة للمسيح عليه السلام هي البشارة بتشريف حضرة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا. ولذلك فهو في دائرة النبوة بمنزلة الصبح الصادق.

نعم، وكما أن لليوم ذي الاثنتي عشرة ساعة صبحاً صادقاً مقداره ساعة ونصف، فكلما عظم اليوم عظم صبحه الصادق؛ كذلك كان ينبغي لهذا اليوم العظيم من دائرة ختم النبوة، الذي يمتد طوله من البعثة النبوية إلى صبح القيامة، أن يكون صبحه الصادق طويلاً بمقداره. فلما كان هذا اليوم عظيماً، كان صبحه الصادق هو مجيء حضرة المسيح عليه السلام، الذي كان دور نبوته، أو بعبارة أخرى زمن بشارته الذي انتهى عنده طلوع شمس النبوة، قريباً من خمسمئة وخمس وسبعين سنة.

كان هذا الصبح الصادق أيضاً أثراً للشمس

ومن هنا يفهم بسهولة هذا السر أيضاً: إن نور الصبح الصادق ليس نوراً مستقلاً، بل هو ضوء الشمس نفسه. فهو لمعة ابتدائية من ذلك النور، تكون فيها الآثار نفسها التي تكون في نور الشمس. ولذلك ما إن يظهر حتى تخبو جميع النجوم، وبعد مدة قليلة من طلوع الصبح الصادق لا يبقى نجم يرى. وكذلك كان حضرة المسيح الصادق عليه السلام لمعة من النور المحمدي، وكان له شبه كامل به في كثير من صفات الكمال.

فإن كان الحضور قد سمي رحمة للعالمين ورحمة مهداة:

—«وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»

فقد سمي المسيح عليه السلام أيضاً رحمة:

«ولنجعله آية للناس ورحمة منا، وكان أمراً مقضياً.»

وإن كان الحضور قد سمي العبد الكامل، أي لم يذكر مقيداً بصفة خاصة، كعبد شكور أو عبد صبور ونحو ذلك، بل قيل له العبد المطلق، ومعنى ذلك كمال العبودية، وأعلن الحق تعالى بنفسه عبوديته، وهذا نفسه دليل على كمال عبوديته، كما قال:

—«سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى»

فقد أكرم حضرة المسيح عليه السلام أيضاً بهذا الخطاب، خطاب العبد المطلق، غير أن لفظ العبد أجري على لسانه هو نفسه، لأن قومه كانوا سيتخذونه معبوداً. فقال:

«إني عبد الله، آتاني الكتاب وجعلني نبياً»، إلى آخره.

وإن كان الحضور قد شرف بالخاتمية، لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين: «ولكن رسول الله وخاتم النبيين»، فقد أعطي حضرة المسيح عليه السلام أيضاً نوعاً من الخاتمية، إذ هو خاتم أنبياء بني إسرائيل. فالحضور خاتم مطلق، وحضرة عيسى عليه السلام خاتم الإسرائيلية. والقدر المشترك بينهما هو وصف الخاتمية.

وإن كانت أمة الحضور، بسبب كونه رحمة للعالمين، قد جعلت أمة رحمة وسميت الأمة المرحومة، فقيل: «رحماء بينهم»، وفي بعض الحديث: «هينون لينون»، فقد أعطيت أمة المسيح أيضاً هذا الوصف نفسه:

«وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة.»

وإن كانت أمته قد أنعمت عليها الحكومة العالمية، حتى إن المسلمين في الابتداء أيضاً غمروا العالم كله، ودوى صيت قوتهم وشوكتهم من المشرق إلى المغرب، وأخبر في الانتهاء أيضاً أنهم سيغمرون العالم كله، إذ قيل:

«هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله» ـــــ

وفي الحديث النبوي:

«إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها» ـــــ

فقد جعل ملك أمة حضرة المسيح أيضاً دائماً وعالمياً إلى جانب الأمة المسلمة. وقيل لهم:

«والروم ذوات القرون، إذا هلك قرن خلفه قرن، الحرب بيننا وبينهم سجال، ينالون منا وننال منهم.»

أي إن هذه الأمة ستسير إلى جانب الأمة المسلمة في الغلبة والمغلوبية. وقد أخبر عن غاية عروجها واقتدارها وغلبتها في العالم كله للزمن القريب من ظهور المهدي. وكما يشاهد اليوم هذا الغلبان، فقد بدأت مقدمات غلبة النصارى واقتدارهم منذ ما بعد مرور ألف سنة على المسلمين، وهي اليوم في غاية عروجها.

وإن كان الحضور قد عرج به بجسده العنصري، فقد رفع حضرة المسيح عليه السلام أيضاً إلى السماوات بجسده العنصري. والفرق أن المسيح أخذ إلى الفلك الرابع، وهو مقامه، وأمسك هناك، وأما الحضور فقد مرر بالسبع السماوات كلها، ثم إلى سدرة المنتهى، مقام جبريل، ثم عبر السدرة إلى الجنات، وعبر الجنات إلى المستوي، مكتب القضاء والقدر، ثم رفع من هناك إلى العرش، وأعطي أقصى درجة القرب.

وإن كان الحضور قد أخرج بالهجرة من وطنه ليعود إلى وطنه بقوة وشوكة، ثم لا يبقى محدوداً بوطنه وحده، بل تسلم إليه وإلى أمته مفاتيح خزائن العالم كله، ويمهد لانتشار دينه في العالم كله؛ فقد هاجر حضرة المسيح أيضاً من وطن الدنيا إلى وطن السماء، حتى يعود في آخر الزمان بقوة وشوكة إلى بلده الشام، وينزل في المسجد الأقصى، وهو مولده ومنشؤه، ثم لا يبقى محدوداً بذلك الإقليم وحده، بل يقوم دور حكمه في العالم كله، ويجعل الإسلام، بوصفه مجدد الإسلام، غالباً حاكماً على العالم كله. والفرق أن المسيح عليه السلام سيقضي هناك آلاف السنين ثم يأتي بتلك القوة فيغلب العالم، أما الحضور ففي ليلة المعراج عاد في لحظات قليلة حاملاً تلك القوى

العروجية كلها، ورجع إلى وطنه مكة بشوكة، وبفتح مكة فتحت أبواب الفتوح والعروج والاقتدار العالمي.

وإن لم يجعل لأهل وطن الحضور، أي أهل الحجاز، جزية، بمعنى أن يدفعوا هذا النوع الخاص من الضريبة ويبقوا على دينهم عائشين تحت شوكة الإسلام، بل كان حقهم إما الإسلام وإما القتل؛ لأنهم، مع معرفتهم التامة بالنبي ودين النبي، كانوا مخرجين للنبي من وطنه، ولم يريدوا بسبب العصبية القومية والعناد أن يبقى النبي بدينه في وطنه، بل ولا في أي بقعة من الدنيا خارج وطنه؛ لذلك لم تكن جزاؤهم إلا ألا يجدوا ملجأ في أي ناحية مع كفرهم، وألا يبقوا في دنيا الإسلام مع دينهم الباطل: فإن بقوا فمسلمين، وإلا أوردوا مورد القتل.

فكذلك في الدور الأخير لحضرة المسيح عليه السلام، بعد نزوله، لا تبقى الجزية للأمم، وخاصة لليهود؛ بل إما قبول الإسلام وإما القتل. لأن اليهود، مع كونهم أهل البيت، أي بني إسرائيل، ومع أنهم رأوا أكثر من غيرهم علامات صدق المسيح الطاهر، لم يقبلوا لحظة واحدة، بعصبيتهم وعنادهم، أن يبقى حضرة المسيح بدينه في الدنيا. فدبروا أسباب صلبه، وصلبوه في زعمهم أيضاً، وإن كان ذلك بأمر الله قد وقع على شبيهه. ثم هاجر به الحق تعالى إلى السماوات بالعزة.

ومن جهة أخرى، بعد نزول المسيح، حين تنقسم الدنيا في ذلك الوقت إلى فريقين متقابلين لا غير: إما أن يكونوا أنصار المسيح النازل، أي المسلمين والنصارى الذين يدخلون في الإسلام، وإما رفقاء الدجال، وأكثرهم وأغلبهم من اليهود؛ فإن هؤلاء اليهود الدجاليين والدجال نفسه لن يطيقوا لحظة واحدة أن يبقوا قائمين في أي ناحية من العالم مع حضرة المسيح عليه السلام. ولذلك كان جزاؤهم أن لا يعطوا ملجأ في أي ناحية من الدنيا مع الدجل والفساد، حتى لا يلوثوا الدنيا بقذارة هذا الكفر والعناد الشديد، بل إما أن يسلموا أو يقتلوا.

وعلى كل حال، فإن حضرة المسيح عليه السلام له مناسبة ومشابهة بحضرة خاتم المرسلين عليه السلام في أعلى درجات الكمال. ومنشأ ذلك أولاً قرب العهد، فهو أقرب الأنبياء إلى الحضور من حيث الزمان. وليس بينه وبين الحضور نبي آخر، ومن الواضح أن القرب الزماني يوجب بطبعه حدوث مناسبة ونوع مشابهة.

وثانياً، هناك قرب صوري خلقي أيضاً، وبه انفتح باب تلك المشابهات المذكورة؛ لأنه من ذرية الشبه المحمدي. فإن القرآن صرح بأن جبريل عليه السلام ظهر في صورة كامل الخلقة، وبعبارة القرآن في صورة بشر سوي، فنفخ في جيب مريم الطاهرة، فحملت. وكان جبريل حينئذ في الصورة المحمدية، كما نقلت في روح المعاني بعض الآثار والروايات في ذلك. وكل صورة تقتضي حقيقة تناسبها. ولذلك اقتضت هذه الصورة المحمدية نوعية الكمالات المحمدية، وإن كانت في ذلك الوقت لباساً لجبريل. فكأنه في تلك الصورة أخذ نوعية الحقيقة المحمدية نفسها، ونفخ في جيب مريم الطاهرة، فكان من ذلك وجود المسيح عليه السلام في بطن أمه.

ومعنى ذلك أنه كأن نوعية الحقيقة المحمدية نفسها دخلت في حقيقة المسيح عليه السلام بواسطة الشبه المحمدي. ولذلك دخلت تلك النوعية نفسها في كمالات المسيح عليه السلام ومقاماته وشؤونه وأحواله، وهي نوعية الكمالات المحمدية. فصارت كمالاته مشابهة للكمالات المحمدية، وظهرت تلك المشابهات والمناسبات الظاهرة التي قدمت قبل قليل بعض نماذجها.

وبسبب هذه المناسبات والمشابهات المتعددة اختير في الابتداء ليعطي البشرى بشمس النبوة، أو بعبارة أخرى ليكون الصبح الصادق لتلك الشمس؛ لأن نور الصبح الصادق هو بعينه نور الشمس، يظهر قبل طلوعها بمدة يسيرة كطليعة الجيش، ويخبر بالطلوع. فكأن الصبح الصادق ولد الشمس، ووجوده من الشمس، وإن كان ظهوره يرى قبلها. وهذا ممكن في الروحانيات؛ أي إن الولادة الجسمانية وإن كان ظهور الابن فيها بعد الأب، فلا نزاع في القبل والبعد في الروحانيات.

فإن جميع الأنبياء مستفيدون من فيض حضرة خاتم الأنبياء، فهم بمنزلة الفروع الروحانية، مع أن هذه الفروع متقدمة، وظهور الأصل بعد غيره. ولكن هذا لا يغير شيئاً من فرعيتها. فالمسيح عليه السلام هو أقرب ذرية في الذرية الروحانية لنبي الحضور وأشبهها به، ظهر قبل الأب ليبشر بالأب، ووجوده ثمرة لوجود الحضور.

وكما جيء بحضرة المسيح عليه السلام في الابتداء بصفة الصبح الصادق أو المبشر، وهي الساعات الأولى من النهار، كذلك بعد غروب شمس النبوة، حين جاءت ليلة طويلة من القرون، حفظ فيها الخلفاء والمجددون والمجتهدون ضوء الدين كالنجوم، أبقي حضرة المسيح عليه السلام أيضاً في آخرها لأجل التجديد الأخير للدين وإكمال نشر الدين إلى غايته. فإن القمر في آخر الشهر، في الليالي الأخيرة، يطلع في آخر الوقت، وهذا الضوء أيضاً هو ضوء الشمس بواسطة. ولأجل الابتداء والانتهاء معاً أبقي حضرة المسيح، وفي الصورتين تثبت نورانيته وإفاضته للنور من آثار شمس النبوة.

فإن كان خاتم النبيين لم يستعمل في أمته آلاف الأنبياء، فقد استعمل نبياً واحداً جامعاً لجميع القوى الإسرائيلية لكونه خاتم الإسرائيلية، ومتقدماً عليهم في خصوصيات روحانيته حتى كان لقبه روح الله وكلمة الله. فكأن تجديد الدين المحمدي أجري بدائرة الولاية ودائرة النبوة معاً، حتى يتضح أن الولاية أو النبوة، النورانية في الجميع إنما جاءت من الشمس وحدها. ولذلك فهو مستحق لأن يأخذ خدمته من الدائرتين كلتيهما.

وعلى كل حال، لما كان المسيح عليه السلام باعتبار أوله وآخره متأثراً بآثار شمس النبوة، وأقرب إلى صورته وسيرته وأشبه به، فكأن النور المسيحي في الحقيقة هو النور المحمدي نفسه. فبسبب هذه المناسبات الكاملة، كان هو وحده الذي يمكن أن يجعل في حق شمس النبوة صبحاً صادقاً ومبشراً ومنيراً؛ لأن الصبح الصادق في الحقيقة لمعة من نور الشمس نفسها، ولا تأتي إضاءته من مكان منفصل عن الشمس.

واختير هو نفسه أيضاً لحفظ الإسلام في دوره الأخير، كما جعل صبحاً صادقاً ليوم النبوة هذا؛ لأنه أكبر مبشر بالشمس. وجعل هو نفسه شفقاً في حق هذه الشمس؛ لأن الشفق بعد غروب الشمس هو أكبر دليل من آثار نور الشمس الباقية على أن عمل الشمس قد مضى. ولذلك، حيث شهد في شأن حضرة المسيح بأنه مبشر نبوي، وهو عمل الصبح الصادق، قيل:

«ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.»

ثم أخذ منه عمل التجديد الأخير أيضاً؛ لأن الشفق بعد الغروب من آثار نور الشمس الباقية، وهو دليل على ضوئها. ولذلك سمي في الحديث النبوي الضوء الأخير لتجديد الإسلام. قال النبي:

«كيف تهلك أمة أنا أولها، والمهدي وسطها، والمسيح آخرها.»
مشكاة المصابيح

الظلمة العالمية وقت الصبح الصادق

وعلى كل حال، فقد انشق الفجر وظهر الصبح الصادق. صار حضرة المسيح صبحاً صادقاً، وأخبر بطلوع شمس النبوة. وقبل طلوع الشمس ظهر نور خفيف خافت، وهو في الحقيقة نور الشمس نفسها. ولذلك انتهت الليلة المظلمة. غير أن الجميع يعلمون أنه عند طلوع الصبح الصادق، كما تظهر صورة بقاء القمر مضيئاً، يظهر أيضاً هذا المشهد أمام العيون: أن عامة الناس في ذلك الوقت مستغرقون في النوم. إنه الوقت الأقصى لخلاصة النوم، وكل كبير وصغير غارق في النوم وسكران بالنوم العميق. فكأن النوم في ذلك الوقت له الغلبة والتسلط التام على العقول.

بل إن كثيرين لا يستيقظون حتى بعد طلوع الشمس، وإنما إذا ارتفعت الشمس كثيراً وبدأت شدة ضوئها تقع عليهم، حينئذ تنفتح أعينهم. فمن جهة، بمجرد حصول الصبح الصادق تبدأ النجوم بالخفوت، وتبدو أنوارها كأنها تغيب، لأن ضوء الصباح يبدأ بالاشتداد. ومن جهة أخرى، يكون النائمون عموماً مستغرقين في نومهم ومندمجين فيه. ولذلك يكون الخارج مستمراً في الإضاءة، والداخل مستمراً في الظلمة الغليظة، إلى أن تطلع الشمس. أي إن الذي يستفيد من هذا الصبح هو اليقظان، وهؤلاء ليسوا عامة الناس، إلا أفراداً مخصوصين ناموا وهم يحملون عزماً على الاستيقاظ فوراً وقت الصبح الصادق.

ولذلك فإن هذا الجزء المتوسط، الذي ليس ليلاً ولا نهاراً، يستمر حساً في التقدم نحو النورانية، بينما يستمر، بحسب أحوال عامة الناس الداخلية، نحو ... الظلمة والظلام. ففي هذا الزمن، زمن الصبح الصادق، الذي ينبغي أن يسمى زمن الفترة، ظهرت من جهة آثار الصبح الصادق وبدأ الضوء يزداد، فبدأ اتجاه قلوب الخاصة إلى التوحيد وأنوار الديانة. ولكن هذا الزمن نفسه ثبت لعامة الخلائق أنه زمن غفلة أشد وسكر بالنوم. والسحب التي كانت محيطة بدنيا ذلك الوقت من الضلالة والغواية ازدادت غلظاً. فمكة، التي كانت سرة العالم، كان داخلها وخارجها، ومن حولها

في الجهات الأربع، نوم الظلمات بأنواعها مسلطاً على قلوب العالم كله، وكان الجميع سكارى في نوم القسوة والغفلة.

كان في جانب من جزيرة العرب الخليج الفارسي، وعلى سواحله ممالك إيران وفارس، حيث كانت سيادة الإيرانيين قائمة، وكانت الأكاسرة الفارسية مرفوعة الرأس. وهناك لم يكن الشرك والكفر بطريق التأويل والتوجيه، بل كان يعلن جهاراً نهاراً عن ألوهية إلهين. فعندهم لم يكن إله واحد كافياً لنظام العوالم، بل كان إلهان متساويان، أهرمن ويزدان، يتوليان الإلهية.

وفي الجانب الثاني من العرب كان البحر الرومي، وعلى سواحله كانت أعلام الدول الغربية ترفرف، وكان نقد ملك قيصر جارياً. وهناك أعلنت النصرانية باسم الدين عبادة ثلاثة آلهة. وكانوا في أمر العبودية أرقى من فارس، إذ لم يروا الاكتفاء بإلهين كافياً، فعدوا إضافة ثالث أمراً ضرورياً: إله واحد، وابن وحيد واحد، وزوجته، أو عند بعضهم الروح القدس. وهناك كانت تصرفات الإلهية مفوضة إلى هؤلاء الثلاثة.

وفي الجانب الثالث كان بحر الهند، وعلى سواحله شبه القارة الهندية وسائر البلاد الشرقية. وكانت هذه الأرض في باب العبادة أرقى من الجهتين كلتيهما، فلم تكتف بثلاثة آلهة، بل أوصلت عددها إلى الكرورات. وصارت هذه البلاد مخزناً لعبادة الأوثان. ولم يكن مفهوم الوثن يشمل الصور وحدها، بل كانت أحجار الجبال، ومياه الأنهار، وأغصان الأشجار، ورؤوس الحيوانات، وأعضاء الإنسان، وآلات الصناعة والحرفة، بل حتى أشياء الطعام والشراب، كلها معبودات مستحقة للعبادة. وكان عدد المعبودات أضعافاً كثيرة أكثر من عدد العابدين. وهذه الضلالة العامة لذلك العصر يعترف بها زعماء الهندوس أنفسهم. فقد كتب بندت ديانند سرسوتي أن علم الفيدات كان قد ضاع منذ خمسة آلاف سنة، وأنه أحياه. ومن الواضح أن القرون القليلة السابقة لبعثة الحضور، التي تسمى زمن الجاهلية، داخلة في هذه الخمسة آلاف سنة. ولذلك، قبل بعثته، كانت الهند حتى في نظر زعمائها الهنود أنفسهم في دور الضلالة العامة.

وكان الجانب الرابع من العرب مغسولاً بموج البحر ومتصلًا بالبر، وفيه كانت عمران مصر والسودان وإفريقيا. وقد تقدموا في هذا الباب أكثر من الجهات الثلاث السابقة. فلم تكن هناك ثنوية ولا وثنية، ولا تثليث ولا تكثير، ولا نزاع حول عدة آلهة ولا حول أصل الإلهية. بل انصرفوا عن هذا الطريق من أصله، وكانت عندهم تهب عواصف مسمومة من الفسق والفجور، وسوء العمل والسواد، وشهوات النفس. فكأن كل شخص صار إلهاً، وكل شخص صار حراً في شهواته ورغباته. وقد عبر القرآن الحكيم عن ذلك بقوله: «سأريكم دار الفاسقين.»

وعلى كل حال، كانت كثرة الظلمات هذه في البحر والبر حول العرب من الجهات الأربع تعرض مشهد ليلة مظلمة، وموج مخيف، وبحر لا ساحل له. هذا كان إلى حد الذات الإلهية. وأما الصفات الإلهية، فكانت دنيا ذلك الوقت قد فعلت بها الأمر نفسه. فبعضهم اعتقد الصفات الخاصة بالخالق في المخلوق، فرفع المخلوق إلى درجة الخالق، كما فعل النصارى حين نادوا حضرة المسيح إلهاً وابن الله، وسموه الإله المتجسد. وبعضهم اعتقد في الخالق صفات النقص والعيب التي للمخلوق،

كمرضه، وانهزامه في المصارعة على يد حضرة يعقوب، ونحو ذلك، وهؤلاء هم اليهود. وبعضهم جعل الخالق معطلاً عن الصفات بالكلية، كالفلاسفة. وبعضهم جعل صفات الخالق والمخلوق متشابهة تمام التشابه، كالمجسمة والمشبهة. وبعضهم، باعتقاد الأوتار، اعتقد حلول الله في المخلوق، فكأن المخلوق وعاء نزل فيه، معاذ الله، الخالق. وبعضهم عكس ذلك، فجعل الخالق وعاء، واعتقد أن المخلوق مندمج فيه كما تندمج الحشرات في جوف التين.

وكان يصنع مثل ذلك بالنبوة أيضاً. فبعضهم اعتقد النبوة فوق البشرية إلى حد لا يمكن معه أن يكون بشر يأكل ويشرب رسولاً: «ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟» وطبقة أخرى عدت النبوة شيئاً خفيفاً وعامياً إلى درجة أنها يمكن أن تعطى لكل فرد من البشر: «بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة.» وبعضهم سمى الأنبياء آلهة مجسدة، فبالغ في تنزيههم. وبعضهم نسب إلى الأنبياء عيوباً خسيسة إلى درجة صار معها عدهم بشراً صالحين أمراً صعباً.

وبالجملة، ففي خط الألوهية لم يبق نقص ولا عيب من التشبيه والتجسيم والتعطيل والتجليس ونحو ذلك إلا أفسدت به المخلوقات تنزيه الله. وفي خط النبوة لم يبق إفراط ولا تفريط إلا اعتقد في الأنبياء. فهذه كلها هي الظلمات المعنوية التي صارت «بعضها فوق بعض»، وجعلت الدنيا كلها مظلمة. ومن أجل ذلك صارت دنيا ذلك الوقت كلها في نظر الله ... مبغوضة.

إن الله نظر إلى قلوب بني آدم، فمقت عربهم وعجمهم»، إلى آخره».

ولكن، على كل حال، لم تكن هذه البلاد كلها قائمة على نوع واحد من الضلالة. فإن كان في الهند شرك، لم يكن فيها تثليث. وإن كان في الروم تثليث، لم يكن فيها تكثير بحيث تكون المعبودات كرورات. وإن كان في إيران سلطان الثنوية، لم تكن فيها أوتارية. وإن كانت في الهند وثنية، لم يكن فيها نوع آخر من الضلالة. وإن كان في مصر دهرية وعبادة للعيش، فذلك وحده، ولم تكن هناك رسوم ذات صبغة دينية. ولكن أرض الله المقدسة، مكة المكرمة، كانت في ذلك الوقت مركزاً لكل أنواع الضلالات. فقد وجدت فيها الدهرية والشرك والفسق والفجور وإنكار النبوة وإنكار صفات النبوة وسائر أنواع الضلالات.

ولذلك، فكما كان الصبح الصادق نوراً عاماً، كانت في عالم القلوب ظلمة فوق ظلمة. وكان عمل ليل الضلالة المظلم الجاري في الدنيا قد بلغ نهايته. فحان وقت طلوع الشمس، وظهر الصبح الصادق لشمس النبوة هذه في صورة المسيح عليه السلام.

طلوع الشفق

ولكن لما أتم الصبح الصادق مسافته الزمنية، وتم هذا الصبح الصادق الطويل لذلك اليوم الطويل ذي الآلاف من السنين في مدة زادت على خمسمئة سنة، ظهر الشفق في آخر الصبح الصادق وقبل طلوع الشمس. وتصير السماء دفعة واحدة حمراء بنور مائل إلى الحمرة حتى كأن أطرافها

تتوقد بالنار. وطلوع هذا الشفق من العلامات القريبة جداً لطلوع الشمس، وبه تنتهي تلك الظلمة أيضاً التي تكون منتشرة على الأرض وقت الصبح الصادق.

وهذا الضوء أيضاً هو ضوء الشمس نفسها، ولا يؤتى به من الخارج، كما كان الصبح الصادق أيضاً ضوءها. والفرق إنما هو القرب والبعد؛ فإن نور الشفق يسير بلا واسطة مع الشمس نفسها.

وكذلك تماماً، بعد الصبح الصادق لشمس النبوة وقبل البعثة، ظهر شفق هذه الشمس؛ أي بدأت الآثار القريبة لشمس النبوة تظهر. وهذه هي الإرهاصات التي ظهرت أمام الدنيا قبل الولادة السعيدة: جف بحر ساوة، وسقطت أربعة عشر شرفة من قصر كسرى، وخمدت نار معبد إيران التي كانت مضيئة باستمرار منذ قرون، ونحو ذلك. فكأن هذا كان ظهور شفق شمس النبوة، الذي أضاء الآفاق، وعلمت الدنيا أن النجم الطالع ليس نجماً صغيراً أو عادياً، بل جرم عظيم جداً سيزين المطلع، ولم يكن قد ظهر إلى ذلك الوقت.

فبطلوع الصبح الصادق انتهى الليل، وبطلوع الشفق انتهت تلك الظلمة المختلطة وبدأ الضوء الخالص للنهار. فأضاءت أطراف السماء وجوانب الأرض كلها بأول لمعان الشمس وبريقها. وبدأت استعدادات التوحيد والديانة تنهض في القلوب، وبدأ يظهر في الأطراف والنواحي أناس نفروا من عبادة الأوثان وصاروا ذاكرين لاسم التوحيد. وقد حان الوقت أن تطلع شمس النبوة، فتنهض بهذه الاستعدادات المضيئة كلها، وتجعل أراضي القلوب بقاعاً من نور. فكأن هذه النورانيات كانت آخر آثار الطلوع وطالبة للطلوع.

والخلاصة أن العطاء الإلهي هاج عند بلوغ الظلمات غايتها، وابتداء النور، ونداءات النقص هذه. فلما بلغت هذه الطلبات المتتابعة غايتها، منح أسباب حل تكميل النور. أولاً انشق الفجر، وظهرت آثار الصبح الصادق، وهي بشارة طلوع الشمس. وأعلن الصبح الصادق، أي حضرة المسيح، أن سلطان النور الذي كانت ظلمة الأرض ونور النجوم تطلبه، سيأتي قريباً. ثم طلع الشفق، وظهرت الإرهاصات، واقترب الطلوع.

ولم يكن منبع النور هذا، أي الشمس، قد ظهر بعد؛ لم يكن إلا أن انشق الفجر وارتفع الشفق، حتى بدأت ظلمة الليل بالفرار. وخبت النجوم دفعة واحدة وبدأت تخفي وجوهها. وإن لم تكن محسوسة، فإن ذواتها النورانية الصغيرة غرقت في نهر النور العظيم، فلم تبق على مسرح الظهور. حتى إنه بعد مدة يسيرة من هذه البشارات ظهر على وجه السماء نور كامل متوقد، لم تبق بعده حاجة إلى أي نور لليل الرباني. ولذلك غطت جميع الأنوار وجوهها وانسحبت من الأمام. أي طلعت الشمس المنيرة للعالم، وأنارت بأشعتها وامتداداتها الطويلة الأجزاء الظاهرة والخفية من العالم.

وانتشرت في كل جهة أغطية النور لهذا المنبع نفسه، منبع نور الشمس، على الآفاق انتشاراً لم يبق معه أثر للظلمة في أي مكان ولو فتش عنه. فالعمل الذي لم تكن تقدر عليه ملايين ومليارات وترليونات النجوم مجتمعة، أنجزته الشمس وحدها؛ بل لم تنجزه ذات الشمس، وإنما الضوء

المنتشر منها. وبحركة تدريجية اكتمل نور الدنيا بمجرد خروج الشمس، وكان أمره قد أعد شيئاً فشيئاً منذ أول الليل.

المطلع المنير ودرجات الضوء

ولكن كما أن الشمس حين تطلع تلقي أشعتها أولاً على نقطة الطلوع، ثم تنير عين موضع الطلوع، ثم ترتفع قليلاً فتنير المطلع كله، ثم كلما ارتفعت ظهر انتشار شدة الضوء حول المطلع في آفاق العالم، إذا كان ذلك المطلع في جزء مركزي يمكن للضوء أن ينتشر منه في الجهات الأربع، حتى يصل الضوء في النهاية إلى كل زاوية من زوايا العالم، وتنير الغرف المظلمة أيضاً؛

نقطة الطلوع

كذلك فإن شمس النبوة، بمجرد طلوعها، أنارت أولاً نقطة طلوعها، وهي أهل بيته. والبيت يتكون من الحرم الداخلي، ولذلك أنيرت أولاً حرمه النبوي، أم المؤمنين حضرة خديجة رضي الله عنها، بنور الإيمان. ومعنى ذلك أن البيت كله أنير، وظهر معنى: «قوا أنفسكم وأهليكم ناراً».

موضع الطلوع

ثم ارتفعت شمس النبوة أكثر، فسقطت الأشعة على موضع الطلوع، فاستنار. وكان ذلك قبيلته التي ظهر فيها. وكان هذا ظهور معنى: «وأنذر عشيرتك الأقربين.» ثم ارتفعت شمس النبوة أكثر حتى طلعت كاملة، فسقط الضوء على محيط المطلع. وكان ذلك مدينة مكة المقدسة ومحيطها. وبه ظهر معنى: «لتنذر أم القرى ومن حولها».

ولما لم يكن نور هذه الشمس المنيرة للعالم ليحصر في البيت والمدينة والقبيلة، بل كان لينتشر في كل زاوية من زوايا العوالم؛

مركز دائرة الطلوع

فكما جعل مطلع الشمس المادية أعلى جزء من الأفق الشرقي، حتى ينتشر منها نورها في العالم كله، كذلك جعل مركز طلوع شمس النبوة الكعبة المقدسة، وهي سرة العالم ووسط الأرض، وكانت نسبتها إلى الدنيا من الجهات الأربع كلها نسبة متساوية، كما تكون نسبة المركز إلى دائرته. فإذا اصطدمت أشعتها من جهة بسواحل البحر الرومي، انتشر نورها في أودية الغرب. وإذا اصطدمت من جهة أخرى بأمواج بحر الهند، استنارت البلاد الشرقية، الهند والسند، وإيران وخراسان، والصين واليابان. وإذا ألقت من جهة ظلها النوراني على سواحل الخليج الفارسي، استنارت أقاليم الشمال. ومن جهة أخرى في البر تلألأت أقاليم قارة مصر والسودان.

ولذلك رفعت هذه الشمس من أفق مكة. فلما نادى من سرة العالم هذه، انتشر صوته الإيماني في مواضع كثيرة، وعرّف سلاطين العالم والأمم والملل بصوت الحق. وبهذا ظهر معنى: «ليكون للعالمين نذيراً.»

فكما أن درجات الضوء في عروج الشمس المادية وارتفاعها متفاوتة، وتظهر من طلوع الشمس وعروجها التدريجيين، كذلك كانت درجات نشر النور العلمي في شمس النبوة متفاوتة، وقد ظهرت للعيان بصور الظهور التدريجي لهذه الشمس الروحانية. وكان طلوع الشمس قد اقترب تماماً.

الفرق الجزئي والكلي بين نور شمس النبوة ونجوم الهداية

ثم كما أن ضوء النجوم، بسبب كونه جزئياً، ليس ذا طابع عام وكلي بحيث يمتد وينتشر، ولا هو شديد إلى درجة أن ينتشر ظله النوراني، كضوء الشمس وضوء القمر، فيظهر جميع الزوايا المستترة والخفية؛ فكذلك كان نور النبوات السابقة، أي الشرائع السابقة، ذا طابع جزئي ومحلي. فلم يكن فيها امتداد يجمع جميع أمم الدنيا، مع نفسياتها المتفرقة، على منصة واحدة. ولم تكن لتغطي كل زاوية من زوايا الحياة، مهما خفيت. ولا تبدو أحكامها مشتملة على علل وأصول جامعة يظهر منها تشعب الأحكام وتفرعها فرعاً بعد فرع.

فإن شأن الامتداد والإحاطة لا يكون إلا في الأصول والعلل، لا في الجزئيات المحضة. فإذا كان أصل كلي حاضراً، أمكن أن تخرج منه آلاف الجزئيات وتنتشر. وإذا عرفت قاعدة كلية، أمكن أن يحكم بها في آلاف الأحكام، فيتفرع الدين فرعاً بعد فرع ويصير في صورة قانون شامل. وإذا كانت المسألة جزئية، لكنها مشتملة على علة هي منشأ ذلك الحكم الجزئي، صارت هذه العلة الأصولية في ذلك الجزئي وسيلة لخروج آلاف الجزئيات منه. أو إذا لم تظهر علة كلية في الحكم الجزئي، لكن الحكم نفسه كان مشتملاً على أوصاف جامعة ومشتركة، فإن عموم هذه الأوصاف يصير بمنزلة العلة الكلية، فحيثما وجدت نقلت الحكم معها. وهكذا تظهر أجزاء كثيرة مجملة وخفية من الدين، فتجعل الدين مفصلاً وشاملاً.

وعلى كل حال، فإن الشمول في الأديان لا يمكن بغير الأصولية والكلية والجامعية. أما الجزئيات المحضة، ولا سيما جزئيات العلامات الرسمية، فلا تولد في الدين سعة، بل تولد فيه المحدودية والضيق والرجعية.

ومن الظاهر أن الشرائع السابقة، بالهيئة التي هي أمامنا اليوم، لما كان الغالب فيها الجزئيات، وكانت الأحكام ذات لون رسوم شخصية لا أصولية، يتبعها الناس بمجرد نسبتها إلى الشخصيات، لا بحجة أصولية، فلا يبقى هناك مجال للسؤال عن التشعب أو التفرع أو انتشار الدين حتى يصير شاملاً؛ لأن الجزئي المحض لا يولد جزئياً آخر ما لم يكن مبنياً على علة كلية أو وصف عام.

والنتيجة الواضحة لذلك أن هذا النوع من الشرائع الجزئية لا سبيل فيه إلى استخراج أحكام جديدة تفي بمقتضيات الزمان، حتى ينمو الدين ويتفرع ويمضي من قوم إلى قوم، ما دامت لا توجد في

أحكامها ومسائلها علل كلية ولا حقائق أساسية تولد فيها الامتداد. ولذلك لا تستطيع هذه الشرائع أن تجري في كل عصر، ولا أن تفي بالمقتضيات الوقتية لكل عصر. ولهذا بقيت هذه الشرائع دائماً أمام كل شريعة لاحقة في مقام النسخ والتعديل، وكانت تنسخ.

نعم، إن أمكن لشريعة أن تسلم من هذا النسخ والتعديل، فهي فقط تلك الشريعة القائمة على الأصول الكلية الخالصة وعلى أسس دستور جامع للحياة. لا يراعى فيها بعض الأوقات أو مزاج قوم موجودين فحسب، بل تجعل الفطرة الإنسانية أصلاً، وهي القدر المشترك بين جميع الناس وجميع الأمم، حتى تنتفع كل أمة من أمم الدنيا، وكل قرن وكل عصر من كل أمة، بأصولها المشتركة العامة، وتكون أسس الأحكام الجديدة لجميع الحوادث الجديدة موضوعة فيها من قبل. وبعبارة أخرى، يكون نورها عاماً كنور الشمس، لا خاصاً محدوداً معيناً كنور النجوم.

وهذا الشأن موجود في الشريعة الأخيرة للإسلام بسبب غلبة الأصول والكلية فيها: فهي شريعة قابلة للنمو، حاملة في داخلها جميع أسس الأحكام الفرعية مع الأحكام الأصلية؛ لأن الأحكام الفرعية تولد من العلل الأصولية والحقائق الجامعة. ولذلك ففي كل حكم جزئي منها علل كلية خفية. ولكل حكم مناط، أي أساس كلي يدور عليه الحكم.

ثم إن الكليات والأصول فيها ذات ألوان متعددة: فالأصول الأساسية غير الأصول التفريعية. وتعبيراتها وأساليب بيانها كذلك جامعة وذات لون الفطرة الكلية، حتى تنشأ منها أحكام أيضاً. ومعانيها كذلك جامعة وممتلئة بلون العموم. وكل حكم يشتمل على جميع أحوال نوعه وجميع جوانبه وأطرافه، وفي العبارة والحكم صلاحية لإظهار أي جانب يكون أرجح بحسب مقتضى الوقت.

ولذلك تحمل آية واحدة ورواية واحدة من المرونة في منحدرات الحكم ومرتفعاته، وعلوه وانخفاضه، وأحوال الطلب المحيطة به، ما يجعلها محيطة في كل عصر بكل منعطف من منعطفات الحياة وبكل مقتضى من مقتضيات الزمان، وقادرة على الهداية إليه. وهذه الأصول تبني الشخصيات، وتظهر منها أسوات عملية بألوان مختلفة، لا تكون خارجة عن نور الأصل. فهناك أسوات أساسها الأشخاص، وهنا أسوات أساسها الأصول، وتؤيدها الشخصيات وتقويها.

ولذلك جعلت حجج هذا الدين أربعاً: اثنتان تشريعيتان تتكون بهما الشريعة، وهما كتاب الله وسنة رسول الله؛ واثنتان تفريعيتان تنفتح بهما الشريعة ويزداد فيها البسط والانبساط، وهما الإجماع والقياس. ومن الظاهر أن القياس والانبساط لا يعملان عملهما ما لم تكن في أحكام الدين ومسائله علل كلية، تولد الفروع من أصوليتها، ولا ينتشر الدين مع البسط ما لم تكن فيه نفسه صلاحيات الانتشار.

ولكن لما كانت في دين شمس النبوة، المنتشر كضوء الشمس، استعدادات الانتشار، وكانت فيه مع الجزئيات أصول كلية موجودة في كل باب على حدة، استخرجت القوى الاجتهادية الجزئيات من الأصول الكلية للدين، وقاست الجزئيات على الجزئيات لاشتراكها في علة جامعة، فنقلت حكم

جزئي إلى جزئي آخر. ثم بتتبع جزئيات كثيرة في باب واحد أنتجت كليات أصولية، فحكم بها في آلاف الجزئيات الجديدة. وبذلك انفتح باب التفصيل في هذا الدين، وثبت أن هذا الدين جامع للأحكام وأساليب التربية الموافقة لمزاج كل أمة من أمم الدنيا.

ولو لم تكن في الدين هذه الصلاحية للأصولية والشمول، ولتفريع الفروع من أصوله، أي لو كان هذا الدين أيضاً ذا لون جزئي كسائر الأديان، فيه رسوم محضة لا حقائق عامة، لما احتيج إلى قوى الاجتهاد والاستنباط، كما لم توجد في الأديان السابقة، فبقيت محدودة حتى انتهت. ولا كان في هذا الدين تصور لتلك التفصيلات المستخرجة من أصول الدين الكلية، التي يصير بها الدين فرعاً بعد فرع دواءً لألم كل أمة في الدنيا، وتظهر فيه صفة البقاء والدوام إلى قيام الساعة.

ولكن لما كانت صورة جامع الدين وشموله كما عرض الآن، كان مقتضاها الطبيعي أن تظهر، وقد ظهرت، في قلب هذه الأمة وعقلها، بتربية هذا الدين الجامع، قوى الاجتهاد وطاقات الاستنباط. فاستخرجت من هذه الأصول والعلل الكلية فروعاً بحسب مقتضى الوقت، ووضعت أصول الاستخراج أيضاً من هذه الشؤون الجامعة نفسها. ومن ذلك نشأت فقهات بألوان مختلفة، وظهرت مذاهب الاجتهاد. وبعبارة أخرى، خرجت من الشرائع الأصلية شرائع وضعية، رأت بها طبقات الدنيا المختلفة الألوان طرق العمل بالدين بحسب أذواقها. وهكذا سار هذا الدين ونما عالمياً، بألوانه المختلفة، من قوم إلى قوم، ومن بلد إلى بلد، ومن زمان إلى زمان.

فكأن أمزجة أمم الدنيا مختلفة، وعواطفها منفصلة، واتجاهاتها وميولها متباينة. فقوم لين الطبع، وقوم شديد الطبع؛ قوم يحب السعة، وقوم يحب الضيق؛ قوم تقدمي، وقوم رجعي؛ قوم يحب الفردية، وقوم يحب الجماعية؛ قوم ذو مزاج دياني، وقوم سياسي النزعة. وكما أن الحق تعالى، لإشباع هذه العواطف الطبيعية والفطرية المختلفة لأمم العالم، ملأ أحكام الدين وأصوله بجميع الألوان المختلفة من اللين والشدة، والفردية والجماعية، والخلوة والجلوة، والسعة والمحدودية، والديانة والسياسة، والدروشة والملوكية، والعقل والنقل، والحكم والحكمة، والزهد والتوسع، حتى لا يبقى مطلب من مطالب ذوق أي أمة من أمم الدنيا لا يستطيع هذا الدين العالمي أن يفي به؛ كذلك أوجدت قدرته الفياضة في الأمة مجتهدين مختلفي المزاج والذوق والألوان.

فكانت أذواقهم مختلفة، وألوان أمزجتهم متباينة، ومع القدر المشترك من الديانة وطلب الحق كانت ميولهم مختلفة. فبعضهم يغلب عليه الاحتياط، لا يريد أن يتحرك قيد أنملة عن عبارة الدين وتعبيره. وبعضهم يغلب عليه التوسع والشمول، يريد أن يدخل من رواية الدين إلى درايته ليظهر منه لونه العالمي. وبعضهم فيه حماسة لجعل إصلاح الفرد أصلاً، وبعضهم فيه دافع لإقامة النظام الجماعي أيضاً. وبعضهم يغلب عليه حماس تنقيح نفس الدين وإحكامه، وبعضهم تستقر عنده مع ذلك أهمية نظام الدين وإحكام نظام الملة. وبعضهم تغلب عنده دواعي حفظ النظام الطبقي بالمعيار الديني، وبعضهم تعمل فيه عواطف النظام الملكي والتنظيم الشامل. وبعضهم يريد أن يبقى محدوداً بالمسائل، وبعضهم لا يريد أن يغفل المصالح المرسلة. وبعضهم يسير بلون القرب والاقترابات، وبعضهم يريد أن يبقي الرفق والإرفاقات معه أيضاً.

وبالجملة، فكلما جمع رب العرش من ألوان في الدين، أوجد مثلها من أذواق في أهل الدين، حتى يفهم حكيم كل ذوق ومجتهده مقصد الدين بحسب مدرسته الفكرية. فإذا مالت إليه طبقات خاصة من الأمة بسبب هذا اللون الموافق، ربى أتباعه بذلك اللون نفسه، حتى تبقى وسائل تعليم وتربية وإصلاح وترقية العواطف الفطرية لكل طبقة مهيأة من الدين نفسه بواسطة أهل الدين.

وبالجملة، فأي أمة من أمم العالم غلبت عليها ميول طبيعية أو عقلية أو ذوقية معينة، تمسكت بذيل المجتهد والإمام الموافق لذلك الذوق، ووفرت لنفسها بذلك أسباب النجاة الدنيوية والأخروية. ولا يبقى لطبقة من طبقات الدنيا مجال أن تقول مثلاً: إنني أرى فطرياً هذا الجانب معقولاً، لكنه غير موجود في أصول الدين وفروعه، أو هو موجود لكنه خفي ملفوف لم يستطع مفكر أن يفتحه، ولذلك لست مستعدة لقبول هذا الدين لأنه ناقص. بل يجد كل فرد وكل طبقة دواءه وغذاءه الروحاني في هذا الدين الجامع بسهولة.

ومن الظاهر أن هذا اللون من الجامعية لا يمكن أن يكون إلا في شريعة شمس النبوة، لا في الشرائع المحدودة لنجوم الهداية العامة. ووجه ذلك واضح من مثال الشمس نفسه: فإن الشمس بلا شك واحدة، والضوء الخارج منها واحد، ولونه واحد، يقع على كل باب وجدار. ولكن لما كان ضوءاً منتشراً يصل إلى كل باب وجدار ونافذة وثقب، فإنه يظهر باللون الذي يظهر به في المرآة التي يعرض من خلالها. وهذا في الحقيقة لون ظرف المرآة، لا لون ضوء الشمس. ومع ذلك فهو يسمى ضوء الشمس، أياً كان لونه، ويعد نور الشمس، بأي لون ظهر. غير أنه يظهر من مرايا مختلفة الألوان لأن عيون الطبقة الآخذة للضوء تحتاج إلى ذلك اللون نفسه.

فطبقة ضعيف بصرها، والنور المباشر للشمس يبهرها، فلا بد لها من أن ترى الضوء من مرآة خضراء اللون حتى تتحمل ذلك الضوء. وقس على ذلك سائر الألوان. ففي هذه الصورة لا تحتاج إلى الفرار من الضوء بحجة الانبهار، بل تحتاج إلى البحث عن مرآة خضراء وتأخذ الضوء من وراء حجابها. فالضوء واحد، ولكن بسبب ألوان المرايا يحدث فيه فرق الشدة والخفة، والتحمل وعدم التحمل.

ومع ذلك لا يمكن إنكار أن صلاحية إلقاء الضوء ونشره بألوان مختلفة من وراء حجب المرايا إنما هي للشمس لا للنجوم. فإن النجوم لا تملك ضوءاً منتشراً يظهر بألوان مختلفة بواسطة المرايا. اعرض على النجوم ليلاً من المرايا ما شئت: إما ألا يظهر ضوؤها في المرآة أصلاً، أو إن ظهر فلا يكون منتشراً يمكن إيصاله بواسطة المرايا إلى البيوت والغرف. ومعنى ذلك أن النجوم نفسها قد تظهر في المرآة، ولكن لا يكون لها شعاع منتشر؛ فكما لم ينتشر بغير المرآة، لا ينتشر بواسطة المرآة أيضاً، إذ ليس هناك شعاع منتشر ولا ضوء قمري يمكن نشره بلا واسطة أو بواسطة.

ومن هذا التمثيل يتضح أن في الليالي السابقة لشمس النبوة، حين كانت نجوم الهداية ظاهرة في مواضعها، كان ضوءها، أي هداياتها الشرعية، جزئياً مرتبطاً بخصوصياتها الشخصية. ولم يكن مبنياً على أصول شاملة وعلل جامعة وكليات يعبر عنها بالضوء المنتشر، حتى يصل إلى كل

زاوية من زوايا العالم ويبقى يصل بعد ذلك. ولذلك لم تكن في تلك الأمم صفة التفقه والاجتهاد، ولا وجود المجتهدين، حتى تمضي الشريعة في ضوئهم فرعاً بعد فرع وتحصل على عمر دائم. وبعبارة أخرى، كانت في الأمم السابقة شرائع أصلية، ولم تكن فيها شرائع وضعية. كان فيها أحكام، ولكن لم يكن فيها عقل شامل ولا أسرار. فكان فيها ذوق واحد، ولم يكن فيها اجتماع أمزجة أمم الدنيا المختلفة وأذواق الأمم المتعددة الألوان. ولذلك كانت طبقة واحدة مناسبة المزاج تقبل تلك الشريعة وتنال بها النجاة، وهي في الحقيقة كانت تنزل من السماء مخصوصة لها. أما الطبقات الأخرى فكانت تحتاج إلى شريعة أخرى ونبوة أخرى.

فكان الدين قومياً ووطنياً، لا عالمياً ولا أبدياً؛ لأنه كان دين نجوم الهداية التي جاءت بنور مخصوص محدود، لا دين شمس الهداية التي يكون نورها عالمياً:

«كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة.»

أي إن النبي قبل ذلك كان يبعث إلى قومه خاصة، لأنهم كانوا نجوم هداية، وأنا بعثت إلى جميع الناس في الدنيا بلا تفريق قوم ووطن، لأنني شمس النبوة.

ولذلك إذا كانت شريعة نبي سابق غير محتملة للأقوام الأخرى، فإنها لم تكن مرسلة إليهم أصلاً، ولم تكن الأمم الأخرى مكلفة بها. وفي هذه الصورة لم تكن هناك حاجة إلى جعل تلك الشرائع متعددة الألوان للأمم والطبقات المختلفة الأمزجة، ولا إلى إحضار مرايا المجتهدين المختلفي الأذواق لتخفيف أنوارها أو تشديدها، وجعلها مقبولة لكل أمة بلا موجب.

أما نور شمس النبوة، أي الشريعة الإسلامية، فلما كان كضوء الشمس شاملاً عاماً أصولياً، كان رسالة لكل طبقة وكل أمة من أمم الدنيا. ولما كانت قوى التحمل وأمزجة الطبقات مختلفة، احتاج نورها المنتشر الشامل إلى مرايا مختلفة الألوان، أي إلى أئمة مجتهدين ومجددين وعلماء مفكرين متنوعي الألوان. يمتصون علم هذه الشريعة الأصولي في قلوبهم المختلفة الأذواق، ثم يظهرونه بقوة اجتهادهم الخاصة ومدرستهم الفكرية الخاصة، حتى تختار كل طبقة من طبقات الدنيا إماماً مناسباً لذهنيتها وذوقها ومزاجها، وتفهم الدين في دائرة مدرسته الفكرية، وتتخذه وسيلة للنجاة. ولا يبقى لأحد مجال أن يقول: ليس في الدين شيء يناسب ذوقي الفطري، فلا أكون مكلفاً بهذا الدين.

الفرق الجزئي والكلي بين نور الشمس والنجوم

ولكن أنوار هذه النجوم في سماء النبوة كانت محدودة بذواتها أو بالعلامات الشخصية الصادرة عن ذواتها. أي إنهم كانوا بذواتهم منارات مضيئة للهداية، ينظر إليهم فيعرف طريق الدين. وكانت شريعتهم أسوتهم العملية فقط، يتبعها الناس بالمشاهدة. أما الضوء المنتشر منهم فلم يكن كضوء الشمس أو ضوء القمر، بحيث يستفيد منه جميع أهل الدنيا الغائبين عنهم، الذين لم يكونوا مخاطبين بشريعتهم، كما يستفيد الحاضرون أمامهم من ذواتهم. فإن هذه الصورة من الانتشار،

التي تكون هادية للحاضر والغائب على السواء، إنما تكون لعلم الأصول والقوانين، لا لمجرد نموذج العمل.

فالعمل قائم بذات العامل. فمن رأى الذات رأى العمل. وإذا غابت الذات عن النظر غاب عملها عن المشهد. أما العلم والأصول فهي ضوء القمر الذي يخرج من الذات ويستمر بعد الذات؛ لأن العلم لا يرتفع بارتفاع العالم، بل يبقى نوره قائماً. وإذا كان في العلم أيضاً نور الأمور الكلية والقواعد العامة والأصول الكلية، كان ذلك العلم حراً من قيد القرون والدهور والأزمان، وظل يوصل النور إلى الأبد.

فكان الغالب في شرائع الأنبياء السابقين هو الرسوم والنماذج العملية، لا العلم. وكانت تلك النماذج تضبط في كتبهم السماوية وتجعل آثاراً. وما كان يحتاج إليه من العلم المتعلق بتلك النماذج كان يعطى بالكتب والمذكرات. فكأنه كان علماً من العمل، لا عملاً من العلم. ولم تكن الشرائع مشتملة على أعماق العلم وعلل الأحكام الجامعة، بحيث تكون الأحكام مبنية على علل علمية، وتكون عللها وأسرارها وحقائقها ومعارفها الخفية هي التي تنمي الأعمال، وبعمومها يصير الدين عاماً واسع الأحكام ثابتاً، فيفي بمقتضيات كل عصر في ضوء سعة تلك الأصول الكلية، حتى يثبت للمتأخرين أيضاً بتلك العلوم الأصولية والكليات هادياً كما كان للأفراد والأمم الحاضرة في وقته.

ولذلك كانت صورة الدين أن الدين يبقى ما بقيت هذه النماذج العملية بحالها في وجود الأنبياء وخلفائهم. فإذا ارتفعت الشخصيات صار بلا روح وانتهى؛ لأن مدار الدين كان على الشخصيات ونماذج أعمالها المحسوسة، لا على الأصول العلمية والحقائق العامة والقواعد الكلية الدائمة. ولذلك كانت صورة الدين تتغير في النهاية وتخلي المكان لدين آخر، وتنتهي الأمة المتكونة به. والحديث التالي يلقي الضوء على هذه الحقيقة:

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«ما من نبي بعثه الله في أمته قبلي إلا كان له في أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون»،
إلى آخر الحديث.
. مشكاة، باب الاعتصام بالسنة

ومن هذا يتضح أن سنن الأنبياء وأسواتهم النبوية في الأمم السابقة كانت هي الشريعة التي يقتدى بها. لكن بعد مرور أولئك الأنبياء وخلفائهم الأوائل، حين لم تبق النماذج العملية لتلك الأسوة ولا أهل الالتزام بها، تغيرت صورة الشريعة، لأن القوى العلمية من الدلائل والحقائق لم تكن خلف تلك النماذج لتضبط ذلك الفساد وتصلحه. وإن وجدت شيئاً، فإنما كانت لإبقاء العاملين دافئين بالعمل، لا لصناعتهم.

ولذلك فإن بقايا الأمم السابقة اليوم إذا كانت قائمة على رسوم، وكانت تلك الرسوم على حسب دعواهم هي الرسوم القديمة التي ورثوها عن أنبيائهم، فإن هذا يوضح الدعوى المذكورة: أن أساس الشرائع السابقة كان، أكثر من العلوم والحقائق أو الدلائل والشواهد، على الرسوم الشخصية أو القبلية وعلى شخصيات عملية مخصوصة. ولذلك حتى اليوم، إذا سئلوا عن دليل تلك الرسوم، لا يستطيعون أن يقولوا إلا:

«إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون.»

فليس عندهم وجوه ولا أدلة غير الآثار. والآثار هي أسوات الماضي ونقوشه، التي تؤخذ بلا دليل على أنها آثار أقدام السابقين. وهذا يسمى في العرف رسماً وعادة، وليس فيه روح الوجوه والأدلة، بل هو هيكل بلا روح.

فالآية والحديث المذكوران يشهدان شهادة واضحة أن التركيز في مناهج الأمم السابقة وشرائعها كان غالباً على نماذج العمل، لا على المحيط العلمي والحقائق الكلية، التي ينشأ منها في الدين روح واستعداد للنمو يجعله شاملاً.

العبادات الدينية

ولذلك، إذا نظرت إلى عباداتهم، ظهرت لك مجموعة رسوم لا غير. كإحراق السمن وقت العبادة عند بعض الأقوام، ودق الأجراس، والنفخ في الصدف، ونحو ذلك. وإذا نظرت إلى طريقة المحبة والخدمة مع المعبودات، كوضع الطعام أمام الأصنام، وتقديم الماء، ثم اعتباره تلقائياً فضل طعامهم والتبرك به؛ فإن لم يكن هذا رسماً بلا حقيقة، فما هو؟ ولا يوجد تحته دليل عقلي ولا نقلي ولا أصل كلي، إلا أن يقال: إنه رسم الآباء والأجداد.

وعند النصارى، ربط العقد وحلها في حبال الصليب وقت العبادة، ورش الماء الأصفر على شخص عند تعميده، أي عند إدخاله في النصرانية، وتلويث البدن كله بالتراب لإظهار خلق الخضوع، ولبس لباس خاص أصفر عند ترك الدنيا، أي الرهبانية، وأداء رسم حلق الرأس، والتسول من بيت إلى بيت ومن دكان إلى دكان لإظهار صورة التواضع والعبودية، وفي النكاح ربط الزوجين بعضهما ببعض بربط ذيل أحدهما بذيل الآخر بعقدة من قماش، ونحو ذلك؛ كلها تلك الرسوم الحسية ذات المظهر، التي لا توجد فيها روح علمية ولا قوة أصولية حجةً لها، وإنما هي رسوم أعمال السابقين، تستعمل بمجرد أنها تقليد للسابقين. ومن هذا يتضح أن مدار الأحكام في هذه الأقوام ليس العلل الكلية والحقائق العلمية، بل تقليد الآباء وعبادة الرسوم. فكأن علامة الدين ليست الدلائل العلمية، بل الرسوم العملية، سواء كانت بلا دليل أو على خلاف الدليل.

الشعائر الدينية

ثم ليس الدين وحده، بل علامات الإنسان الديني في هذه الأديان أيضاً تظهر في صورة رسوم ونقوش ملازمة لأفراد الدين، وبها يعدون من أفراده. فمثلاً في النصرانية، كون علامة الصليب

في العنق شعار الدين وعلامة النصرانية المميزة. وللهندوسي، الزنار في العنق والقشق على الجبهة علامة تدينه. وللسيخي، السوار في اليد، والكربان في العنق، والمشط في الرأس، والشعر في البدن كله يقال إنها علامة تدينه. ومن هذا يتضح أن هذه ليست أمماً علمية تعرف هي أو أديانها بالعلم والاستدلال، بل هي أقوام رسمية، تعرف برسوم حسية مخصوصة وعلامات جسمانية محسوسة.

خوارق الدين

ثم كذلك، بحسب عقلية تلك الأقوام المحبة للحس، كانت الحجة الإعجازية للدين ودليل النبوة، أي الخوارق والمعجزات، تعطى أيضاً عملية وحسية فقط. وكانت تلك الأقوام لا تطمئن إلا برؤيتها بالعيون، فتصير تابعة للنبي وتبقى سائرة في طريق الدين.

مثل عصا موسى، واليد البيضاء، وإحياء عيسى، ونار الخليل، وناقة صالح، وقميص يوسف، وظلة شعيب، وجر عرش سليمان، ونحو ذلك؛ كلها معجزات ترى بالعين، وكانت عملية لا علمية. والأمور العملية لا تبقى قائمة إلا بذات العامل وشخصيته. فإذا رحل العامل رحلت هي أيضاً. ولذلك لما ارتفعت تلك الذوات المقدسة التي أظهرت هذه المعجزات العملية، انتهت معجزاتها العملية أيضاً، وضاع دليل النبوة، فلم تمض تلك النبوة بهذا الدليل من قوم إلى قوم ومن بلد إلى بلد. وكانت النتيجة الطبيعية لذلك، ولا بد أن تكون، أن النبوة التي ضاع دليلها لا تبقى حجة مباشرة وواجبة الاتباع للأجيال الآتية.

والحاصل أنه إذا أخذت الأحكام والحجج في شأن الأديان السابقة، وجدت أن تلك الحجج كلها كانت من النوع الشخصي والرسمي، مدارها على الشخصيات لا على الأصول الكلية. ولذلك لما ارتفعت الشخصيات ولم يبق نموذجها العملي أمام الناس، لم تبق صورة الشريعة أيضاً على حالها، بل بقيت رسوم وعادات، وهذه أيضاً نقلاً بعد نقل. ولم يبق فيها روح الدين فحسب، بل لم تبق الصورة العملية نفسها صحيحة. ولذلك كانت تلك الشريعة الخالية من الروح والمتغيرة تضيع في النهاية وتخلي المكان لشريعة جديدة.

ومن جهة أخرى، إذا أخذت المعجزات، وهي دليل النبوة ودليل الشريعة، وجدتها أيضاً عملية. ولذلك، ما إن ترتفع هذه الكرامة العملية مع ذات صاحب العمل حتى لا يبقى دليل النبوة الذي يمكن تقديمه لإلزام الناس بتلك النبوة وشريعتها. ولذلك في الصورتين كانت النتيجة واحدة: الدين والشريعة لا يستطيعان أن يتقدما، فينتهيان ويفسحان المجال لدين حي آخر.

وخلاصة ذلك بعبارة أخرى هي أن أنوار الأنبياء السابقين، كالنجوم، كانت ذواتهم نفسها، سواء نظر إليها من حيث الأحكام والعمل أو من حيث المعجزة والكرامة. أي إن صورة الدين وحجته كانتا جميعاً على النمط الشخصي والرسمي. ولذلك لم يكن يستنير بهؤلاء إلا محيطهم القريب، وكان المنتسبون المعينون إليهم من بلدهم وقومهم، القريبون من شخصياتهم، يحصلون على نور الإيمان وحرارة الأخلاق. أما الأقوام الأخرى فلم يكن لها بهم شأن. ولذلك لم تكن رسالتهم شاملة،

ولا كان توجههم وتصرفهم وتربيتهم عامة، ولا كانت الشريعة عالمية دولية تحيط بالعالم. وهذه الحقيقة قيلت على لسان النبوة:

«كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة.»
أي كان كل نبي يبعث إلى قومه، فكأن دعوته قومية ومحلية، وأما أنا فقد بعثت إلى جميع الناس بدعوة عالمية.

فكان مثل نجوم الهداية هؤلاء، أي الأنبياء عليهم السلام، مثل قوله: «وبالنجم هم يهتدون.» فكالنجوم كانوا هم أنفسهم علامات هداية، ولكن لم يكن يخرج منهم نور عام كلي ينتشر فيأخذ دنيا زمانه كلها في دائرته الشاملة، فضلاً عن أن يكون حجة للآتين إلى يوم القيامة. ولذلك كان تعلق الهداية بأسوتهم الشخصية فقط، لا بنور أصولي كلي. وكانت هذه الأسوات، وبخاصة رسوم العمل، تضبط في ذيل الكتاب وتعطى لهم، فكانت بمنزلة مذكرة، لا بمنزلة قانون كلي أو دستور عمل دائم.

وهكذا في إصلاح الباطن كان مقابلة النفس الأمارة والوساوس الشيطانية بتصرفاتهم وكراماتهم المرتبطة بالذوات. فكأن ذواتهم نفسها، كالنجوم والشهب الثاقبة، كانت تقذف على الشياطين، فيتبدد نسيج الوسواس الشيطاني. غير أنه لم تكن هناك قوة علمية أو استدلالية لدفع الوساوس ورفع المكائد، بحيث تكون نافعة للعالم في هذا الباب على وجه أصولي دائماً. ولذلك كانت أديان نجوم الهداية هذه جزئية محدودة، كما أن نور النجوم جزئي محدود.

أما شمس النبوة، أي حضرة خاتم المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم، فإن النور الذي أعطي له ليس على النمط الرسمي أو الرمزي المحدود برسوم عملية، بل هو علمي وبرهاني وبياني وتبياني. ففيه كل عمل تابع لعلم خاص وحجة أصولية؛ وفي كل حكم حكمة، وفي كل أمر علة أصولية ما. وليست أحكام الدين صوراً رسمية وعرفية، تكون شكلاً محضاً وهيئة خالصة، ومقصودها مجرد إبقاء النفس على طريق معين، أو على الأكثر إماتة النفس وترك اللذات مع تأمل داخلي ومعرفة واستغراق لا صلة له بالنظام الاجتماعي.

ولذلك لا يسمى المسلم في هذه الدنيا مسلماً بمجرد رسوم قليلة أو علامات ظاهرة مخصوصة، بل يسمى مسلماً بهيئة وعمل ناشئين من التحقيق والاستدلال والعقيدة والمعرفة، وله في ذلك حجة ودليل وبصيرة:

«وعلى بصيرة أنا ومن اتبعني.»
أي إنهم يقبلون نموذج العمل بعد فهم الحقيقة، فالأصل عندهم الحجة لا الرسم.

ولذلك لم توضع للتعرف إلى إسلامه رسوم خاصة ملتصقة به، بحيث إذا رئيت عليه صدق إسلامه، وإذا لم تكن في يده أو قدمه أو جبهته أو عنقه لم يعد مسلماً. بل عقيدته وعمله وبصيرته ومعرفته هي نور جبهته، وطريقة عمله، وأسلوب سلامه وكلامه، ونمط أخلاقه ونحو ذلك تشهد لدينه، وبذلك يعرف كونه مسلماً. وليس مجموع الدين فقط، بل كل جزء من أجزاء الدين له حجة

ودليل وقوة علمية وراءه، وبذلك يبقى دينه قائماً ومعروفاً، لا بالرسوم والعادات والعلامات الاستعراضية.

والسبب في ذلك هو أن دين ومذهب مقتداه الأعظم، النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم، قد أعطي في لباس الحقيقة والعقل والبصيرة، حتى إن أعظم معجزاته وأخصها كانت علمية، وهي اليوم أيضاً موجودة في صورة القرآن الحكيم بنفس الشأن الإعجازي.

لكن هذه المعجزة ليست عصاً ولا يداً لامعة تلقى على العدو، ولا هي مظلة تمطر ناراً حتى يدخل تحتها المنكرون فيحترقوا، ولا هي ريح شديدة عاتية تطيح بالأقوام المعاندة وتطرحهم، ولا هي صيحة وزئير ـــــــ تشق أكباد أعداء الحق. فإن ذلك لا يثبت معقولية مسائله، ولا يجعله رسالة للأقوام المحبة للعقل. بل شأنها الإعجازي هو الأدلة القاهرة، وأسلوب البيان المطمئن، وشواهد الفطرة ونظائرها، والحجج الإعجازية التي تخاطب الفطر. وبها لا تسقط أبدان المعاندين، بل قلوبهم وعقولهم. فإن لم تقر ألسنتهم بسبب العناد، استعدت ضمائرهم للإقرار، وبذلك تحدث ثورة في الذهنيات الإنسانية. فكأن الأمم بهذه المعجزة العلمية لا تفنى، بل تستمال؛ لا تقتل، بل تحيا. أي إن إعجازها لا يظهر في صورة الموت، بل يظهر في صورة الحياة. فهي ليست من آيات التخويف، بل من آيات التبشير:

«إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً.»

واليوم أيضاً هذه المعجزات العلمية قائمة بلا نقص ولا نقصان بنفس الشأن الإعجازي، وإن كانت الذات المقدسة التي تسمى صاحبة المعجزة غائبة عن الأبصار؛ لأن العلم لا يمحى باحتجاب العالم، كما كان العمل ينتهي برحيل العامل. ولو كان القرآن معجزة عملية لما أمكن أن يكون حاضراً اليوم بعد الحضور. ولما كانت هذه المعجزة الدائمة قائمة كما كانت، فحجة الدين قائمة كما كانت. وبها يمكن اليوم أيضاً إقامة الدليل على النبوة القرآنية، وسيظل ذلك ممكناً إلى يوم القيامة. ولذلك لا تمحى الحجة ولا الدين الذي تثبته. فأساس هذا الدين ليس الرسوم والعادات والأمور العرفية ولا علامات الظاهر، بل الحقائق الطبيعية والبصيرة الفطرية:

«على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما أنا من المشركين.»

بل إن ذات النبي وخصوصياته النبوية هنا فوق الاقتداء. فهو في موضعه أعظم منارة نور، لكن العيون لا تثبت عليه بحيث ينظر إلى تلك الخصوصيات ليقتدى بها. بل إن الضوء المتصفى من شمس النبوة هو الذي جعل لهداية الدنيا، واسمه الشريعة والقانون. فكما أن الطريق لا يعرف بالنظر إلى عين الشمس، بل بالسير في ضوئها، بشرط ألا يجرؤ الإنسان على ملء عينه من الشمس؛ كذلك هنا فإن الحياة الخاصة لشمس النبوة رفيعة عالية إلى حد، وتحمل من نور العزائم شدة إلى حد، أن رفع النظر إليها هو رفع اليد عن النظر، بل فقدان السير نفسه. ولذلك لم تجعل

الخصوصيات النبوية للاقتداء، وليس الاقتداء بها في وسع أحد حتى تجعل دستور حياة. ولا يطيق ذلك أكمل الأولياء وخواص الصحابة، فضلاً عن الصلحاء.

نعم، إن الضوء المتصفى من شمس النبوة فقط، أي الشريعة العامة ودستورها العام بما فيه من السعة، هو رسالة الدنيا ودليلها، وبه ترتبط تكملة الإنسانية الكبرى.

وبالجملة، فالفرق بين نجوم النبوة وشمس النبوة هو أن شخصيات نجوم النبوة، أي الأنبياء السابقين، وأفعالهم الشخصية كانت علامات الدين الهادية. فماداموا أمام الناس وجدت الهداية، وإذا احتجبوا انتهت الهداية. وهذه صفة النجوم: إذا كانت أمامك أمكن الاهتداء، وإذا غابت عنك استحال الاهتداء. فكأن الاهتداء في الشرائع السابقة كان متعلقاً بالحسيات أكثر من المعنويات؛ لأن الذات وخصائص الذات أشياء ترى.

أما الاستنارة بنور شمس النبوة فلا تحتاج إلى حضور الشمس أمام العين، بل إن كان هناك شيء لازم فهو ألا توضع ذاته وذاتيّاته أمام العين، لأن الخصوصيات النبوية هنا فوق الاقتداء. فالضوء المنتشر منه، الذي جعل هادياً في لون علمي، رسالة لكل خاص وعام. ليس شيئاً يرى بالعيون، بل شيئاً يفهم. ولذلك فطريق الاهتداء هنا في المعنويات أكثر من الحسيات، وفي الحقائق والمعارف بدل الصور والأسماء. وهذه تحتاج إلى نور البصيرة أكثر من البصر.

وهذا شيء آخر: أنه لأجل الهداية الكاملة للأمة أظهر بنفسه جميع هذه الوظائف الشرعية بالفعل أيضاً، وهذا اسمه الأسوة الحسنة، حتى لا تصير صور العمل مخترعة من كل أحد، فيقع في الأمة تشتت واضطراب. لكن هذه الأسوات والنماذج العملية أيضاً ليست رسوماً محضة لم تمنحها الحقيقة وجوداً، بل تحتها أصول وكليات معقولة، وعلوم وأسرار، تقوم بها هذه الأشكال الخاصة من العمل. وهي نفسها دعوة مستقلة للعقل والبصيرة وقوة الاستنباط. فكما استنبط المجتهدون والعلماء الراسخون في العلم المسائل من الأحاديث القولية، كذلك استخرجوا من الأحاديث الفعلية قدراً مماثلاً من العلوم والمسائل.

ولذلك، إذا بدأت هذه الأشكال الخاصة وهذه الهياكل العملية في وقت ما بالفساد، فإن تلك الروح الداخلية وهداية الأصل تقدم فتصلحها. وليس الأمر أن هذه النماذج العملية تفنى كلياً بسبب ارتفاع الشخصيات، بل إن بدل الشخصيات هو الشخصيات اللاحقة مع الأصول والقوانين والحجج والبراهين والطرق الأصولية للاستقامة، وبها يمكن إزالة الفساد الحاصل في النماذج العملية، وقد أزيل.

وعلى كل حال، كانت الشرائع الأخرى باعتبار عباداتها وعلاماتها ومعجزاتها رمزية، يلزم فيها وضع العلامات الحسية أمام العيون، وإلا لم تحصل الطمأنينة والرضى لنفوس غير المؤمنين. أما هذه الشريعة الأخيرة الكاملة لشمس النبوة فهي حقيقية وتحقيقية، لا أهمية فيها للحسيات، لأنها ليست مجموعة من رسوم معدودة، بل مجموعة من الحقائق والبصائر والحجة والبرهان. وفيها

يحتاج إلى العقل والفهم والذوق والبصيرة بدل النظر. فهناك كان الحس والبصر أصلاً، وهنا الفكر والنظر أصل.

ولذلك كلما فقدت الأمم الأخرى ذوات مقتديها الأوائل ورسومهم العملية أو صورهم العرفية، وكان فقدانها طبيعياً بارتفاع المقتدين، لأن العمل يرتفع بارتفاع العامل، ضاع الدين والملة، ولم يبق للمستقبل إلا اسماً في صورة قصص وأمثال وعادات بلا حجة ولا سند، لا حقيقة فيه. أما هنا، فإن الأمة المسلمة إذا احتجبت عن شمس النبوة، فلا يمكن أن تحتجب في وقت من الأوقات عن علوم شمس النبوة وآثارها حتى ينتهي الدين؛ لأن العلوم والأصول لا ترتفع بارتفاع العالم. فهي محفوظة اليوم أيضاً بأشكالها الكلية والأصولية. وإذا أحدث متجدد سيئ الفهم فرقاً في صورته الجزئية، فإن حقيقته الباطنة وعلته الأصولية التي منحت تلك الصورة تعيد تصحيحها، كما يصحح الجذر غصنه الفاسد، أو تصحح الروح الجزء المجروح من البدن. وهكذا يبقى هذا الدين الأخير قائماً ومحفوظاً بحقيقته وصورته كاملة كما كان.

ومن هذا يتضح بجلاء أن فعل إفاضة النور لا تقوم به ذات الشمس وحدها، بل تقوم به آثارها أيضاً، واسم ذلك اللمعان والضوء. ولذلك سمى القرآن الكريم ذوات النجوم هادية: «وبالنجم هم يهتدون.» وكان القمر أكثر نوراً منها قليلاً، إذ كان ضوءه القمري ينتشر أيضاً وإن لم يستطع أن يجعل الليل نهاراً، فسماه نوراً: «والقمر نوراً.» أما لمعان الشمس وإشراقها، فلما كان فعالاً ومفيضاً للضياء كالشمس نفسها، ذكر القرآن نورها معها على وجه المساواة، مظهراً إياه بمنزلة ذاتها، حتى يتضح أن الشمس لا تقوم وحدها بعمل إنارة الليل، بل إن آثارها تقوم بالعمل نفسه. ولذلك أقسم بالشمس ومعها ضحاها، وذكرهما بأسلوب متساو، فقال:

«والشمس وضحاها.»
وقال: «هو الذي جعل الشمس ضياء.»

ومن الظاهر أن النجوم ليس فيها هذا الضحى واللمعان المنتشر، بل إن أجسامها المضيئة وحدها تنير بقدر طاقتها. ولذلك سمي الشمس سراجاً، لأن شعلته وحدها لا تعمل، بل الضوء المنتشر من الشعلة واللمعان الخارج من الضوء يعملان أيضاً. أي إن السراج يبقى قائماً في مكانه، لكن الضوء واللمعان الخارجين منه يستوليان على المكان كله، وينتفع بهما كل من ليس أمام عين السراج.

فذوات النجوم وحدها هادية، ونور القمر هادٍ لكن بضعف، ومع الشمس صار ضحاها هادياً، وضياؤها هادياً، والضوء الخارج من سراجيتها ـــــــ هادياً أيضاً. وبذلك تظهر ميزتها الخاصة في إفاضة النور بين جميع النجوم، ويتضح أن الأنبياء السابقين كانوا نجوم هداية، استنارت الدنيا بذواتهم. لكن بانعدام حضور الذوات ينتهي النور، لأنه لم تكن مع الذوات آثار مضيئة منتشرة تفيض بالضياء عند احتجاب الذوات. أما آثار شمس النبوة فهي أيضاً منيرة، كما أن الذات نفسها منيرة، وإذا لم تبق الذات والذاتيات أمام العين، قامت آثارها النورانية بعمل الذات نفسها. ولذلك بمجرد طلوع صبحها الصادق تغيب الليلة، مع أن الشمس لم تظهر أمام العين، ولكن كمالات

ضوئها، المنفصلة عنها والمنتشرة في العالم، تقوم بعمل الإضاءة والهداية كالذات نفسها. بخلاف النجوم، فلا صبح صادق لها، ولا شفق يطلع منها، بل هي تطلع بنفسها فقط.

والخلاصة أننا بتشبيه «السراج المنير» البليغ فهمنا أولاً الظلمة المنتشرة في أرض القلوب، ثم تعرفنا إلى آثار طلوع الشمس، أي صبحها الصادق اللامع، ثم فهمنا الشفق الأحمر وبهاءه، ثم عرفنا مطلع شمس النبوة، ثم فهمنا ظهور الشمس وعروجها التدريجي، ثم رأينا سير إفاضتها للضياء وآثارها التدريجية، ثم رأينا نورها الممتاز في مقابلة جميع نجوم الهداية، ثم فهمنا بقاء تلك الأنوار إلى الآن مع اندماجها في نور الشمس، ثم فهمنا جزئية نورها وكلية شمس النبوة وجامعيتها. وهكذا، في ضوء دلالة هذا التشبيه القرآني، تعرفنا إلى المقامات الابتدائية الجامعة لسيرة النبوة. أي إن خريطة طلوع الشمس الروحانية وآثار طلوعها وأسباب طلوعها ونوعية طلوعها ونوعية الشمس نفسها كلها ظهرت أمامنا كاملة من خريطة الشمس المادية.

والآن جاء الوقت لأن نفهم في ضوء هذا التشبيه البليغ تلك المقاصد الممتازة للطلوع أيضاً، وأن نصل إلى الدقائق الخفية لتلك الأوصاف والكمالات الخاصة الصادرة عن شمس النبوة، التي لا ترى في نجوم الهداية العامة، بل تعد من خصوصيات شمس النبوة وحدها. بل من شعاعها وصل النور إلى جميع نجوم الهداية. وفي الاصطلاح الشرعي، اسم مجموع هذه الكمالات الامتيازية والمصدرية للنبوة هو ختم النبوة.

ختم النبوة

فافهم ذلك هكذا: إن أعظم شأن امتيازي للشمس، وأعلى خصوصيتها، ليس فقط أنها ذات نور عظيم لا يوجد في سائر النجوم، بل إنها منتهى الأنوار، وهي بالنسبة إلى سائر النجوم مانحة للنور، منها يأتي النور إلى النجوم الأخرى، وبها يبقى قائماً. أي إن كمال الشمس ليس مجرد كونها منيرة، أو كونها أشد نورانية من جميع النجوم، بل كونها أصل نورها جميعاً؛ لأن الجميع محتاجون إلى الشمس في نورهم، والشمس نفسها غير محتاجة إلى أحد في نورها، إذ نورها لها، ونور بقية النجوم ليس لها من ذاتها، بل هو مأخوذ من الشمس.

ولذلك، عند أهل الهيئة والفلاسفة، ليس الكمال العظيم لجميع النجوم سوى صفاء أجسامها وشفافيتها حتى تقبل النور، لا كونها منيرة من ذاتها. فالأصل في النور هو الشمس، وبفيضها تصير هذه النجوم كلها منيرة إذا وقعت في محاذاتها. وإن كان نجم من النجوم أكبر من الشمس حجماً وضخامة، كما يدعي علماء العصر أيضاً أن نجوماً لا تحصى أكبر من الشمس بكثير في الحجم والضخامة، فليس منها أكبر في النور، إذ ليس نور أي نجم من ذاته، بل هو مأخوذ من الشمس. فالشمس إذاً مربية ومصدر فيض لجميع النجوم. ولذلك ليس امتياز الشمس مجرد كونها منيرة، بل كونها أصل النورانية.

وبناءً على ذلك، لا يكون غير معقول أن يفهم أن جميع الأنوار تنتهي إلى الشمس؛ فمنها يسير النور إلى جميع النجوم إذا كانت أمامها، سواء كانت فوق أو تحت، كبيرة أو صغيرة في الحجم والضخامة، ويمر في الجميع ثم يعود إلى جهتها.

وهذه هي حال خاتم أي وصف: أن ذلك الوصف يجري منه ويعود إليه. فهو الفاتح وهو الخاتم، وهو مبدأ ذلك الوصف ومنتهاه، وهو الأول وهو الآخر. ولذلك لا نقول الآن في الشمس إنها منيرة فقط، بل نقول إنها مانحة للنور ومنشئة للنور. ولا نقول إنها صاحبة الأنوار فقط، بل نقول إنها خاتم الأنوار، إذ إن جميع النجوم تأخذ النور منها، ثم في حركة ذلك النور يعود إليها. فخاتمية الشمس للأنوار هي في الحقيقة العنوان الممتاز لجميع كمالاتها، الذي يظهر شأنها الامتيازي، لا مجرد كونها منيرة مطلقاً، فإن ذلك قدر مشترك موجود في جميع النجوم على درجات. وكذلك ليس مجرد كونها أكثر نوراً بالنسبة إلى سائر النجوم شأنها الامتيازي الأخير، فإن هذه الزيادة والنقصان النسبية موجودة أيضاً في النجوم، إذ كل نجم أكبر نوراً من نجم وأصغر من نجم. بل الخصوصية الامتيازية الأصلية هي منح النور وكونها أصل نور جميع النجوم.

وكذلك تماماً، فإن شأن شمس النبوة، جناب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليس مجرد كونه نبياً، فإن هذا الشأن موجود في كل نبي على وجه القدر المشترك. وليس كذلك مجرد كونه زائداً أو فائقاً، على وجه إضافي، على جميع نجوم الهداية هؤلاء، أي الأنبياء عليهم السلام، في كمالات النبوة؛ فإن التفاضل واختلاف المراتب قائم أيضاً بين الأنبياء:

«تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض.»

بل وصفه الامتيازي الأصلي هو أنه في نور النبوة مربي جميع الأنبياء، ومصدر الفيض في حقهم، وأصل أنوار كمالهم. ولذلك فالنبي في الأصل هو هو، وأما سائر الأنبياء عليهم السلام فليسوا أصلاً، بل صاروا أنبياء بفيضه. وكمال أولئك المقدسين السابقين في الحقيقة هو صفاء جواهرهم وشفافيتها واستعدادها، والكمال الفطري لاستعداداتهم الباطنة. فبمجرد أن جاء وجه شمس النبوة النوراني أمام قلوبهم الصافية وأرواحهم الطاهرة، قبلوا جميع أشعته، واستناروا هم أنفسهم، ثم بدأوا يوصلون ذلك النور إلى غيرهم.

فهو إذاً ثابت في حق جميع حضرات الأنبياء هؤلاء مربياً وأصل النور. ولذلك سمى نفسه لا نبي الأمة فقط، بل نبي الأنبياء أيضاً، كما صرح بذلك في روايات الحديث. فكما أنه مربي الأمة بسبب كونه نبي الأمة، كذلك هو مربي الأنبياء بسبب كونه نبي الأنبياء.

والآن، إن كان بعض نجوم الهداية أكبر من الشمس أو أصغر منها في الجسم أو القد والقامة أو هيئة البدن، فلا يغير ذلك شيئاً من كونه المربي العام. ففي أول دور عالم البشرية كان جميع البشر، وفيهم الأنبياء الكرام، أكبر حجماً وضخامة وقداً وقامة بالنسبة إلى الأزمنة اللاحقة. وكان طول آدم عليه السلام بقياس يده ستين ذراعاً، وعرضه سبعة أذرع. وكذلك كان حال قامة نوح

عليه السلام وحضرة هود وصالح عليهما السلام. وفي روايات السير أن الجسم المبارك لبعض أنبياء ذلك الدور لما ظهر بانكشاف القبر، كان قياس أنفه ذراعاً.

وكما أن كثيراً من النجوم، بتصريح أهل النجوم، أكبر من الشمس حجماً وضخامة، ومع ذلك كلها محتاجة إليها في فيض النور؛ كذلك إن كان كثير من الأنبياء عليهم السلام أكبر من الحضور في القد والقامة أو في خصوصية جزئية، فلا يثبت بذلك استغناؤهم عنه في نور النبوة ولا كبرهم عليه. وإذا كانت هذه هي الصورة، فشأن الحضور لا يكون مجرد النبوة، بل يكون أيضاً منح النبوة؛ فكل فرد وجد استعداد النبوة وجاء أمامه صار نبياً. وهكذا جرى نور النبوة منه، ثم عاد إليه وانتهى فيه. وهذه هي صفة الخاتم: أن ابتداء وصفه الخاص منه، وانتهاءه إليه. ولذلك لا نقول عنه من حيث وصف النبوة إنه نبي فقط، بل نقول إنه خاتم النبيين، لأن جميع أنوار النبوة تنتهي إليه. وبهذا هو منتهى النبوة؛ منه تسير النبوة، ثم في النهاية تعود إليه.

فبتمثيل الشمس تثبت شمس النبوة مبدأ النبوة ومنتهاها، وتظهر في النبوة أولاً وآخراً، فاتحاً وخاتماً. ولذلك أعلن أولية نبوته بهذه الألفاظ:

«كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد.»

أي إنه كان قد صار نبياً حين كان آدم لا يزال عجينه يهيأ، ولم تكن خلقته قد تمت.

ومن جهة أخرى، أعلن آخرية نبوته وخاتميتها بهذا العنوان، إذ أظهر النبوة قصراً، وأظهر نفسه آخر لبنة فيه، فقال:

«فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين.»

ثم بين صورة جمع هذين الجانبين المتقابلين، أولية النبوة وآخريتها وخاتميتها، في ذات واحدة، فقال:

«أنا أولهم خلقاً وآخرهم بعثاً.»

وقد صدق القرآن الحكيم هذه الحقيقة، فسماه خاتم النبيين، وبه يتضح كونه منتهى كمالات النبوة، وهو دليل صريح على كونه مصدر النبوة. قال الرب:

«ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين.»

ومن ذلك يتضح أنه في حق الأنبياء بمنزلة الأصل، وأن الأنبياء بالنسبة إليه بمنزلة الفرع، إذ ظهر علمهم وخلقهم بفيضه. وهذه الخصوصية الامتيازية، وهي إيصال الفيض وكونه منبع كمالات النبوة، بدأت من ابتداء البشرية حتى وصلت إلى نهاية الكائنات.

ففي عهد ألست، حين سئلت نوع البشرية كلها: «ألست بربكم؟» أخذ الجميع ينظر بعضهم إلى وجوه بعض. وأول من قال «بلى» وأقر بالربوبية كان ذات حضرة خاتم الأنبياء المباركة. فلما

سمعوا صوت الحق منه رفع الجميع أصوات «بلى»: بلى، إنك ربنا. ومن ذلك يتضح أنه عند بداية البشرية كان الحضور هو المعلم الأول لعالم البشرية، ومربي معرفتها بالربوبية. وبعبارة أخرى، بإرشاده العملي انفتحت استعدادات الإيمان لجميع الأولين والآخرين وصارت عاملة، وفيهم الأنبياء عليهم السلام.

فهذه تربيته الأولى، وبعنوان مختصر، أول شأن من شؤون قيادته وسيادته، ظهر في دائرة التعليم والتربية، وظهر أول مظهر من مظاهر خاتميته. وإلا لو كان ذلك مجرد أثر النبوة، لنطق جميع الأنبياء دفعة واحدة بكلمة «بلى» ولم ينتظروا كلمته. لكن سكوت الجميع ونطقه هو دليل صريح على كونه المعلم الأول والمربي الأول، وليس ذلك مجرد أثر النبوة، بل أثر ختم النبوة.

وهذا الأثر ليس محدوداً بعهد ألست، بل استمر إظهار شأن الخاتمية هذا في عوالم مختلفة: عالم الدنيا، ثم عالم البرزخ، ثم عالم الحشر والنشر، ثم عالم الجنة، حتى تبقى فضيلته وسيادته على جميع الأنبياء الكرام عليهم السلام ظاهرة ظهوراً بيناً أمام الأنبياء والأمم.

ففي ليلة المعراج، وهي نفسها مظهر عظيم من مظاهر شأنه الامتيازي، قدم على جميع الأنبياء وجعل إمام الصلاة، وجعلت جماعة الأنبياء كلها مقتدية به، حتى ينكشف للأنبياء وأممهم أنه أفضل الأنبياء ومنتهى كمالات النبوة. فإن غرض خلق العالم وغايته بنص القرآن هو العبادة، والصلاة أفضل العبادات، بل هي التي يقوم بها الارتباط بين العبد والمعبود، وينال بها الإنسان العبودية الحقيقية. ولذلك فالذات الأقدس التي تكون إمام الجميع في الصلاة وممتازة عليهم هي أيضاً أكثر تحقيقاً لغرض الخلق. ومعنى ذلك أنها أرفع في كمالات البشرية، لأنها أرفع في الصلاة على الجميع وأشد امتيازاً. ولذلك جعل إماماً في الصلاة ليلة المعراج لإظهار فوقيته في الصلاة، وهذا دليل على كونه منتهى كمالات النبوة وحاصل ختم النبوة.

وكذلك في المعراج مرر به في السماوات السبع، وأوصل إلى سدرة المنتهى، ليتبين أنه تجاوز مقامات جميع الأنبياء الكرام والملائكة المقربين، ووصل إلى مقام لم يصل إليه نبي مرسل ولا ملك مقرب. فحسأ كان ذلك مروراً بالسماوات، ومعنىً كان مروراً بمقامات الأنبياء وإيصالاً إلى مقام القرب الأقصى الذي لا وصول لأحد إليه. فلما كان الأنبياء عليهم السلام يلقونه في تلك السماوات على مقاماتهم، وكان هو يتجاوزها، ثبت بذلك تقدمه وفضله وامتيازه في مقامات النبوة.

ثم في يوم القيامة سيبلغ المقام المحمود، حيث لا يبلغه أحد، ولذلك سيؤتى إلى مقام الشفاعة الكبرى، حيث يتوقف جميع الأنبياء عليهم السلام عن الوصول، ويظهر كل واحد منهم شيئاً من ذلته أو زلته ويعتذر عن التقدم إلى ذلك المقام. وهذا دليل على أنه فائق على جميع أولئك المقدسين، وأنهم محتاجون إليه.

ولذلك أيضاً جعل وجه خلق الكائنات، وبإظهار أن خيمة الكائنات كلها أقيمت لأجله، كان المراد بيان أنه ثمرة عالم الخلق هذا ومقصوده الأصلي. ومن الظاهر أن الثمرة في الشجرة هي

المقصودة والأصل، ولأجلها تغرس الشجرة. أما سائر الأغصان والأزهار والأوراق فتمهيد لها. وبه يظهر كونه المقصود الأصلي بالنسبة إلى الكائنات كلها.

ولما كانت جميع القوى المنتشرة في امتداد الشجرة الطويل العريض تجتمع في الثمرة، أي إن الثمر جامع لقوى الشجر، ظهر من ذلك أيضاً أنه جامع كمالات البشر وجامع كمالات جميع الأنبياء، الذين هم براعم هذه الشجرة الكونية وأزهارها الخضراء.

وقد صرح هو نفسه أيضاً بأنه جامع كمالات الأنبياء؛ لأن أساس كمالات النبوة عند الأنبياء شيئان: كمال علمي وكمال أخلاقي. فأما كونه جامعاً لجميع الكمالات العلمية للأنبياء والأولياء، فقد قال فيه:

«أوتيت علم الأولين والآخرين.»
ومظهره الأتم القرآن الحكيم .

وأما جامعيته لكمالات الأخلاق، فتتضح من أن الصديقة عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلقه قالت:

«وكان خلقه القرآن.»
روح المعاني .

أي إن كل ما في القرآن بصورة العلم هو في ذاته بصورة الأخلاق والملكات، والمقامات القلبية التي فيه بصورة الرسوم والدلالات هي فيه بدرجة الخلق والعمل.

ومن الظاهر أنه لما كان القرآن جامع كتب السابقين، وهو مجموع أخلاقه، ثبت أن أخلاقه أيضاً جامعة لأخلاق السابقين. وهذا دليل واضح على كونه خاتم كمالات الأخلاق ومنتهى كمال الخلق. ومن هذا يتضح تلقائياً أن الذات المباركة الجامعة للجميع والفائقة على الجميع في أسس النبوة هي أيضاً أصل الجميع في تلك الأسس.

ولذلك، بناءً على كونه الأصل، أخذ العهد والميثاق من جميع الأنبياء الكرام أن يؤمنوا به ويتبعوه وينصروه، كما يظهر من الآية: «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين.» ثم في ضوء هذه الآية ضرب الحضور مثال كون الأنبياء السابقين تابعين للخاتم، فقال:

«لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي.»

وما حاصل هذا إلا أن نبياً من أولي العزم وصاحب شريعة مثل موسى عليه السلام يكون، عند عدم وجود خاتم الأنبياء، واجب الطاعة، لكن عند وجود الخاتم يصير بدل المطاع في رتبة المطيع. ولا يكون هذا إلا إذا كان منصبه تابعاً للخاتم، لأن جميع سلطات التابع واقتداراته في الحقيقة للمتبوع والرئيس الأعلى، ومنها تصل إلى التابع بعطائه. ولذلك ... مع وجود الأصل لا يجري حكم الفرع.

وهذا مثل أن يقول رئيس الوزراء لجميع الوزراء: لا يجري حكمكم أمامي، وإنما تبقى آمريتكم في غيبتي. ومن ذلك يتضح أن سلطات التابع تصير كالعدم أمام المتبوع، وإن بقي المنصب على حاله. وهذا أصل لا يختص بهذا، بل حال الأصل والظل في كل دائرة هكذا: مع وجود الأصل لا تجري سلطة الفرع. فإذا حضر الأب، استحيا الابن صاحب الأولاد أن يسمي نفسه أباً، فضلاً عن أن يدعي حق الأبوة ويستعمله؛ لأن أبوته فرع وظل لأبوة أبيه، وأمام الأصل تضعف رتبة الفرع. أو مثلاً إذا حضر البحر استحت الأنهار أن تسمى بحاراً، لأن الماء أينما كان فهو، بواسطة أو بلا واسطة، فيض البحر. ولذلك تنضم هذه الأنهار العظيمة كلها عند وصولها إلى البحر إلى جريان البحر نفسه، ولا تبقى سرعتها الخاصة. وإذا حضرت الشمس استحت النجوم أن تسمى منيرة، لأن أصلها حاضر أمامها، ومع وجود الأصل يبدأ الفرع بالحياء من وجوده نفسه، فضلاً عن أن يدعي الوجود.

وكذلك تماماً، فمن الطبيعي والفطري لجميع الهداة، أي الأنبياء عليهم السلام، عند مجيء شمس النبوة أن يدخلوا في مجرى ختم النبوة، لا أن يجروا أحكام نبواتهم أو يأمروا بإجرائها. بل لا يجرون حكمهم الخاص. وهذه هي الحقيقة التي أظهرها الحديث المذكور: أنه لو فرض أن نبياً سابقاً أدرك عصر خاتم النبيين، لجَرَى عليه وعلى أمته حكم ختم النبوة لا حكمه هو، ولا حكمه على الخاتم. وهذا في الحقيقة دليل واضح على أن الخاتم هو أصل الكمال، وأن جميع الأنبياء غير الخاتمين فروع كمال.

ثم إن ما عرض في الحديث المذكور على سبيل الفرض قد عرض واقعاً أيضاً: ففي الدور المحمدي، عندما ينزل حضرة عيسى عليه السلام من السماء إلى الأرض، سيتبع دين النبي الخاتم. بل لعل حضرة عيسى عليه السلام رفع حياً إلى السماء، ثم ينزل من السماء إلى الأرض في آخر دور الدنيا، ليظهر هذه الحقيقة نفسها: أنه بجميع قوى نبوته سيجدد الشريعة المحمدية في ذلك الدور المليء بالفتن، وسيطيعها أيضاً. وهكذا لا يبقى اتباع النبي السابق لمحمدية في الدور المحمدي مجرد عقيدة، بل تظهر صورته العملية أيضاً.

بل يثبت من هذا المثال الواقعي الواحد، عقيدةً، أن هذا ليس واقع نبي إسرائيلي واحد، بل هو دليل عملي على تبعية جميع الأنبياء الإسرائيليين. فإن حضرة عيسى عليه السلام خاتم أنبياء بني إسرائيل وآخر حلقة في تلك النبوة الإسرائيلية. ومن الظاهر أن الحلقة الأخيرة من سلسلة متصلة إذا جذبت إلى جهة، جذبت السلسلة كلها بطبعها إلى تلك الجهة. وما يكون حكم الآخر يكون حكم السلسلة كلها. ولذلك لا وجه لأن لا يعد مجيء حضرة المسيح عليه السلام، وهو الحلقة الأخيرة في النبوات الإسرائيلية، بعد النزول تابعاً للأمر المحمدي، دليلاً على تبعية السلسلة كلها لذلك الأمر.

وخاصة أن موسى عليه السلام، بحسب تصريح التوراة كما ذكر في الأحاديث، دعا أيضاً أنه إن لم تعط له أمة مرحومة كالأمة المحمدية أمةً له، لأنها أمة أحمد، فليدخل هو في هذه الأمة.

فبإحضار خاتم سلسلته، حضرة المسيح عليه السلام، في هذه الأمة مجدداً للإسلام وتابعاً للشريعة المحمدية، تمت رغبة موسى عليه السلام المقدسة بإدخال حضرة المسيح في الأمة.

ولما صار هو، مع كونه نبياً، فرداً من الأمة المحمدية، وهو خلاصة الإسرائيلية، فقد دخلت الإسرائيلية كلها من موسى إلى عيسى عليهما السلام في الأمة بصفة تابعة ومقتدية. فكأنه بإظهار اتباع النبي الإسرائيلي الأول، موسى عليه السلام، والنبي الإسرائيلي الأخير، حضرة المسيح عليه السلام، لمحمدية كل بحسب نوعه، ثبت أن جميع الأنبياء الإسرائيليين، الذين كانت نبوتهم في دورهم أفضل نبوة في الدنيا، تابعون لشمس النبوة بواسطة أولهم وآخرهم.

ومع ذلك، فالنبوات التي نتج عنها مقام الإسرائيلية تعد أيضاً، باعتبارها مبادئ الإسرائيلية، مشاركة لها في هذه التبعية. وهكذا يخرج الحكم نفسه لجميع الأنبياء عليهم السلام: أن نبواتهم تابعة لختم النبوة وبمنزلة الظل له. ومن ذلك يظهر بجلاء كون حضرة النبي صلى الله عليه وسلم نبي الأنبياء.

ومن ذلك يتضح أيضاً أن الدور المحمدي، وهو آخر أدوار الدنيا، إذا كان الأنبياء أنفسهم لا يجدون فيه بداً من الاتباع المحمدي، فهذا إعلان صريح بأن أقوامهم وأممهم أيضاً لا يجدون في هذا الدور بداً من اتباع الخاتم، بل إن النجاة متوقفة على دين الخاتم:

«ومن يبتغ غير الإسلام ديناً» أي في دور الإسلام، «فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين».

فمتبوعية حضرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم العامة، وكونه أصل النبوة، قد أظهرا بعنوان خاتم النبيين.

نور الشمس أصل نور جميع النجوم

إذ لم يكن، سوى هذا العنوان، عنوان جامع آخر يظهر به منبع النبوة لآخر الأنبياء. فكما أن الشمس المادية، بسبب كونها أصل نور جميع النجوم، هي خاتم الأنوار، وكل نجم في النور تابع لها ومقتد بها؛ كذلك الذات المباركة للشمس الروحانية، حضرة محمد صلى الله عليه وسلم، بسبب كونها أصل نبوات جميع الأنبياء، هي خاتم النبيين، فإن كل نجم هداية وكل نبي مستفيد منه في نور النبوة وتابع له.

ليس من الضروري أن يكون منبع النور أكبر حجماً

ثم كما أن الشمس مربية لجميع النجوم في نورها، سواء كان نجم منها أكبر منها أو أصغر في القد والقامة؛ كذلك شمس النبوة، خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، مربية ومفيضة لجميع نجوم الهداية، أي الأنبياء عليهم السلام، في أنوار النبوة، سواء كان قد نبي وقامته أكبر من الحضور أو أصغر.

الألوان الخاصة لنجوم الهداية فيض شمس النبوة

وكما أن نور جميع النجوم مستعار من فيض الشمس، وإن كانت خاصية وعاء كل نجم مختلفة، وبسببها يكون لون نور تلك النجوم مختلفاً وتأثيره مختلفاً، إلا أن النور العامل في الجميع هو نور الشمس. كذلك نور النبوة في جميع نجوم الهداية، أي الأنبياء عليهم السلام، هو أيضاً من فيض خاتم الأنبياء، وإن كانت ألوان تعليمهم وتربيتهم مختلفة، وآثار تربيتهم في الأمم مختلفة، وبسبب ذلك صارت عقول الأمم المتربية بهم مختلفة. لكن النور العامل في الجميع كان نور خاتم الأنبياء؛ إذ لولا إلقاء نوره لما كان ظهور الأنوار المتفاوتة في قلوب الأنبياء الطاهرة ممكناً، ولا كانت هذه الخصائص المتنوعة لعلوم النبوة تنكشف بالمرور في هذه الأوعية.

إذا جاء النور الأصلي للشمس لم تبق حاجة إلى الأنوار الفرعية

وكما أنه بعد طلوع الشمس لا تبقى حاجة إلى النور الظلي والفرعي للنجوم، إذ بعد مجيء النور بلا واسطة لا تبقى بالطبع حاجة إلى النور بواسطة؛ كذلك بعد مجيء خاتم النبيين لا تبقى حاجة إلى نور أي نجم هداية، أي أي نبي، ما دام الأصل الأصلي لهذه الأنوار قد ظهر بلا واسطة بواسطة ختم النبوة، إذ إن ضوء الشمس وحده الآن كاف للعالم كله.

فكما أن جميع النجوم بعد طلوع الشمس تخفت وتغيب في نورها، بحيث إن نورها مع بقائه لا يستطيع أن يظهر متشخصاً؛ كذلك بعد بعثة خاتم النبيين غابت أنوار الأنبياء الآخرين في نور الخاتم وصارت كالعدم، ولم يعد يمكن أن تبقى متشخصة في صورة شرائعها الخاصة. وهذا هو معنى نسخ الشرائع: أن شريعته تكون ناسخة للشرائع السابقة، ولا يكون الأمر بالعكس.

شمس النبوة ليست خاتم النبيين فقط بل آخر النبيين أيضاً

وكما أن الشمس تطلع آخراً بعد طلوع جميع النجوم، لكي تكمل كل نقص سابق في النورانية؛ كذلك جعل حضرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء أيضاً، حتى يكون زمانه بعد جميع النبيين، وحتى يثبت حكم المحكمة الأخيرة أنه الكلمة الأخيرة لأحكام كل محكمة ابتدائية، وناسخ في حقها.

شمس النبوة هي وحدها مصدر الأنوار

وكما أن الكمال الأصلي للشمس ليس مجرد كونها نوراً، بل كونها مصدر النور وأصل الأنوار؛ كذلك ليس مجرد كون شمس النبوة، الذات النبوية المباركة صلى الله عليه وسلم، نبياً كمالاً امتيازياً، فإن هذا الكمال مشترك في جميع الأنبياء. بل الكمال هو كونها مصدر النبوة ومنبع النبوة، وهذا الكمال ليس في الأنبياء الآخرين. ولذلك فآثاره الخاصة أيضاً ليست في الأنبياء الآخرين، لأنهم ليسوا خاتماً.

شمس النبوة مصدر الفيض للأولين والآخرين جميعاً

ومن الظاهر أنه إذا كانت نبوات الأنبياء مأخوذة من نبوته ومترباة بها، فالولاية والإمامة بطريق الأولى تكونان فيض ختم النبوة. ولذلك فهو منبع النبوات ومنبع الولايات أيضاً. فالأنبياء السابقون والأولياء اللاحقون، كلهم أخذوا النور من هذه الشمس الواحدة. وإن كان ثمة فرق فهو فقط أن الأولين وصلهم هذا النور منه بصورة النبوة، والآخرين بصورة الولاية. فالأنبياء للأمم مستفيدون منه، وأولياء الأمة أيضاً مستجدون على بابه. والنور العامل في الجميع هو نور شمس النبوة الواحدة هذه.

إلا أن هذا التفاوت موجود لا محالة: إذا وضعت المرآة أمام الشمس فإنها تلمع، لكن هذا اللمعان والبريق لا يبقيان إلا ما دامت المرآة حاضرة أمام الشمس. فإذا صرفت المرآة وجهها أو وضع عليها حجاب، انتهى لمعان المرآة وبريقها في تلك اللحظة. أما إذا ملئت بطارية بأشعة الشمس المنيرة، فامتصت نور أشعة الشمس وحرارتها كليهما، فإن الشمس وإن احتجبت، تبقى البطارية تعمل عملها، سواء استعملت للإضاءة أو لإلقاء الحرارة. فالمثال الأول لأولياء الأمة، والثاني للأنبياء عليهم السلام.

فنبوة الأنبياء عليهم السلام تابعة لخاتم النبيين في حدوثها، لكنها مستقلة في بقائها. أما ولاية أولياء الأمة فهي محتاجة إلى شمس النبوة ومستجدية لها في الحدوث والبقاء كليهما. ولذلك فإن نبوات الأنبياء السابقين، وإن كانت من جهة ظلاً محضاً للشمس، فإن لها من جهة أخرى نوع استقلال. لكن ولاية الأولياء تابعة محضة في الحدوث والبقاء، ولا يمكن أن تبقى بدرجة ما إذا ابتعدت عن شمس النبوة.

فتأمل الآن، في ضوء هذا التمثيل، هذه الخريطة الجامعة المحيطة بوظائف خاتم النبيين وهدايته: ماذا خدمت العالم حين طلعت فيه، وكيف أخذت هذه الدنيا الدنية الظلمانية وأوقفتها على أعلى جزء من السطح النوراني، حتى صار كل قوم مضطرين إلى الاقتباس من نوره؟ ولما كانت المراتب التدريجية لهذه النورانية تبدأ من الولادة المباركة لخاتم النبيين، فانظر في هذا التشبيه البليغ، تشبيه السراج المنير، إلى خريطة الولادة والبعثة وأعمال البعثة.

◎

أعمال الشمس المنيرة للعالم
وبها
إيضاح مقامات النبوة

الخلقة والولادة

طبيعياً، أول ما يكون في شأن الشمس هو وجودها وخلقتها، وبذلك يتيسر لها إكمال المقاصد المتعلقة بها. فلو لم تخلق، لما كان للضياء والنور وجود في العالم، ولما عرف أحد الدنيا. فكأنها لو لم تأت، لما عرفت هي نفسها فقط، بل لما عرف شيء من أشياء الدنيا.

وكذلك تماماً في شأن هذه الشمس الروحانية، أي شمس النبوة، يكون أولاً ميلاد الحضور ومجيئه إلى هذا العالم الناسوتي. ونحن نسمي ذلك اصطلاحاً الولادة السعيدة أو المولد الشريف. فلو لم يتشرف بالمجيء إلى الدنيا، لما كان الأمر أنه لا يعرف هو فحسب، بل لما عرف شيء من العالم من حيث غرضه وغايته. لو لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم لما كان شيء.

فالمرتبة التي تسمى في الشمس العلوية خلقة هي التي سميناها في الشمس الروحانية ولادة. ولا نجد في القرآن الحكيم ذكراً صريحاً لهذه الولادة الجسمانية في موضع ما، والظاهر أن ذلك لأن هذه الولادة لم تكن مقصودة بذاتها، بل المقصود منها ولادة النبوة والرسالة. ومع ذلك لم يترك القرآن هذا الجانب بالكلية، بل ذكره كناية وضمناً. قال الرب:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ).

ومن الظاهر أن العمر يتعلق من ابتداء الولادة إلى آخر ساعات الوفاة. ولذلك يدخل في هذا الضمن ذكر الولادة الشريفة أيضاً، لكن على وجه ضمني فقط؛ لأن الحياة المادية ليست مقصودة بذاتها، بل المقصود منها الحياة الروحانية. ولذلك إذا اكتملت الحياة الروحانية لأحد بقدر سعته، أنهيت حياته الجسمانية. ولو كانت مقصودة بذاتها لما أنهيت، كما أن الحياة الروحانية لا تنتهي أبداً. فبهذا التشبيه تدخل هذه المرتبة أيضاً تحت «سراجاً منيراً» وتصير من مدلول السراج المنير.

الطلوع والبعثة

وبعد الوجود، المرتبة الثانية في الشمس هي الظهور، أن تطلع حتى يحصل للعالم فرصة أخذ النور الذي من أجله أضيئت في السماوات. وكذلك تماماً بعد الولادة السعيدة لهذه الشمس الروحانية، أي شمس النبوة، يكون ظهورها، أي مجيئه أمام العالم بصفة النبي. وبه صار لقبه بدل محمد بن عبد الله: محمد رسول الله، فكأنها ولادة ثانية للحضور، وقعت بعد الولادة الجسمانية بأربعين سنة.

فهذه الولادة، أو هذا الظهور الثاني، هو منبع جميع السعادات والكمالات. وفي اصطلاح الشريعة اسم هذا الظهور هو البعثة. فالمرتبة التي تسمى في الشمس المادية طلوعاً تسمى في الشمس الروحانية بعثة. ولما كان المقصود الأصلي من الولادة الشريفة هو البعثة، ونشر نبوته ورسالته في العالم، ذكر القرآن الحكيم ذلك صراحة ومراراً، وبغاية الإحسان والمنة والتأكيد. قال الرب:

(لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

النداء والدعوة

وبعد الطلوع، الخصوصية التي تظهر أولاً في الشمس هي أنها تطلع بوجهها نحو سائر الكائنات. أي إنها لا تأتي معرضة ومدبرة وغير ملتفتة، بل تأتي موجهة وجهها الجميل إلى الأمام. فلو لم تتوجه إلى الكائنات، بل بقي وجهها أمام خالقها ومالكها فقط، ولم يكن لها شأن بالمخلوق، لما كان في العالم هذا النوع من النور الموجود.

فإظهار الشمس وجهها وتوجهها نحو سائر الكائنات هو منها بمنزلة النداء: يا عطاشى النور، قد جئت بالنور، وعليكم أن تحصلوا النور. فمن احتاج إلى النور فليأت أمامي منفتحاً، وليصل نفسه بي، فأضيئه بقدر تعلقه. ثم مع إعطاء غاية السعة والفسحة في هذا التعلق، يكون نداؤها بلسان الحال أيضاً: ———— نعم، يا طالبي النور، ليست صورة أخذ النور أن تحدقوا في ذاتي، لأن كل أحد لا يستطيع أن يملأ عينه من ذاتي؛ فذاتي فوق هذه الأبصار الضعيفة، وهي حاملة لأعلى قوة النور وشدته، ولا تثبت عليها العيون أبداً، وإن ثبتت لم تبق. ولذلك فطريقة أخذ النور مني إنما هي أن تأتوا تحت أشعتي من غير مقابلة عيني ولا مقابلة خصوصياتي النورانية، فتحصلوا بذلك على أشد نور قابل للتحمل، ويحصل الاتصال بذاتي أيضاً، لأن الأشعة ممثلة لذاتي نفسها. لكن من لا يستطيع احتمال الأشعة فليأت في ضوئي المنتشر تحت الأشعة في كل ناحية. فمن خرج من بيته ودخل في دائرته ———— استنار كله، وحصل له أيضاً النور والتعلق بي، لأن هذا الضوء أيضاً لي، وليس منقطعاً عني ولا منفصلاً. ومن لا يطيق الضوء أيضاً، ولا يستطيع أن يترك الغرفة المغلقة ويأتي إلى الصحن المفتوح، فمع ضوئي بهائي أيضاً، وهو لمعاني وبريقي. فليفتح على الأقل أبواب البيت وهو داخله، فيصل لمعاني إلى الداخل، ويحصل له النور من اللمعان، وإن كان هذا النور خفيفاً ضعيفاً، لكنه مع ذلك ———— لا يكون منقطعاً عني، لأن هذا اللمعان أيضاً فيضي. أما من بقي منفصلاً عن الأشعة، ولم يأت في الضوء، ولم يفتح باب البيت للمعان، بل دخل سرداباً أعمى، ووقع منكباً على وجهه، ثم أغلق عينيه، ومع ذلك شد العصابة عليهما، فكأنه ليس طالباً للنور فحسب، بل له عداوة وبغض للنور أيضاً؛ فلا صورة لاستنارته. سيبقى محروماً من النور أبداً، وإن كان إلى حد ما، بغير إرادته بل خلاف رضاه، يعلم على مستوى العلم والشعور فقط أن الوقت نهار لا ليل، وأن الشمس طالعة لا مختفية. لكن هذا العلم لا ينفعه ولا ينيره، بحيث تدخل في بدنه آثار نوري وحرارتي الصحية، وتنهض حياته الطبيعية بها. ففي هذه الصورة يفقد صحته وقوته كلها، وتنتهي حياته انتهاء دائماً، وذلك هو الخسران كله والخسارة كلها من كل وجه.

وكذلك تماماً، فإن أول خصوصية تظهر في شمس النبوة بعد طلوعها من قمم فاران هي أن هذه الشمس المباركة لم تطلع أمام الخلق معرضة عنهم، بحيث يكون وجهها الجميل أمام الخالق فقط، وتبقى في الخلوة مستغرقة دائماً في ذكر الله وحده. بل مع التوجه إلى الله كان لها التوجه الكامل إلى الخلق أيضاً، وكان وجه النبوة الجميل كله متوجهاً إلى خلق الله أيضاً:

من تلك الجهة واصل بالله،
. ومن هذه الجهة داخل في الخلق

ومعنى إقبال النبوة بوجهها أنه نادى المصابين بالظلمات الروحانية ودعاهم: يا طالبي نور الروحانية والسعادة، قد جئت بذلك النور الكامل للروحانية الذي كانت الدنيا تنتظره منذ مدة. فمن احتاج إلى النور فليأت أمامي بقلب منفتح، وليتقدم بروح الاتباع والطاعة، أريه سبل السلام .وأخرجه من الظلمات إلى الأجواء النورانية

قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ(.)الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

تقديم النور من جهة شمس النبوة لا تقديم الذات

لكن هذه الشمس النبوية أعلمت أيضاً أن طريقة تحصيل النور ليست أن يبدأ الناس بالنظر إلى الحياة الذاتية للنبي وخصوصيات النبي، فإن هذه الحياة، لارتباطها بمقامات النبوة، رفيعة عالية جداً، لا يستطيع أحد أن ينظر إليها بملء عينه. ومن تجرأ على ذلك كلت العقول والبصائر، .وذهب بصر العين الباطنة

ولهذا منع من اتباع خصوصيات النبوة، إذ لا تتحملها إلا قوة النبوة. كما في رواية أبي قتادة، أن رجلاً سأل الحضور: كيف تصوم؟ فغضب، لأن التطلع إلى اتباع أفعال النبي الخاصة وأسلوبه الخاص دعوى فوق الطاقة والتقدير، وهي سوء أدب وحرمان أيضاً. فلما سأل الفاروق الأعظم: .يا رسول الله، أي الصوم أفضل؟ سكن غضبه وأعطى الجواب

وكذلك صوم الوصال، فقد كان يصوم متتابعاً بلا إفطار، ولم يأذن لغيره بذلك، ومنعهم عن هذا .«التطلع بقوله: «أيكم مثلي؟

وفي صلاة النافلة قاعداً قيل إن الأجر يصير نصفاً. لكن عبد الله بن عمر رآه يصلي قاعداً، فقال: يا رسول الله، كنت تقول إن الأجر في ذلك نصف، فلم تصل قاعداً؟ فقال: «إني لست كأحد .«منكم

وكان التهجد فرضاً عليه، لكن ليس لغيره قوة أن يقوم به على وجه الفرضية، فمنعوا من فرضيته. وكان يؤدي كل يوم خمسين صلاة على وجه الفرض، وهي التي فرضت أولاً في المعراج ثم خففت إلى خمس فقط. أما غيره فكان محالاً عادة أن يداوموا على هذه العزيمة، فلم .يفرض عليهم هذا الفرض، بل أسقط عنهم

وكان على خلقه العظيم شاقاً أن يترك العفو والتجاوز وينتقم، ولم ينتقم لنفسه من أحد طول عمره. وأين لغيره القدرة على إظهار هذا التجرد والاستقامة؟ لذلك أذن لهم في الانتقام. وكان يستطيع أن تكون له تسع أزواج مطهرات، ويعدل بينهن عدلاً كاملاً. وهذا متعذر لغيره، إذ إنهم غالباً يصعب

عليهم العدل حتى بين اثنتين، فمنعوا من هذا العدد. ولم يكن يبقى في بيته ذرة من ذهب ولا فضة. وهذا محال على غيره، فوسعت الأمة في ذلك بأن يبقوا في البيوت ما بقي من المال بعد الحقوق المالية من الزكاة والصدقات وغيرها.

وبالجملة، فهذه وكثير من خصوصيات النبي أمثالها فوق حياة الفرد من الأمة، ولم يكن لأحد طاقة الاقتداء بها. ولم يقتد الصحابة أيضاً بهذه الحياة الذاتية، فضلاً عن الأولياء. ولذلك أبقيت ذات شمس النبوة وخصوصيات حياتها الذاتية عالية، وجعل النور المتصفى منها، أي قانون الشريعة، هادياً للعالم. ووضعت فيه السعات والرخص مراعاة لعامة الخلق، وجعل أيسر، حتى ينتفع به العامة والخاصة على السواء. فهذه الشريعة هي نور النبوة، لكن بصورة القانون العام، لا بصورة الحياة الذاتية.

وعلى كل حال، أعلنت شمس النبوة أولاً مجيئها ومقصد مجيئها، ودعت إلى ذلك المقصد دعوة إجمالية ونادت:

قال للجميع: يا آل غالب،
أتعدونني صادقاً أم كاذباً؟

قالوا جميعاً: إلى اليوم
ما سمعنا ولا رأينا لك قولاً كاذباً.

قال: فإن كنتم تعدونني كذلك،
أتصدقونني إن قلت

إن جيشاً عظيماً خلف جبل الصفا
قد ترصد لينهبكم إذا ظفر بكم؟

قالوا: كل كلامك هنا مصدق،
فأنت منذ الصغر صادق وأمين.

قال: إن كان كلامي هذا مستقراً في القلوب،
فاسمعوا، لا خلاف فيه أصلاً:

إن القافلة كلها راحلة من هنا،
فاتقوا ما هو آت.

أكان ذلك قصف برق أم صوت هادٍ،
هز أرض العرب كلها؟

ألقى في قلوب الجميع شغفاً جديداً،
. وأيقظ بصوت واحد البلدة النائمة

وانتشر الصياح في كل جانب: هذا هو بلاغ الحق،
. حتى دوت الصحارى والجبال باسم الحق

.)وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا(

فهذه الدعوة كانت نداء شمس النبوة، الذي يكون في الشمس المادية بلسان الحال في صورة إظهار الوجه، وكان في هذه الشمس الروحانية بلسان الحال في صورة التوجه؛ لأن ذاك نداء تكويني، وهذا نداء تشريعي.

تقسيم المستيقظين والمخمورين

فكما أن الناس، بنداء الشمس المادية العالي وبظل وجهها المشرق، يستيقظون فجأة مضطربين، ويجلسون ويفتحون أعينهم في الحيرة الأولى وهم يفركونها، ثم إن الذين تعز عليهم مقاصد الحياة يقومون وينشغلون بأعمال معاشهم، وأما الذين يعز عليهم النوم فقط فتثقل عليهم رؤية الشمس، فيجعلون الغطاء على وجوههم وينامون نوماً أعمق؛ كذلك تماماً، لما سمع السامعون هذا النداء الهادي والدعوة إلى الله من الشمس الروحانية، بقوا متحيرين. ثم فهم بعضهم فتركوا نوم الغفلة وركضوا في هذا النور الروحاني إلى مقاصدهم الروحانية، وبدأوا البحث عنه والطلب له. وأما الذين عز عليهم التعصب والقساوة، فرأوا هذا النور ثقيلاً مهلكاً في حقهم، فصاروا أكثر غفلة وإعراضاً من قبل، واشتغلوا بمقاومة هذا النور نفسه.

.)فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ(

وعلى كل حال، بعد إظهار الشمس وجهها وندائها، جاء وقت أن تعمل الشمس عملها، وتعطي الدنيا ما جاءت به. فافهم الآن في ضوء هذا التشبيه البليغ المقاصد الأربعة لطلوع شمس النبوة.

التنوير والتعليم

كما أن أعظم عمل وأهمه بعد توجه الشمس المادية أو ندائها هو التنوير، أي إعطاء النور للعالم، وبنوره يميز الناس بين السواد والبياض، ويعرفون الأشياء، وتبدأ مشاغل حياتهم في العمل، ولا تبقى الدنيا مقبرة للنائمين، بل تبدو عالم أناس مستيقظين متحركين أحياء. وهذه الحياة لا تكون بغير الضياء. ولذلك علّق القرآن إكمال معاش الحياة بنور الشمس والنهار: (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)، وهذا ما نسميه التنوير.

كذلك بعد دعوة الشمس الروحانية وندائها، أعظم عمل للنبوة وأهمه هو إيصال نور العلم الإلهي؛ فبدونه لا يمكن التمييز بين الحق والباطل، ولا يمكن أن تقوم أسس الحياة الروحانية، ولا أن

تصنع حياة المعاد. وهذا في اصطلاح الشريعة يسمى تعليماً. ولذلك قال: «إنما بعثت معلماً». وهذا هو قوله: «أنا قاسم والله يعطي». وهذا هو قول القرآن: (وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ).

فكما أن الشمس المادية تظهر جمالها الجسمي فتضيء الأرض والزمان، كذلك الشمس الروحانية، أي شمس النبوة، تظهر جمالها النبوي فتضيء الكون والمكان. تلك تظهر وجهها المادي، وهو الجمال الظاهري؛ والأنبياء يظهرون جمال نبوتهم، وهو جمالهم الحقيقي، وحقيقته العلم؛ لأن هذا هو الأصل الأصلي للنبوة، فإن النبوة تتكون بالوحي الإلهي، والوحي هو إنزال العلم على قلب النبي. فالنبوة في الحقيقة ورود العلم الإلهي، وإيصال هذا العلم إلى الآخرين هو التعليم. ولذلك فالمرتبة التي تسمى في شأن الشمس المادية تنويراً، أي إيصال النور، تسمى في شأن الشمس الروحانية تعليماً، أي إيصال الوحي الإلهي والعلم.

التأثير والتربية

ثم إن الشمس المادية لا توصل النور فقط، الذي يقع على أبدان أجزاء الكائنات ووجوهها وبشرها، فتستنير سطوح الأجسام الظاهرة؛ بل مع النور تلقي على الكائنات حرارة ودفئاً أيضاً، يدخلان في الأبدان وينفذان فيها، وينضجان الخام، ويزيلان العفونة من بواطن الأشياء، ويجففان النجاسات فيطهرانها. ولو لم تنفذ الشمس الحرارة، ولم تدخل بسخونتها وحرارتها حتى في أمزجة الأشياء، لاستنارت الصور، لكن بقيت الأمزجة فاسدة، ولم تصلح، وبقيت رطبة فصارت إلى الفناء. ولذلك توصل الحرارة إلى الباطن مع إضاءة الظاهر، حتى تتولد الحرارة الغريزية في الأمزجة ويبقى ظهور الحياة قائماً.

وبإيصال هذه الحرارة تنفذ الحرارة حتى في الأمزجة الرطبة إلى درجة أن الأمراض الباردة تنتهي بالكلية. ومرضى البرد يصيرون في الصيف حارين، مع أن الأبواب والجدران هي نفسها التي كانت من قبل. والفرق أن الشمس تتيح لحرارتها أن تنفذ حتى إلى داخل المزاج، وتزيدها في هذا الموسم فتصل بها إلى أعماق الطبائع قدر الإمكان، وهو ما لا تفعله في الشتاء. نعم، من لا يملكون خلقةً اعتدال المزاج أو قوة التحمل، قد تحدث في أمزجتهم أحياناً ضجرة من شدة الحرارة في الصيف. وهذا عيب مزاجهم لا عيب الشمس. لكن الصحة غالباً تتحسن في الصيف، لأن حرارة الشمس تدخل إلى الداخل وتخرج بالعرق الفضلات الرديئة والرطوبات الفاسدة، فيصير البدن نظيفاً منقى.

وكذلك تماماً، فشمس النبوة كما تلقي نور العلم على الناس فتصلح ظواهرهم، كذلك حرارتها الأخلاقية ودفء العشق الإلهي يدخلان في القلوب فيدفئان الأرواح، ويجعلان المزاج الروحاني، أي الفطرة، صحيحاً. وتحرق وسخ الفضلات الفاسدة من الكسل والفتور، والكبر والنخوة، وجميع الأقذار الأخلاقية، وتجعل القلب طاهراً صافياً. وبذلك ترجع الصحة الروحانية وتصير نامية. وتظهر في النفس أخلاق الكرام: الصبر والشكر، والحياء والسخاء، والشجاعة والمروءة، والغيرة والحمية، والحلم والإنابة، والرضا والتسليم، والزهد والقناعة، والورع والإيثار، وغيرها من

الخصال الطاهرة، فتجلوها. وتشتعل في الأمزجة حرارة العشق الإلهي ونار المحبة النبوية، فتصفو النفوس وتتزكى.

فما نسميه في شأن الشمس المادية تأثيراً، نسميه في شأن الشمس الروحانية تزكية وتربية. فكما يصل تأثير الشمس المادية إلى بواطن الأجسام فيسخنها، كذلك يصل التأثير الأخلاقي للشمس الروحانية إلى الأرواح فيجعلها حارة جارية في عشق الله. وثمرته أن تتولد الأخلاق الربانية في النفوس الإنسانية. تصقل القلوب، وتشف الأرواح، ويسهل المجاهدة والرياضة والجهاد في سبيل الله.

وهذا ما قاله الحضور:

«بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وعلى كل حال، فمثل تعليم شمس النبوة وتربيتها هو تنوير الشمس المادية وتأثيرها، ومثل علمه وخلقه هو نور الشمس وحرارتها. فكما أن أثر الشمس هو النور والحرارة: بالنور يظهر الطريق، وبالحرارة تنهض قوى السير في الطريق؛ فكأن أسباب نهوض قوة العلم وقوة العمل عند الإنسان كليهما تتهيأ، وهما تعملان في الدنيا المادية. وكذلك أثر شمس النبوة هو نهوض قوى العلم والأخلاق، وبذلك تنهض في الإنسان قوى العلم والمعرفة والهمة والقوة.

فإن أول هدية يعطيها الأنبياء للسعداء هي الإيمان، وحقيقة الإيمان أن جزأه الأول المعرفة، وبها يعرف طريق الحق، وجزأه الثاني المحبة، وبها يتولد داعي الانقياد. بالأولى تقوى قوة العلم، وبالثانية تستحكم قوة العمل. وهاتان القوتان هما القوتان الخاصتان للأنبياء، ولإعطائهما يأتون إلى الدنيا. وقد أشار القرآن الحكيم إلى هاتين القوتين:

)وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ(.

وقد فسر ابن عباس رضي الله عنه «أولي الأيدي» بأولي القوة في العبادة، وفسر «أولي الأبصار» بأولي الفقه في الدين. وهاتان هما القوتان اللتان عبر عنهما بالقوة العلمية والقوة العملية. وقال في موضع آخر:

)وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ(.

ففي الصبر إشارة إلى القوة العملية، لأن العمل هو كف النفس عن الشهوات وتثبيتها على الطاعات. وفي الإيقان إشارة إلى القوة العلمية، لأن العلم يتولد من اليقين، كما يتولد الجهل من الشك والتردد. فإذا أوصل العلم من هاتين القوتين إلى الآخرين سمي ذلك تعليماً، وإذا أوصل العمل سمي تربية. ولذلك يكون مثل تعليم شمس النبوة وتربيتها تنوير الشمس وتأثيرها، وبهما يثبت هذان المقامان الأساسيان من مقامات النبوة أيضاً بتشبيه السراج المنير، ويصيران مدلول هذه الآية القرآنية.

الأوضاع والسنن

ثم كما أن نورانية الشمس المادية، والتأثير في الكائنات بذلك النور، وتربيتها، ليست لها هيئة واحدة فقط، بل إنها بحركتها وانتقالها على الفلك تقيم دائماً أوضاعها وأطوارها المختلفة وهيئاتها المتعددة، وتتأثر الدنيا بآثارها المختلفة فتتم كمالها المادي. فتارة طلوع وتارة غروب، وتارة عروج وتارة نزول، وتارة استواء وتارة انحطاط، وتارة حركة مائلة وتارة حركة مستقيمة. ثم في كل حركة من هذه الحركات يختلف النور، ويختلف التأثير أيضاً. ففي وقت الطلوع يكون الضوء والحرارة خفيفين، ولا يكونان في كل مكان. وفي وقت الاستواء تكون شدة الضوء والحرارة، وتصل إلى كل مكان.

وبعد الزوال، في الطرف الثالث من النهار، لا تبقى تلك الشدة، وعند الغروب تصير في غاية الخفة. وبالجملة، فمسير الشمس والأوضاع والأطوار المتولدة من مسيرها ليست نموذجاً واحداً وطريقة واحدة، بل هي مئات من الطرق ونماذج متحركة متعددة، تأخذ منها الدنيا أثراً من نوع مختلف. فمن وضعها الأول، أي هيئة الطلوع، يحدث في الطبائع نهوض واستعداد. ومن صعودها تأتي القوة في الهمم والأفعال. ومن استوائها تحدث حرارة وشدة في الأمزجة. ومن ميلها تحدث في الأمزجة دواعي السكون وأخذ الراحة. ومن غروبها تحدث التعب والكلال وميول النوم المريح. ومن اجتماع هذه الأمور كلها تتكون الحياة الإنسانية، ويأتي النضج في مزاجها، وهو ما يسمى تكمل الإنسانية.

وكذلك تماماً، فإن نماذج تعليم الشمس الروحانية ومقاماتها وتربيتها إنما تكون من سيرها الروحاني نفسه، وقد وقعت تأثيراتها بأنحاء مختلفة على الأمزجة الروحانية للأمة، وقد عرضتها شمس النبوة عملاً على هيئاتها الخاصة. فلما طلعت شمس النبوة ثم ارتفعت، كان نورها خفيفاً وحرارتها ضعيفة، وكان ذلك ملائماً. فهذا هو نموذج عدم الشدة والصبر، وفيه صيغت الأمزجة الروحانية على الهدوء والخفة. لم يكن إذن بالقتال ولا شدة ولا غلظة في القول. وكانت هذه حياة مكة، وكانت جمالية.

ثم ارتفعت شمس النبوة أكثر، وازدادت الحدة، فهاجت الغيرة الروحانية في الأمزجة، وعرض نموذج الهجرة. وفيه ترك الإعراض السابق والمجانبة السابقة. وكانت هذه الحياة الوسطى، بل اتخذت سياسة الاعتزال عن أعداء الحق والانفراد عنهم. ثم بلغت الاستواء، وبلغت شدة النور والحرارة منتهاها، فودع الانفراد، وعرض نموذج الجهاد والقتال. وكانت هذه حياة المدينة، وكانت جلالية. وفيها عرضت نماذج القوة والشدة.

ولما قربت من الغروب وتمت الشوكة، عرضت نماذج عملية للاجتماع، والوعظ، والتعليم، والتنظيم، والتلقين العام، ونظام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فلما غربت حدث في القلوب فجأة تحير وكلال. يقول بعض الصحابة: ما كنا نضع التراب على الحضور حتى أحسسنا نكارة في قلوبنا. وأحس بعضهم بالظلمة. واستولت على بعضهم حالة الدهشة، كما وقع لعثمان غني، حتى لم يدر من سلم عليه، وأن عليه رد السلام. ولم يستطع الفاروق الأعظم، بغلبة المحبة، أن

يضع أمامه أن الوفاة قد وقعت. وترسخ في أذهان بعض الصحابة أن الحضور أيضاً رفع إلى السماء مثل حضرة المسيح عليه السلام. ولم يكن ذلك إلا لغلبة الحال وغلبة الحيرة والحسرة. وبالجملة، كانت هذه آثار الكلال والتعب القلبي، وبها بين ما كانت آثار شمس النبوة، وهي اليوم لا تبقى أمامنا بلا واسطة.

لكن في هذا الشأن أعانت إرشادات شمس النبوة التي كانت قد أعطيت للصحابة لمثل هذه المواطن. وعملت همة الصديق الأكبر رضي الله عنه القلبية وتصرفه الباطني. وبذلك تماسك الصحابة، وأجروا عمل النبوة مرة أخرى بالقوة نفسها. ففي هذا الموطن أيضاً ظهر شأن من شؤون شمس النبوة: ماذا ينبغي أن يفعل في مثل هذا الوقت المكثر للمصائب؟

ثم في الحياة العروجية والنزولية بين هذا الطلوع والغروب، ظلت آلاف الدرجات العملية المختلفة من الجلال والجمال تظهر أمام الأمة. فتارة عرض نموذج بذل النفس وتحويل ميدان الجهاد إلى روضة زهور. وتارة عرض نموذج ترك الميدان وعمارة زاوية المسجد بالاعتكاف والذكر والتسبيح والصلاة. وتارة عرض نماذج كسر النفس بشهور من الفقر والجوع. وتارة، لبيان كون اللذات الجائزة جائزة، عرض أحياناً نماذج استعمال بعض اللذات والأكل والشرب والانتفاع ببعض الألبسة الحسنة. وتارة، بدافع الشفقة على الخلق، عرض نموذج إعلان محبة الأولاد، الحسنين، ومحبة الزوجة الطاهرة، الصديقة عائشة، ومحبة الصديق الصادق، الصديق الأكبر. وتارة، بدافع التوجه إلى الله، عرض نماذج الاستغناء عن الخلق بقوله: لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر، ولكن خليلي الله وحده.

وتارة صار رحمة مجسمة، فأظهر نموذج التبشير، أن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، ولا تيأسوا أبداً من رحمة الله، فإن ذلك فعل الكفار والمنكرين. وتارة صار غضباً مجسماً، فعرض نموذج التخويف والتهديد بعذاب الله، أنه لو بقي في قلب أحد مثقال ذرة من كبر لم يجد ريح الجنة. وتارة أظهر نموذج التشجيع بقوله: بعثت مرحمة. وتارة عرض نموذج التخويف والتهديد والإنذار بقوله: بعثت ملحمة. وتارة هدد بحرق البيوت على ترك الجماعة. وتارة، لما ابتلت النعال بالمطر، أذن بالصلاة في تلك البيوت نفسها. وتارة قال: أنا الضحوك، فواسى القلوب. وتارة قال: أنا القتال، فأخاف القلوب الجريئة.

وبالجملة، أقام أسوة حسنة جامعة جداً، بإظهار الأنوار الجلالية والجمالية للسنن المختلفة والنماذج الطاهرة المتفاوتة للعمل، والنماذج العملية المعتدلة الكاملة للشمس والقمر، والأساليب المؤثرة للديانة والسياسة، والأنحاء المحببة للصلح والحرب والبناء والدفاع. وقد نشأت هذه الأسوة من عروج هذه الشمس الروحانية ونزولها، ومن حركتها الروحانية، وفيها آلاف من الأوضاع والأطوار الروحانية، وقد امتلأت بها كتب الشمائل.

وقد عرضت شمس النبوة هذه النماذج العملية للأحوال والمقامات مراعاة للتغيرات الطبيعية والطبقية في الأمة، حتى تتبعها الدنيا، وتمر ببرد هذه الأحوال وحرها، فتصل إلى مقام النضج. فالدرجة التي تكون في الشمس المادية لنماذج الأوضاع الفلكية المتنوعة، هي في شمس النبوة

درجة سنن النبوة وأوضاع الروحانية، أي الأسوة الحسنة. فقد أعلنت الشمس المادية، لإكمال المعاش، بلسان الحال نماذج العروج والنزول، وشدة النور وخفته، ونقصان الحرارة وزيادتها، حتى تسير الدنيا على مقتضيات هذه النماذج وتكمل ماديتها بالمرور بها. وهنا، لإكمال المعاد، عرضت الشمس الروحانية النماذج القولية والعملية لعروجها ونزولها الروحاني، ولشدتها وخفتها، ودعت الدنيا إلى الحياة على وفق هذه النماذج. فهناك البروج والمنازل الفلكية هي المقامات العملية للشمس المادية، وهنا الأحوال والمنازل الملكية هي المقامات العملية للشمس الروحانية. تلك هي الأسوة الحسنة التكوينية للشمس المادية، وهذه هي الأسوة الحسنة التشريعية للشمس الروحانية. وقد قال القرآن:

)لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً(.

وهذه هي الحكمة العملية التي ذكرها القرآن بعنوان تعليم الحكمة.

والآن، إذا أوجزت النماذج التعليمية والتربوية والحكومية التي تصدر عن هاتين الشمسين، المادية والروحانية، بالألفاظ الاصطلاحية، خرج في خلاصتها أربعة أمور، هي كأنها فرائض هاتين الشمسين. غير أن هذه الفرائض على الشمس المادية بأسلوب تكويني، وعلى الشمس الروحانية بأسلوب تشريعي.

خذ الشمس المادية، فقد فرضت عليها تكويناً أربعة فرائض.

الأول: التوجه، أي أن تطلع في منظر العموم، وتظهر وجهها المشرق، كأنها تنادي بلسان الحال: قد جئت بالنور، حتى ينتبه طالبو النور.

الثاني: التنوير، أي أن توصل النور إلى غيرها بوجهها المشرق فتجعلهم منورين، حتى يظهر الشيء متميزاً من الشيء.

الثالث: التأثير، أي أن تسخن غيرها بخصائصها وآثارها من حرارة وحمية وحرقة، وتملأها بالحرارة، حتى يصير كل شيء قابلاً للحركة والاضطراب بحياة الحرارة الغريزية، ويستطيع أن يقطع منازل الحياة عملاً.

الرابع: التأسي، أي أن تصنع بحركتها وانتقالها مقامات وأوضاعاً مختلفة، وتري الدنيا نماذج قطع درجات الحياة، وتكون أسوة حسنة، حتى يفهم الناس ذلك فطرة وهم يمرون بها، ويقطعوا منازل تكمل الإنسانية.

وكذلك تماماً، فإن تشريع الله خلق الشمس الروحانية، أي الذات النبوية المباركة، وفرض عليها أيضاً أربعة فرائض.

التلاوة

الأول: التوجه، أي أن تصل إلى منظر العموم وتقدم جمال النبوة. وجمال العلم أو صورته الطاهرة هو ألفاظه. ولذلك فإن قراءة ألفاظ العلم الإلهي والوحي الرباني وإسماعها هي بلا شك جمال العلم وجمال النبوة، وهذا يسمى في اصطلاح القرآن تلاوة.

التعليم

الثاني: التنوير، أي الإيصال من صورة العلم الإلهي إلى حقيقته الباطنة، واسمها العلم والمعنى؛ أي بيان مطالب الألفاظ ومراداتها. وهذا بلا شك كمال النبوة، ويسمى في اصطلاح القرآن تعليماً.

التزكية

الثالث: التأثير، أي تسخين قلوب الطالبين بالحرارة الأخلاقية لقلبه وبحرقة العشق، وتسخين القلوب بحرارة قلب النبوة، وتصفيتها وجلاؤها، وذلك لا يكون بغير رياضة ومجاهدة. وهذا يسمى بلغة القرآن تزكية.

الأسوة الحسنة

الرابع: التأسي، أي عرض النماذج لعمل الطالبين وإقامة الأسوة الحسنة، حتى تسير الدنيا على هذه الأوضاع والأطوار وتصل إلى منزل المقصود من الحياة، ولا تضطر إلى اختراع نماذج عملية بنفسها؛ فإن الدنيا لا يمكن أن تبلغ حد الكمال بالسير على نماذج مخترعة وناقصة من عندها، بل تبقى، بدل الكمال، واقعة في النقصان والخسران. وهذا يسمى في اصطلاح القرآن حكمة.

وهذه هي فرائض النبوة الأربعة التي جعلها القرآن الكريم غرض البعثة النبوية وغايتها، فقال:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

فكما أن غرض الشمس المادية وغايتها يتمان بالتوجه والتنوير والتأثير والتأسي، كذلك تتم غاية بعثة الشمس الروحانية وغرضها بالتلاوة والتعليم والتزكية والأسوة الحسنة. ولما كانت المقامات الأربعة في الشمس المادية آية عظيمة من قانون التكوين، وهي تشبيهاً ونظيراً للمقامات الروحانية الأربعة المذكورة، فإن مقامات النبوة الأربعة هذه تصير تحت تشبيه «سراجاً منيراً» مدلول هذه الآية ومصداقها. أي إن هذه الفرائض الأربعة للإثبات، وهذه الأركان الأساسية للسيرة النبوية، تثبت من القرآن من طريق هذا التشبيه بلفظ السراج المنير. ولذلك قدمنا في سياق هذا التشبيه هذه الأمور الأربعة على التشبيهات الأخرى؛ لأنها الغرض والغاية الأساسية لوجود شمس النبوة، والمقاصد الأولى لظهورها.

مراتب الاستفادة من شمس النبوة

ثم من تمثيل الشمس هذا تنكشف أيضاً درجات ومراتب متفاوتة لاستفادة الأمة واستنارتها من تأثير شمس النبوة وتربيتها وتعليمها وتمرينها، ومعيار ذلك القرب من الشمس والبعد عنها. أي إن من كان أقرب منها كان أكثر نورانية وتأثراً، ومن كان أبعد من الشمس كان أقل استفادة من فيضها.

درجة الصحبة

فمثلاً، بعد طلوع الشمس، أكثر شيء يتأثر بآثار الشمس وأوله هو الفضاء. فهو لأنه شفاف في ذاته خلقة، ومن جهة أخرى حاضر أمام الشمس بلا واسطة، يأخذ أثر نورها وحرارتها أولاً وأكثر. ويستنير إلى درجة أنه مع لمعانه لا يرى لمعانه نفسه للعيون، بل ترى ضوء الشمس وأشعتها. وإذا رفعت العين في الفضاء، فكل جزء من الفضاء يكون أمامها ترى الشمس منه. ولا ترى حقيقة الفضاء نفسها. فكأنه يستغرق ويفنى في نورها إلى درجة لا يقع نوره الخاص في عين أحد، بل تبدو الشمس منه كأنها ترى بلا واسطة، مع أن الفضاء، بسعته الشديدة، حائل في الوسط.

وكذلك تماماً حال الاستفادة من الشمس الروحانية. فالكل يتأثر بآثارها العالمية، لكن أكثر طبقة تتأثر هي الطبقة التي تقرب منها بلا واسطة وتأخذ النور، وهي طبقة الصحابة الكرام. فهي كالفَضاء، أعلى من الأرض، وأدنى من فلك الشمس، أي سماء النبوة. وهي كالفضاء شفافة في الخلقة، ذات استعداد كامل لا لإظهار نوره فقط، بل لإظهار عين الشمس. كما قال في الأحاديث إن أصحابي قد اختيروا من بين أصحاب جميع النبيين. وكما يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كانت قلوبهم شفافة، وكان علمهم عميقاً، ولم تكن فيهم تكلفات، وقد اختيروا من الأمة كلها لإقامة الدين، وآثار أقدامهم واجبة الاتباع، وغير ذلك. ومن ذلك تنكشف قابلية حضرات الصحابة الكاملة التي أعطيت لهم لامتصاص أنوار النبوة.

فهم من جهة الشفافية الفطرية وكمال القرب بمنزلة الفضاء، وهو شفاف، وهو أيضاً أقرب إلى الشمس من العالم كله، إذ يمتص نور الشمس بلا واسطة. فقد قبلوا بهذه الصدور الشفافة نور شمس النبوة وأثرها إلى درجة صاروا فيها، كالفضاء، نوراً من الرأس إلى القدم. وكما أن الفضاء، باتصاله بالشمس والتحاقه بها، يصير منوراً إلى درجة أنه لا يرى هو نفسه، أي لا يظهر نفسه، بل يظهر الشمس وأشعتها وبريقها فقط؛ كذلك جعل الصحابة، بسبب قابلياتهم الفطرية، طاهري القلوب، عميقي العلم، قليلي التكلف، خالين من الغش والدغل، إلى درجة أنه كأنه لم تبق فيهم أي خصوصية ذاتية لهم. صاروا نماذج مجسمة للسنن النبوية وحدها.

ولهذا ختم الحضور عقيدتهم وعملهم بعقيدته وعمله، وجعلهم معيار الحق، وأعلن أن سنن النبوة وسنن الصحابة شيء واحد. ومن ذلك يظهر أن الخصوصيات الدينية للصحابة كانت خصوصيات نبوية. ولذلك لما سئل الحضور عن فرق الأمة الاثنين والسبعين: أي فرقة من هذه الاثنين والسبعين هي الناجية؟ قال: «ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

فكأنه خلط عقيدتهم وعملهم بعقيدته وعمله على وجه ثبتت به وحدة نوع عقيدتهم وعملهم مع عقيدة الحضور وعمله. وجعل معيار حق الفرق وبطلانها ذاته المباركة وحضرات الصحابة.

الصحبة فوق النقد

ثم كما أن النجاسة لا تصل إلى الفضاء، وإن أوصلت إليه رجعت فسقطت على موصلها، ولا يتنجس الفضاء بها؛ كذلك طبقة حضرات الصحابة، وهي كالفضاء الروحاني، فوق انتقادات الأمة. فإن ألقت طبقة على شأنهم قذارة السب والشتم أو الوقاحة أو سوء الأدب أو الجسارة والجرأة أو تحقيرها النقدي، رجعت هذه النجاسة إليها هي. ولن يكون لها أثر في ذلك الفضاء الشفاف.

وعلى كل حال، فحضرات الصحابة كالفضاء القريب: لهم مناسبة مع الشمس في الشفافية أيضاً، وهم أقرب إلى شمس النبوة، وملتحقون بها بلا واسطة، وهم فوق كدورات الأرض، وهم فانون في نور شمس النبوة، حتى صاروا موضع عرض ذلك النور. ولم تبق فيهم خصوصية غير الانفعال وقبول الحق.

فنور هذه الحياة العليا جداً للصحابة شديد أيضاً، وهو أقرب إلى النبي وأشبه به أيضاً، لأنه قبل نور أشعتها متصلاً بحياة النبوة. ولذلك فهذه الحياة ليست حياة عزائم وحياة أولي عزم فقط، بأن يؤخذ أعلى جانب العمل بلا احتماء بالجائزات، ويودع طلب راحة النفس، وتجعل المجاهدة والرياضة العملية هي الحياة؛ بل هذه الحياة أيضاً جامعة للأضداد، حاملة لكمال الاعتدال: فمن جهة كسر النفس في الغاية، ومعه أدب الشريعة واتباع السنن النبوية في الغاية؛ ومن جهة قيام الدوافع الطبيعية، ومن جهة أخرى غلبة الدواعي العقلية والملكية.

وبهذا الكمال من الاعتدال والجامعية لم تنل أي طبقة من الأمة، من حيث الطبقة، هذه الحياة سوى الصحابة. قد يرى أفراد وآحاد حاملين لهذه الحياة، فيهم كل شيء سوى شرف الصحبة. أما أن تكون طبقة بأسرها مصبوغة بلون واحد، وقاطعة في كل وقت حد الكمال في الإخلاص والمعرفة، فلا يوجد غير طبقة الصحابة. فقد تركوا الديار والأهل، وأعرضوا عن شهوات النفس، وجعلوا رضا الحق وحده حياتهم، وضحوا بالمحبوبات الطبيعية للمطلوبات الشرعية، وهاجروا من وطن الطبيعة إلى وطن الشريعة فسكنوا فيه، واعتزلوا لأجل مرادات الشرع تحيلات النفس وطلبها الراحة، واستغرقوا بعزم صادق في كل وقت في اتباع مرضيات الله والسنن النبوية، وجعلوا ذلك حياتهم.

وأظهر جانب في هذه الحياة الجامعة الجامعة للأضداد وأعجبه أنهم كانوا تاركين للدنيا بالكلية، ومع ذلك منفصلين عن الرهبانية. كانوا في زحمة الدنيا وجاهها وجلالها، والمال والثروة، والحكومة والسياسة، والديار، والأرض والعقار، ومع ذلك كانوا بلا محاباة في أداء الحقوق. كانت المرأة والمال والأرض في تصرفهم، ومع ذلك كانوا قلباً غير متعلقين بهذه الأشياء كلها

ومعتزلين عنها. هم دراويش كاملون، والقباء الملكي يزينهم أيضاً. هم حكام، وخرقة المسكنة على أكتافهم أيضاً. يفتحون البلدان، وعادة الفقر باقية كما كانت.

من أنجز هذا الأمر: الكأس والسندان معاً؟

هذه هي حياة الأنبياء عليهم السلام: فهم بشر وملائكيون معاً. لا يتركون الطبائع، ولا ينحرفون شبراً عن مقتضيات العقل والفراسة. اتباع الدوافع الطبيعية الخالصة شأن الحيوان، أما إبقاء الطبائع على حالها، وأداؤها مع الشعور العقلي تحت تبعية العقل، وعدم تجاوز الحدود، فذلك شأن الإنسان. لكن بإطلاق الإنسان الكامل أظهر قدسه واصطفاؤه. ولذلك فالطبقة التي يكون هذا الاعتدال الكامل سارياً في أفعالها وخصائصها القومية وعقائدها وأحوالها وأقوالها كلها، هي الطبقة التي تسمى طبقة الإنسانية الكاملة. فهذا الكمال من حيث الطبقة يكون بالذات في الأنبياء، وبالعرض، من حيث الطبقة، في أصحابهم بعدهم. وبعدهم تنتهي الحيثية الطبقية، وتبقى الحيثية الفردية فقط، وهي أيضاً ليست من مقام هذه الطبقة التي فازت به.

فالصحابة في الحقيقة ظل كامل للنبوة، ومن طبقتهم تعرف النبوة وكمالات النبوة. ولذلك إن أعلنت طبقة بأسرها، من حيث إنها طبقة، مرضية ومحبوبة عند الله ورسوله، فهي طبقة الصحابة وحدها، وقد شهد بذلك القرآن والحديث.

)رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ(.

وقد ثبتت لهم وثيقة الرضا هذه في الكتاب السماوي إلى قيام القيامة. وفي موضع:

)أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(.

فبه شهد بطهارة قلوبهم. وفي موضع:

أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)،(
(فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً) .

وفي موضع:

)وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً(.

فبه ثبتت رفعة أخلاقهم. وفي موضع قال:

«أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم.»

فجعل كل فرد منهم مقتدى للأمة كلها، لا يكون في اتباعه ولا في حصول الهداية باتباعه أدنى تردد.

الطبقات اللاحقة: الأئمة والراسخون في العلم

فإذا مرت الأشعة من الفضاء ونزلت إلى الأسفل، وقعت على ميادين الأرض المفتوحة. وهي تمتص نورها وحرارتها إلى درجة أن ظاهرها وباطنها كلاهما يصيران منورين بالنور؛ لأن الميدان المفتوح يقدم نفسه كله أمام الشمس، فكأن كله يقع في محاذاة الشمس، ولا يسمح بحائل من باب أو جدار أو غيرهما أن يتوسط، فيمنع النور الآتي إليه من جهة من الجهات.

وهذه درجة حياة الأئمة المجتهدين، والعلماء الراسخين، والفقهاء المتقين، وأرباب المعرفة المجاهدين، أي الأولياء الكاملين. فقد قدموا قلوبهم المفتوحة، كالحقول المفتوحة الصافية، لضوء شمس النبوة، واستوعبوا في ظاهرهم وباطنهم النور المتصفى من الفضاء. لا توجد فيهم غ مظلمة كالنهر، ولا داخل مظلم كالبيوت، ولا قلب كثيف صلب كالجبال لا تصل إليه depth الأشعة ويبقى جزء العمق فيه غير قابل للنور. ولذلك يدخل النور الفضائي في داخل هذه الميادين وخارجها، لأن ما هو داخلها هو خارجها أيضاً. ومعنى الميدان المفتوح أنه ليس مغلقاً ولا محجوباً من أي جهة. فما هو ظاهره هو باطنه أيضاً. ولذلك يصير ظاهرهم وباطنهم كلاهما منورين.

والفرق بين الفضاء والميدان المفتوح إنما هو أن الميدان لا يظهر الشمس وحدها كما يفعل الفضاء من غير أن يظهر خصوصياته، بل يظهر بعض خصوصياته أيضاً، وإن كانت تلك الخصوصيات مغموسة في النورانية ولون السنة. فهذا النور أخف من النور الأول، لكنه أشد من نور من بعدهم. فهم في الظاهر والباطن فانون في الله. يصير علم النبوة فراشهم ولحافهم، ويبقون مستغرقين في الذكر والفكر في كل وقت. وفيهم يحترق ما سوى الله ويزول، ولا يبقى فيهم خوف ولا طمع من شيء سوى الله، بل يبقون دائماً مرتجفين خائفين من خشية الله وخوفه.

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ).

وفي الدرجة الثالثة تتأثر الجبال والأنهار ونحوها. فسطحها مرتفع ومائل إلى الشمس، لكنها لا تتأثر كلها، بل يأخذ الأثرَ وجه واحد منها، وهو الوجه الذي جاء في جهة الشمس. فإن كان وقت الطلوع، استنار الجانب الشرقي وسخن، ولا يكون الغربي كذلك. وإن كان وقت الغروب، استنار الجانب الغربي، لكن الجانب الشرقي يبقى مظلماً، إلا أن تأتي الشمس إلى نصف النهار وتلقي عليها نورها الكامل بكل همتها، فتستنير كلها لحظة واحدة. لكن هذا التنوير لا يدوم طويلاً، فما إن تمضي ساعة الاستواء حتى يبدأ تنورها الكامل بالنقصان، وفي النهاية يبقى في جهة واحدة، مثلاً في الجانب الغربي. ومع ذلك لا تمر على هذه الجبال ساعة في النهار إلا ويكون جانب من جوانبها منيراً، ولا تبقى خالية من النور، لكنها تتقلب حالاً بعد حال.

العلماء والأتقياء

هذا المثال لحياة عامة العلماء والصلحاء والأتقياء، فإنهم كالجبال والتلال؛ هم مرتفعون إلى جهة الشمس، ومع ذلك يبقون منورين من الشمس من جهة ما. وكذلك تأتي عليهم أحياناً كيفية استيلاء النور الكامل عليهم بالكلية، كما يقع نور الشمس وقت الاستواء على الجبال من كل جانب. لكنهم لا يستطيعون احتمال هذه الكيفية في كل وقت حتى يصيروا فناءً محضاً. إلا أن هذا ثابت: أنهم من جهة ما، وباعتبار كيفية وحال ما، يبقون منورين في كل وقت. ولا تأتي عليهم ساعة يخلو فيها وجودهم من النور بالكلية.

وهذه كيفية الجبال: تارة تستنير جهة، وتارة جهة أخرى. فكأن نور شمس النبوة يدور على وجودهم، لكن لا على نحو جهة واحدة جامعة لكل الجهات. فهم في الجملة يبقون منورين دائماً، لكن لا من جميع الجهات. بل تقع عليهم أحياناً ظلال الظلمة البشرية، حين تكون شعاع النبوة من هذه الحيثية محتجبة. غير أن هذه الحالة مغلوبة وتقع أحياناً فقط.

فكأن الناس خرجوا من البيوت وجلسوا في ضوء الشمس، فيقع عليهم النور من جهة ما دائماً، وهم من حيث المجموع في النور في كل وقت. لكنهم لم ينالوا قوة النظر الدائم إلى الأشعة، حتى يحترق كل ما سوى الله فيصير رماداً، ويبقوا في كل وقت فانيين في الله، مستغرقين في خشية الله، باقين بالله. ومع ذلك، فبسبب بقائهم دائماً في ضوء الشمس، يدخلون هم أيضاً في النور باعتبار حياتهم الغالبة. وإذا زلت أقدامهم أحياناً بسبب ظلمات النفس في وقت ما، فإن تقواهم وطهارتهم توقظانهم فوراً، فيفيقون فوراً من النعاس.

)إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ(.

عوام الصالحين

والدرجة الرابعة درجة الأبنية والمنازل. ففيها أيضاً يدخل نور الشمس، لكن الضياء يقع من فوق فقط. ولا يمر ضوء الشمس إلى داخل الغرفة. ومع ذلك، إذا بقيت أبواب المنزل ونوافذه مفتوحة، وصل اللمعان إلى الداخل لا محالة. إلا إذا أغلقت أبواب المنازل في وقت ما بسبب المطر أو شدة الريح أو نحو ذلك، فإن نقصاناً ظاهراً يقع حتى في اللمعان.

وهذا مثال حياة عامة المسلمين؛ فهم أمام شمس النبوة كالمنازل، يقع الضياء على أعلاها، ولا يصل إلى داخلها إلا اللمعان. فكأنهم لم يقبلوا أن يخرجوا من البيوت ويجلسوا في ضوء الشمس، بل بقوا محبوسين ومغلقين في بيوت شهوات النفس المظلمة. لكنهم لم يغلقوا أبواب المنزل ونوافذه، بل تركوا أبواب القلوب مفتوحة، فوصل إلى داخلهم من لمعان نور النبوة شيء ما لا محالة.

فإن لم يكونوا مشغولين في كل وقت برؤية نور النبوة وسماعه، فهم على الأقل غير محرومين من بريق شمس النبوة ولمعانها. وبذلك سرى فيهم مع الظلمات الطبيعية شيء من النورانية الإيمانية. ولذلك إذا نظروا إلى هذا اللمعان خرجوا إلى الصلاح والفلاح والهداية، وإذا توجهوا

إلى الظلمة الطبيعية صاروا فريسة للمعاصي والسيئات. لكنهم يرتكبون الذنب وهم يعدونه ذنباً. ولذلك يبقى توقع التوبة منهم والرجاء فيها قائماً.

(وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ، خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً، عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ).

الكفار والمنافقون

والدرجة الخامسة درجة الأجزاء الأبعد عن الشمس. يقع الضياء على سطحها، لكن لا يصل إلى العمق الداخلي نور يخلق تمييزاً بين السواد والبياض. فالليل والنهار في حقه سواء. وهذا الجزء هو عمق البحار؛ في أعلاه لمعان كثير، وفي داخله ظلمة. وهذا مثال حياة المنافقين، الذين أخذوا نور الإيمان على السطح، لكنهم أبقوا البواطن مغلقة وتركوها ظلمة محضة.

والدرجة السادسة أظلم من ذلك وأشد ظلمة، وهي السراديب تحت التراب. فظاهرها وباطنها محرومان من النور معاً. لا تقبل ضوء الشمس ولا لمعانها. فكأنهم يعلنون بلسان الحال: لا نقبل النور ولا نستطيع قبوله؛ فكأن بنيتنا نفسها ليست لأن نصير نورانيين. وهذا مثال الكفار والمعاندين للحق، الذين لم يأخذوا أشعة شمس النبوة في عيونهم، ولا أخذوها على سطح الضوء، ولا سمحوا للبريق أن يدخل جزءاً من القلب. أي أغلقوا كل أبواب القلوب حتى لا يدخل إلى الداخل حتى اللمعان:

(أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا).

وفوق ذلك أغلقوا عيونهم أيضاً، حتى لا تصل إلى الداخل شعاع من نور النبوة من أي ثقب:

(وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا).

ومع ذلك وضعوا على عيونهم غشاوة أيضاً، حتى لا يبقى احتمال الرؤية:

(وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ).

وفوق ذلك اضطجعوا على وجوههم أيضاً، حتى لا يبقى أي إمكان لدخول الضوء في الأنظار:

(أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

ومع ذلك عقدوا العزم الجازم أيضاً أنهم، مهما يكن، لن يقبلوا هذا الحق:

(بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ، فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً).

وبالجملة، لم يقبلوا في أي درجة من الدرجات أن يستفيدوا من بريق شمس النبوة ولمعانها. بل أظهروا لها البغض والعداوة. ولذلك لم ينالوا في أي درجة نوراً روحانياً ولا لمعاناً من رضا الله.

فكما أن الأشياء المادية إذا حرمت من الشمس لا تستطيع أن تحفظ صحتها وقوتها وحياتها المادية، كذلك هؤلاء البشر الظلمانيون في دائرة طلب الروحانية، لما حرموا من شمس النبوة، فقدوا صحتهم الروحانية وقوتهم إلى الأبد، وصاروا مورداً للهلاك الأبدي. فكما أن ضامن الحياة المادية هو الشمس المادية، كذلك ضامن الحياة الروحانية هو هذه الشمس الروحانية.

وعلى كل حال، فقد انكشفت من تمثيل السراج المنير هذا المراتب الست لإفادة شمس النبوة واستفادة الأمة منها. وظهر أمامنا رسم إجمالي لدرجات المستفيدين: فمن حيث الطبيعة لا يمكن أن تظهر في الناس، باعتبار القرب والبعد من الشمس، إلا هذه المراتب الست.

فبعض الطبقات استنارت من تعليم شمس النبوة وتربيتها من جميع الجهات، فصارت نوراً مجسماً ومظهر الشمس، كالصحابة الكرام. وبعضهم نور الظاهر والباطن معاً على السواء، فصار مظهر نور الشمس، كالأئمة والراسخين في العلم. وبعضهم أخذ باطنه الأثر أكثر، لكن ظاهره لم يلمع كثيراً، فصار مظهر ضياء الشمس، كأرباب العلم والمعرفة. وبعضهم أخذ باطنه الأثر أقل، لكن ظاهره استنار أكثر وظهر، فصار مظهر بريق الشمس الظاهري ولمعانها، كعامة المؤمنين. وبعضهم أغلق الباطن بالكلية، وحاول أن يظهر الظاهر مزيناً بصورة اللمعان فقط، وهم المنافقون. وبعضهم بقي محروماً مظلماً من جهة الظاهر والباطن كليهما، ولم يحصل له أي نسبة إلى المظهرية، كالكفار والمنكرين.

وعلى كل حال، يظهر من هذا التمثيل تفصيل أهل الحق وأهل الباطل، ثم درجات قبول الحق في أهل الحق، تلك الدرجات التي نشأت في الأمة من شمس النبوة، ومن التعليم والتربية، والتزكية والتأسي.

الخوارق والمعجزات

ثم كما أن للشمس من جهة شأناً عادياً يومياً مقرراً، وهو أنها، على وفق العادة العامة، تطلع فتوصل إلى الدنيا النور والحرارة بتنويرها وتأثيرها. ويصل ذلك إلى كل وضيع ورفيع، ويستفيد كل أحد من إفاضتها درجة فدرجة ويعرفها ويميزها. لكن لها مع ذلك شأناً غير عادي وغير مألوف أيضاً، وهو أن من ذلك الضوء والحرارة نفسيهما، إذا اجتمعا ووقعا على شيء، تظهر أحياناً آثار على خلاف العادة، وبها تظهر قواها الخاصة.

فمثلاً عادتها العامة إنما هي الإضاءة وتسخين الأشياء، لا الإحراق وإشعال النار. فإذا جمعت حرارتها في موضع بواسطة الزجاج المحرق وألقيت على شيء، فإنها تشعل النار في الثياب والورق ونحو ذلك. وكما أن بعض علماء اليوم امتصوا من أشعتها درجة خاصة من الحرارة واخترعوا موقداً يطبخ عليه الطعام بمجرد أشعة الشمس. وكما أن الروس اخترعوا من أشعة الشمس قنبلة، إذا أرسلت وصلت بنفسها إلى المكان المعين، واشتعلت بنفسها في الساعات المعينة، وصارت قاتلة لمئات الألوف.

ومن الظاهر أن عمل الشمس العام المعتاد لم يكن إشعال النار وإهلاك الخلق ونحو ذلك. لكنها إذا أظهرت قواها بوسائل خاصة وجمعتها بطرق خاصة ظهرت منها أعمال بنائية وتخريبية كلاهما على وجه إعجازي. فقد طبخت الطعام، وهذا وجه بنائي، وأحرقت الثياب والورق والناس حتى صاروا رماداً أسود، وهذا لون تخريبي.

أو مثلاً إيقاف الشمس بإذن الله ليوشع بن نون عليه السلام؛ فقد تركت حركتها المعتادة واختارت الوقوف، فبقي النهار كما هو ولم يقع الغروب حتى فتح حضرة يوشع الحرب. وكما يقع قرب القيامة، بغير تحريك أحد ولا دعائه، أن تطلع الشمس من جهة المغرب بأمر الله، أو تبلغ نصف النهار ثم ترجع إلى جهة المغرب فتغرب، أو يكون عند خروج الدجال يوم واحد بقدر أربعين يوماً، فكأن الشمس تبقى موقوفة عن حركتها بقدر أربعين يوماً، فيصير يوم واحد مساوياً لأربعين يوماً، ونحو ذلك. فهذه أفعال خاصة تتعلق بحركتها، وبقلتها وكثرتها تنقص المسافة الزمانية للعالم كله أو تزيد، ويظهر انقلاب عظيم.

ومن الظاهر أن هذه الأمور كلها ليست عادة، بل خرق عادة، وهي مؤثرة في تربية العالم. فإما أن يكون المقصود بها إتمام الحجة على قوم، أو تقوية إيمان قوم. وعلى كل حال، فهذه الأمور في حق الشمس المادية خوارق عادة تظهر في أوقات خاصة لمقاصد خاصة.

وكذلك تماماً، فإن للشمس الروحانية أيضاً سيراً عاماً معتاداً، تنال به أمم العالم في أوقاتها نور العلم الإلهي وحرارة الأخلاق الربانية. لكن أحياناً، على خلاف العادة العامة وبطريق خرق العادة، تجتمع هذه القوى العلمية والأخلاقية نفسها من علو باطني في نقطة واحدة وتظهر، فتظهر عجائب من عالم تكون خارجة عن القدرة البشرية، حتى ترى الدنيا الدليل الجلي على نبوته. ومع ذلك كله فذلك هو نفس قوة العلم والأخلاق المنسوبة إليه.

ولهذا أشار القرآن في واقعة سليمان عليه السلام، حين استدعى عرش بلقيس، إلى قوة هذا العلم، حتى يقال إنه من آثار قوى العلم الإلهي، وإن كان ظهوره على يد النبي. فقيل:

)قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ(.

وعلى كل حال، فإن آثاراً خارقة تظهر على أيدي الأنبياء بتأثير قوة العلم، أو قوة الأسماء الإلهية الكامنة في ذلك العلم، وتسمى معجزات، لأنها تعجز العالم عن الإتيان بمثلها.

فإذن لشمس النبوة نور وحرارة، هما اللذان يرشحان عادة من علمها وأخلاقها ويمطران على الخلق. وفي موضع أحياناً تظهر هذه القوة نفسها على وجه خارق للعادة وبأسلوب غير عادي، تارة في صورة بنائية، وتارة في لون تخريبي. كما في غزوة الخندق، حيث كفى قطعتا خبز لإشباع بطون مئات من الناس، وكانت هذه صورة بنائية. وفي غزوة بدر، حيث تحطمت عقول مئات من الكفار بحصى قليل أخذها النبي ورماها، وكانت هذه صورة تخريبية.

أو من جهة، وقت فتح بغداد، أخذت خيول حضرات الصحابة تركض في ماء نهر دجلة الذي يغرق الفيلة أسرع من السفن، حتى ينال المؤمنون فتحاً مبيناً. وكانت كرامة الصحابة هذه أيضاً معجزة للنبوة بالواسطة. ومن جهة أخرى، عند الاختفاء في الهجرة، لم يستطع فرس سراقة بن مالك أن يمشي حتى على الأرض الصلبة، وأمسكت الأرض رجليه حتى لا يستطيع الكفار تتبع النبي. فكانت إحداهما صورة البناء، والأخرى صورة التخريب.

لكن مورد هذين النوعين من أفعال الله، الذي ظهرت منه الأعمال الإلهية، كان هو تلك القوة العلمية والأخلاقية، أي الروحانية، التي مرت من داخل النبي واتخذت صورة خرق العادة. فكما توجد في الشمس المادية أفعال من نوع العادة ومن نوع خرق العادة، كذلك توجد في الشمس الروحانية أيضاً أفعال من نوع العادة ومن نوع خرق العادة، وقد صدرت في مواضعها.

والفرق إنما هو أن في خوارق الشمس المادية تعمل الإرادة الإلهية مباشرة، ولا دخل لإرادة الشمس نفسها ولا همتها. أما في خوارق الشمس الروحانية فإن الإرادة الإلهية تظهر في ظل الهمة النبوية، ولذلك تنسب هذه المعجزات إلى النبي. وعلى كل حال، فكما ظهر من تمثيل السراج المنير أفعال شمس النبوة العادية من التعليم والتربية ونحوهما، كذلك حصل أيضاً إثبات الخوارق والمعجزات، وهو ثابت من مدلول هذه الآية، آية العنوان: (وَسِرَاجاً مُنِيراً).

دليل واقعية شمس النبوة وصدقها

ومن ذلك علم أيضاً أنه كما لا يكون هناك علم عام بطلوع النجوم العادية وغروبها، بل يعلم بالأدلة الفنية لعلم الهيئة وبالأسباب الخارجية: أي النجوم وقت طلوعها كذا، وكم من الزمن يتم دورها، ومتى طلعت ومتى غربت. بل بعد طلوعها أيضاً، بسبب عدم العلم المعين بطلوعها، لا تكون هي بنفسها دليلاً على علومها، حتى يستعان بقواعد علم النجوم. ولا تدرك هذه الأمور كلها من نفس سير تلك النجوم.

بخلاف الشمس، فإن العلم بطلوعها عام، بل يكون من قبل، وآثار طلوعها تدل عليها بنفسها دائماً. ومع ذلك، بعد طلوعها لا يحتاج الإيمان بها إلى دليل خارجي أو أجنبي، بل يكون الأمر:

طلعت الشمس، فهي دليل الشمس.
إن أردت دليلاً فلا تعرض عنها.

فإن طلوعها وغروبها حسيان، ولا يحتاجان إلا إلى العين، لا إلى قواعد الفن. وهي أمر حسي بديهي. ثم إن نورها وحرارتها اللذين دخلا في الأبدان، ووجهها المشرق الجليل القاهر الذي يكون أمام العيون متميزاً، كل ذلك دليل مستقل على وجودها. ولا يحتاج إلى دليل فني من الخارج. وإلا فمن من عامة الدنيا، بل من كثير من خواصها، يعرف علم الهيئة؟ لكن الجميع يعرف الشمس.

وكذلك تماماً، فإن ظهور نجوم النبوة، أي الأنبياء عليهم السلام، وعلومهم وكمالاتهم وخدماتهم، لا يعلمها أحد بداهة، بل يتوقف ذلك على علم التاريخ أو على الاختبار بالأدلة العقلية والسمعية. وبالجملة، ليس لأحد علم مباشر بسير الأنبياء وبالأنوار التي جاؤوا بها.

بخلاف شمس النبوة، جناب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الصدق الذي جاء به لا يحتاج إلى دليل خارجي أو منطقي أو فلسفي. فنور علمه المنتشر، وحرارة سيرته الأخلاقية والعملية وتأثيرها، التي دخلت في أرواح أمم العالم شعورياً أو غير شعوري وغلبت عليها، هي بنفسها شاهد عدل على وجوده. وكذلك وجهه المثالي، الذي يبقى أمام أعينهم دائماً في صورة حياة طاهرة، دليل كاف على صدقه.

إن أردت دليلاً فلا تعرض عنها.

لأن شخصية الأخلاق والعمل التي ظهرت من خاتم النبيين، وتلك المقاصد الإنسانية الجامعة الخارجة من أعمق العلوم، التي تحققت من خاتم المرسلين، لا ترى في السابقين ولا في اللاحقين. وسبب ذلك أن قبل الشمس وبعدها لا توجد شمس أخرى غيرها، حتى يكون لغيرها مثل هذا النور والحرارة ومثل هذا الوجه المتألق. ولذلك يكفي لإثبات الصدق هذا النور وهذه الحرارة وسيرته المثالية، التي تصل إلى كل بيت نيء وناضج، سواء رغبة أو اضطراراً، بعز عزيز وذل ذليل.

فإن تلك الاعترافات والبيانات التي قدمها مسؤولو أمم العالم في شأن صدقه، مع أنهم لم يتبعوه، دليل بيّن على ذلك. فكأنه لم يبق للأجانب، بل للمخالفين أيضاً، مفر من الاعتراف بفضله المميز وعظمته. وكان أكبر أعدائه أبو جهل نفسه، وقد لقب بفرعون الأمة، ومع ذلك كان في بيته مقراً بصدقه. وكان مشركو العرب كلهم، مع شدة عداوتهم، يسمونه الصادق والأمين. وبعد دعوى النبوة أيضاً لم يخرج هذا الاعتراف من قلوبهم، لكن (حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ) جاء الإنكار والجحود على ألسنتهم. ولذلك، مع الإنكار، يسمون معترفين أيضاً. ولهذا قال القرآن الكريم في شأنهم بصيغة الاستفهام الإقراري:

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ)؛ أي إنهم يعرفونه قطعاً، وإن كانوا منكرين بسبب(الأغراض والأهواء النفسانية.

وأهل الكتاب، وإن لم يصيروا غالباً من أتباعه، كانوا مضطرين إلى الاعتراف بصدقه حين رأوا أخبار كتبهم السماوية والآثار المشرقة لديانته وصدقه. وشهادة أمثال بحيرى الراهب، بل قبل النبوة أيضاً، حين رأى الرهبان النصارى آثار قبوله وعرفوا خاتم النبيين بالعلامات، فأرشدوا أبا طالب إلى حفظه وقالوا: احفظه من اليهود.

حتى بعد النبوة وجد بعض اليهود يأتون إلى خدمته ويقرون بصدقه ونبوته بألفاظ صريحة. كما في الترمذي، في رواية صفوان بن عسال، أن يهوديين، حين نصحهما الحضور في شأن يوم

السبت وغيره على أصول دينهما نفسه، قبلا يده وقدمه، وقالا: نشهد أنك نبي، وإن لم يصيرا من أتباعه.

وكذلك كان اليهود عموماً، من حيث هم قوم، يعرفون هذا الصدق، لكنهم ينكرونه بالتمرد والجحود. فقال القرآن في شأن اعترافهم:

)يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(.

ثم قال في شأن جحودهم وتمردهم:

)وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً(.

ولا يتوقف الأمر على السابقين فقط؛ فإن بيانات قادة الأمم المتمدنة اليوم ومسؤوليها، التي تطبع كل يوم في الصحف وتجرى على الألسنة في مجالس السيرة، وفيها تثنى ملء الأفواه على شؤونه المميزة، شاهدة عدل على أن سلسلة الاعترافات قائمة بعد طلوع شمس النبوة. وهذه الاعترافات لم تظهر من دليل منطقي، بل إنما جاءت على ألسنتهم وفي قلوبهم من الشخصية الطاهرة لسيرته الطاهرة، ومن علومه وكمالاته المثالية المعيارية، ومن آثاره المنتشرة في الأقوام والأمم، ومن بركاته الدولية. أي إن الشمس أثبتت بنفسها أنها دليل نفسها.

وبالجملة، فمن هذا التمثيل ثبت أن الاعتراف بكمالات الحضور الممتازة جار على ألسنة الصديق والعدو، وكل وضيع ورفيع. وهذه كانت منزلة الشمس بين النجوم.

حتمية الاعتراف

بوضع هذا التمثيل، السراج المنير، أمام النظر، افهموا هذا الاعتراف القهري من المنكرين على هذا النحو: كما أن الإنسان مهما يهرب من ضوء الشمس، فإنها هي نفسها تتبعه، وفي النهاية تمسه وتدخل فيه فتحمله على الاعتراف بها. لأنه لا يستطيع أحد أن يخرج من أوسع دائرة تأثيرها ويدخل في سلطان شمس أخرى.

فالزمان أو المكان، إذا كان السلطان في كل موضع للشمس نفسها، فكيف يستطيع أحد أن يخرج من هذه الإحاطات؟ وكذلك مهما يهرب أحد من صدق شمس النبوة، فإن الصدق نفسه لا يترك ملاحقته، حتى إذا لم يقبله بالإرادة والشعور، قبله قلبه قهراً، ويدخل هذا الصدق في ضميره ويبقى فيه. ولو دخل أحد في أحلك غرفة عمياء، فإن الضوء يصل إلى هناك أيضاً بدرجة من الدرجات. فلا يستطيع إنسان ذو قلب هو الأشد ظلمة أن ينكر صدق شمس النبوة.

ولهذا فإن شهادات أمم العالم، اليوم وقبل اليوم، التي أدوها في شأن نبي الإسلام، وخضوع قلوبهم أمامه، شاهد عدل على ذلك، كما كتبت في هذا رسائل ومقالات مستقلة، وهي موجودة مطبوعة. لأنه بعد الدور المحمدي، حين لا نبوة أخرى ولا رسالة أخرى آتية، كان لا بد أن ينتشر نور هذه الرسالة الواحدة في العالم كله. ولذلك لا يقتصر الأمر اليوم بين أمم الدنيا على الاعتراف اللساني

بحقيته، بل إن المبادئ الإسلامية نفسها تقبل عملياً من جهة الدين والسياسة معاً، وهي تنتشر دائماً وتروج. وقد أرشد كلام النبوة إلى هذه الحقيقة بهذه الألفاظ:

«لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز وذل ذليل، فيكون الدين كله لله.»

بل لو هرب من هذا العالم أيضاً، وعبر الدنيا حتى وصل إلى عالم القبر وعالم البرزخ، فهناك أيضاً، كما يلاحقه نور الشمس المادية، لا يتركه نور الشمس الروحانية. فهاتان الشمسان، وأنوارهما، بل الصورة المثالية لكلتا الشمسين، تبقى هناك أيضاً أمام العيون، فلا يبقى هناك أيضاً مفر منهما ولا من الاعتراف بكمالاتهما.

فبتصريح الحديث النبوي، إذا وضع الميت في القبر وجاءت ملائكة البرزخ تسأله لأجل امتحان دينه، يرى الميت في ذلك الوقت كأن الشمس قريبة من الغروب، وقد جاءت الصفرة على الضوء، واليوم ينتهي، والشمس قد بلغت قرب المغرب. فيضطرب ذلك الرجل الصالح، الذي كان في الدنيا معتاداً على الصلاة مولعاً بها، فيقول لتلك الملائكة فجأة: دعوني أصلي، فالوقت يخرج. وهذه هي الصورة المثالية للشمس المادية التي يؤتى بها أمامه. فصورة الشمس وغرضها الحقيقي وغايتها لم تتركه هناك أيضاً.

وكذلك حين تسأل ملائكة البرزخ هذا الميت عن النبي الكريم عليه السلام: من هذا الرجل؟ فبحسب شرح شراح الحديث تظهر له من بعيد الصورة المثالية أو الصورة العينية لآنحضرة صلى الله عليه وسلم، حتى يعرفه بشهادة ضميره، وينادي: هذا هو نبيي نفسه الذي كانت عقيدته وعظمته أمانة قلبي في الدنيا. فيشهد فوراً أن هذا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي جاءنا بكتاب الهداية الإلهية.

أما من تمرن في الدنيا على الإنكار مع شهادة الضمير، وجعل ضميره بتعصبه وعناده فريسة لحيرة الجهل، حتى صارت هذه الحيرة والتجاهل جوهر نفسه، فإنه في القبر أيضاً لا يندفع إلى الصلاة عند رؤية صورة الشمس المادية، ولا يعرف الصورة المثالية للشمس الروحانية عند رؤيتها، بل يظهر الجهل والحيرة نفسيهما، فيقول مذهولاً: ها ها، لا أدري؛ لست أعرف من هو.

وعلى كل حال، فمن هذا يتضح أن في عالم البرزخ، كما تعرض الصورة المثالية للشمس المادية، ويقصد بها امتحان العمل والعبادة والصلاة، كذلك تعرض الصورة المثالية للشمس الروحانية، ويقصد بها امتحان العقيدة والفكر. وبالجملة، سواء كان الصدق حسياً، كما هو في الشمس المادية، أو كان الصدق معنوياً، كما هو في الشمس الروحانية، فهو فطرة لا يمكن أن تترك الإنسان في أي حال، سواء بقي في الدنيا أو مضى إلى عالم الآخرة. فإذا لم يرد أحد القبول أصلاً، فلا يحدث بذلك فرق في الصدق.

فقد ظهرت من هذا التمثيل أيضاً حتمية الاعتراف بشمس النبوة وكونها دليل نفسها. وسبب كبير لهذا أيضاً أن الحضور، حين جاء إلى الدنيا، جعل جميع الأنبياء السابقين مصدقين، ومحا عادة

التكذيب السيئة التي تنشأ من التعصب والعناد. فإذا كان أحد تابعاً لأي نبي، وحمل على تصديق نبيه، فكيف يمكن أن يكذب القول الذي يصنع هذا التصديق؟ وإلا للزم من ذلك تكذيبه لنفسه. فمن ذا الذي يقول عن نفسه إنه كاذب؟

ولهذا السبب أيضاً تصديق الحضور لا بد منه للأمم؛ لأنه هو نفسه مصدق جميع الأنبياء، وقد جاء ليجعل الدنيا كلها تصدقهم. فكأن حفظ نبوات الأنبياء السابقين أيضاً عمل مقبول من أعمال ختم النبوة. وإذا تأملت، فإن هذا المقام من ختم النبوة أيضاً يتضح من تمثيل الشمس المادية. وقد ذكر القرآن لقبه بأنه مصدق: مصدق لما بين يديه، مصدق لما معكم، ونحو ذلك. وإذا تأملت، فإن هذا السبب في التصديق العام للحضور يتضح أيضاً من تمثيل السراج المنير نفسه.

التصديق العام

لأنه كما أن أنوار النجوم لا تنمحي بعد طلوع الشمس، ولا تضيع تأثيراتها، بل تبقى، لكن بسبب شدة نور الشمس وغلبته لا يظهر وجودها مستقلاً. فهي تغيب في نور الشمس وتبقى ممتزجة في ضمنه، ويتيقن أنها موجودة مستترة في ذلك النور الذي يقع على الدنيا في ضمن الشمس. فكأن الشمس تأتي قائلة بلسان الحال: لما كانت أنوار الجميع مجتمعة في نوري، فقد جئت بالجميع. قبول نوري قبول لأنوار الجميع. تصديقي تصديق للجميع، وإنكاري إنكار للجميع.

وكذلك بعد طلوع شمس النبوة، لم تمح شمس النبوة علوم الأنبياء السابقين وتأثيراتهم، بل أبقتها. ولذلك جعل تصديقهم لازماً. لكن هذه العلوم والكمالات كلها غابت في النور العظيم لشمس النبوة إلى حد لا يرى وجودها المستقل منفصلاً. لكنها لم تنته. فالعيون البعيدة النظر تحصل لها معرفة ويقين بوجودها. ولذلك جعل الإيمان بتلك الشرائع السابقة لازماً في ضمن هذه الشريعة الأخيرة. بل الإيمان بهذه الشريعة هو نفسه قبول لجميع الشرائع، لأنها كلها موجودة في هذه الشريعة الجامعة للشرائع.

فكما أن الشمس المادية لا تأتي مكذبة لأنوار النجوم، بل تأتي حاملة لها في ضمنها، حافظة لها، ومانحة وجودها حياة دائمة في ضمنها؛ كذلك شمس النبوة استوعبت في داخلها علوم النبوات السابقة وأنقذتها من الضياع. مسختها الأمم وضيعوها، لكن القرآن صدقها، وأعطاها مكاناً في داخله، وجعلها أيضاً باقية بقاء دوام مع بقائه الدائم. ولذلك جعل تصديقها لازماً، ومنع من تكذيبها، وأعلن إعلاناً ظاهراً: إني جئت بعلوم الجميع.

«أوتيت علم الأولين والآخرين.»

فإذن تصديقي تصديق للجميع، وإنكاري إنكار للجميع. بل إنكار واحد من الأنبياء السابقين إنكار للجميع، لأن أنوار الجميع قد اجتمعت الآن فيّ وصارت واحدة. ولذلك فمعاملة التصديق والتكذيب مع واحد منهم تفهم مع الجميع. وخصوصاً أن نور صحيفة الخاتمية هذه، أي القرآن، كان منتشراً من قبل في صحف تلك النبوات السابقة:

)وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ(.

وذكره موجود في كتب الأمم الأولى.

ففي هذه الحال، تكذيب تلك الصحف تكذيب للإنسان نفسه، ولا يجترئ على ذلك عاقل. ولذلك صدر أمر التصديق العام بهذه الكلمات الجامعة:

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا(أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(.

وعلى كل حال، فقد ظهر من تمثيل هذا السراج المنير حفظ الحضور للأديان السابقة ومصدقيته للعلم أيضاً. وهذا مقام أساسي وبنيوي من ختم النبوة، وسيأتي شرحه فيما بعد. ولله الحمد.

تمت بالخير — الجزء الأول.

بسم الله الرحمن الرحيم

دوام الظهور

ثم من هذا التمثيل نفسه يلقى الضوء على تلك الأوصاف والمقامات الخاصة للحضور، التي أعطيت للذات المباركة على وجه ممتاز. فمثلاً، كما أن النجوم العامة لا يحتاج إليها في كل وقت، بل لا يحتاج إليها حتى في مدد طويلة. فإن بعض النجوم يطلع مرة في السنة، فكأنه يفي بوعده في السنة كلها. وبعضها في عشر سنين، وبعضها في مئة سنة، وبعضها في ألف سنة، أي يطلع في آلاف السنين. ونحن لا نعلم طلوعها وغروبها أيضاً، ولا تعلم الدنيا أي نجم طلع في أي وقت ومتى غاب. فكأن ظهورها وقتي، ويكون لمصلحة ذلك الوقت فقط. فلا تلك المصلحة مطلوبة في كل وقت، ولا ظهورها يكون في كل وقت.

ومعنى ذلك أنه لو بقيت آلاف السنين محجوبة عن أعيننا، بل عنا نحن أنفسنا، لم يحدث من ذلك نقصان ظاهر في أبصارنا ولا في دنيانا. وبعبارة أخرى، فإن العالم ليس شديد الحاجة إليها. ولكن انظر إلى الشمس، فهي موجودة اثني عشر شهراً، وتتم دورتها في أربع وعشرين ساعة، فتكرمنا برؤيتها كل يوم، وتعطي النور، وتوصل الحرارة، وتدل على الطرق. ثم إذا احتجبت عن العيون وغابت في الليل، فإنما تغيب عمن تغرب في مغربهم فقط. ولا تغيب عن أقاليم العالم. فإن كانت تغرب هنا فهي تطلع في مكان آخر. ولما جعلت الأرض مستديرة، ففي كل خطوة إذا كان غروب ففي كل خطوة طلوع أيضاً. ولذلك فهي موجودة ومفيضة في كل وقت. ولو غابت عن أي إقليم أكثر من الساعات المقررة لوصل العالم إلى شفا الهلاك. ولذلك فهي في كل وقت أمام الدنيا وبني نوع الإنسان. وإلا فهناك مئات الألوف من النجوم التي لا يعرف أولاً ظهورها الخاص ولا طلوعها، وإن عرف فإن ظهورها يمتزج بالنجوم العامة، ولا تشعر به الدنيا أيضاً.

وكذلك تماماً، فإن لنجوم النبوة، أي الأنبياء عليهم السلام، وقتاً خاصاً معيناً للظهور؛ فقد تشرفوا بالمجيء إلى الدنيا وتركوا آثارهم النورانية. جاء وقت ظهور نبي بعد عشر سنين أو عشرين أو مئة أو خمسين أو ألف أو ألفين، وبقوا مدة ظاهرين يهدون الخلق إلى الطريق. لكن لما غربوا، فاليوم توجد آلاف النفوس التي لا تعرف الدنيا حتى أسماءهم الكريمة، ولا تعرف ماذا كانت آثارهم في القلوب، وهل بقيت أم انتهت. ولا تستطيع الدنيا أن تتمنى أيضاً عودة تلك الآثار، إذ لم تكن تلك الآثار معروفة، ولم تحدث الحاجة إليها في القلوب.

أما ظهور شمس النبوة فهو دائم من اليوم الأول إلى الآخر؛ أي إن دورتها تشمل كل الشهور الاثني عشر. بل قبل هذا الظهور الظاهر كان ظهورها العلمي. ففي عهد ألست، بقول شمس النبوة «بلى» ــ أي: نعم، بلى، أنت ربنا ــ جرت كلمة الإيمان «بلى» على ألسنة جميع الأنبياء والأولياء والصلحاء، كما يظهر من حديث ألست. ثم جاء كل نبي مبشراً به، وكان المقصد العظيم من بعثة حضرة عيسى هو هذه البشارة نفسها، كما يشهد القرآن.

ثم في ذلك الأزل نفسه، بإظهار هذا الظهور العلمي له أمام الجميع، أخذ العهد بالإيمان به وطاعته، كما يتضح من آية الميثاق. ثم عند الولادة، في رحم الأم، يجدد الإقرار برسالته مع التوحيد، ويؤخذ من كل فرد فرداً ذلك العهد نفسه الذي أخذ جماعياً يوم ألست، كما هو موجود في روايات الحديث.

ثم في الدنيا بشر كل نبي بهذه الشمس النبوية، وأخذ من قومه العهد بأنه إن ظهر أمامهم أطاعوه جميعاً، كما بين القرآن هذا الميثاق وشرحه. ثم ظل هذا التعليم القرآني له يعمل في جميع الكتب السماوية للقرون السابقة: (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ). فكأنه من جهة العلم والآثار، ومن جهة الاسم والعمل، ظل ظاهراً بارزاً معروفاً في الأمم والأقوام السابقة.

ثم في القبر أيضاً يعرض هو، أو صورته المثالية أو صورته الصفاتية، ثم تسأل أسئلة الامتحان عن ذلك العهد السابق. ومن ذلك يتضح أن ظهوره موجود في البرزخ أيضاً. ثم في عالم الحشر تكون جميع الأقوام والأمم تحت لوائه، وسيرجع جميع بني آدم إليه مجتمعين للشفاعة الكبرى. ومن ذلك يعلم بوضوح ظهوره في عالم الآخرة أيضاً.

وبالجملة، فمن زمان ألست إلى رحم الأم، وأدوار الدنيا، وقرون الدنيا ودهورها، وعالم البرزخ، وعرصات القيامة، أي عالم يوجد لا يكون له فيه ظهور؟ وذلك أيضاً بامتياز لا يتيسر لأحد غيره. فالحاصل أنه، كالشمس، إذا غاب عن عالم في وقت، بقي ظاهراً في عالم آخر بظهور علمي. كان في الدنيا فكانت آثاره الصالحة منتشرة في عالم الغيب، وهو الآن في عالم الآخرة، لكنه متجل في عالم الدنيا بظهور علمي.

فإن معجزته الحية العظيمة هي علمية، تلقي الضياء على الدنيا في صورة القرآن. والشرح الحي لهذه المعجزة متجل في صورة الحديث الطاهر، الذي هو في أيدينا بسند صحيح وبأعلى الأصول التاريخية. ثم إن التفاصيل الحية لهذا الكتاب والسنة تضيء أعيننا في صورة الفقه والتصوف والكلام ونحوها، وهي حاملة للذوق النبوي، وملهمة على قلوب ومعاني الراسخين في العلم أصحاب الذوق. ولذلك فإن آثار النبوة، بالواسطة وبلا واسطة، لا تزال اليوم متجلية في الدنيا بذلك الشأن نفسه الذي كانت تضئ به في القرن الأول.

ما زالت تلك سحابة الرحمة تنثر الدرر؛
والدن والخمارة باقيان بالختم والعلامة .

وهذا الإلقاء للضياء والإفاضة العلمية للنور من الوضوح بحيث إن الدنيا كلها تأخذ الحياة من هذه الأصول والعلوم. فكأن شمس النبوة حاضرة في كل وقت أمام أعين الأولين والآخرين، معلومة معروفة، والدنيا تشعر بآثارها بأعين مفتوحة. ولا يحملن أحد أعمى الباطن هذا الحضور أو هذه الحياة للحضور على معنى حاضر وناظر؛ فإن حاضر وناظر خاصة من خواص الألوهية. وما يمكن أن يحصل في المخلوق من الظهور التام بإذن الله، لم ينله أحد أكثر من الحضور.

فكما أن الشمس المادية، إن كانت غائبة في مكان من عالم الكائنات، فهي حاضرة في مكان آخر؛ كذلك هذه الشمس الروحانية أيضاً. وحيث تكون غائبة تبقى آثارها العلمية قائمة هناك، فكأنها ليست غائبة من هناك أيضاً. وإلا، لو انقطعت آثارها عن العالم لحظة واحدة، لهلكت روحانية الدنيا. فلا يبقى تمدن الدنيا الحالي قائماً، ولا تبقى السعة في الذهنية. ومن هذا التمثيل يثبت الظهور الدائم لشمس النبوة.

(٥٢)

العظمة والشهرة العامة والقبول العام واتباع الأقوام

ثم كما أن الشمس، من بين جميع النجوم، هي وحدها أعلى النجوم وأرفعها، وأكثرها نوراً وأعظمها، وهي أيضاً أعرف النجوم وأشهرها. فلا نجم بلغ حد شهرتها، ولا يملك رفعة وعظمة مثلها. فالشهرة التي لها حتى في الكتب والأمثال لا تكون لنجم من النجوم. وأكثر النجوم لا تعرف الدنيا أسماءها أيضاً، ولا يوجد لها ذكر خاص على الألسنة والأقلام، ولا ذكرى لها في القلوب. أما النجوم القليلة التي تعرف أسماؤها، كالزهرة والمشتري وزحل والمريخ وعطارد ونحوها، فهي في الغالب زينة للتقاويم، وقليل جداً من الخواص والعوام يعرفون هذه الأسماء.

بخلاف الشمس، فلا فرد من البشر يجهلها أو يجهل اسمها. ومن ذا الذي لا يعرف صورتها الجميلة وسيرتها المنيرة؟ بل إن أمماً كثيرة تعرفها بصفة المعبود، وتسجد أمامها عند الطلوع والغروب، حتى إن إبليس أيضاً يحتاج إلى التستر بها ليصنع لنفسه صورة المعبودية، فيقف وقت الطلوع والغروب عينه جاعلاً إياها فوق رأسه، حتى يتصور سجود الأمم الساجدة في حقه، فيفرح في قلبه؛ إما أن تلك الصورة صارت معبودهم، أو أنه نجح بواسطة الشمس في جعلهم يعبدون غير الله.

وعلى كل حال، فإن إبليس اللعين الأسود الوجه سيئ الذكر يحتاج أيضاً إلى الشمس ليزيد في عظمته المزعومة. ومن الظاهر أن أساس هذه الشهرة والعظمة العامتين، وهذا التعارف العام والخاص للشمس، لا يمكن أن يكون إلا فيضها العام. فلما كان كل ذرة من الفضاء وسطح الأرض مستفيدة من تنويرها وتأثيرها، وآخذة منها فيض الضوء والحرارة، فلا معنى لعدم التعارف.

وكذلك تماماً، فإن شمس النبوة، بين جميع نجوم سماء النبوة من آدم إلى حضرة المسيح، لها من العظمة والرفعة والشهرة والوجاهة ما ليس لكوكب من الكواكب. فهناك آلاف نجوم النبوة، أي الأنبياء عليهم السلام، الذين لا تعرف الدنيا أسماءهم الكريمة أيضاً، ولا يوجد لهم اليوم حتى ذكر. وقد قال القرآن أيضاً:

(فَمِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ).

وأما الذين عرفت أسماؤهم ببركة القرآن الكريم أو كتب التاريخ، مثل موسى وعيسى، ويونس، وسليمان، ويعقوب ويوسف، وداود وشعيب، ويحيى وزكريا، وإرميا وشعيا ودانيال ونحوهم عليهم السلام، فتاريخهم الكامل مجهول، وما عرف منه أيضاً ليس معروفاً على السواء في كل قوم. فقوم يعرفون نبياً، وقوم يعرفون آخر. لأن أحداً منهم لم يكن نبياً عالمياً، ولم يأت برسالة عالمية حتى يعرفه العالم كله، ويعم فيضه العالم كله. ولم يرسل أحد منهم فرامين الهداية إلى سلاطين العالم، ولم يخاطب أحد منهم جميع إنسان الدنيا ويعرفهم برسالته، ولم تكن تلك الرسالة نفسها تحمل في داخلها روحاً عالمية حتى يفعل ذلك. لأن نور نجوم الهداية محدود غير منتشر. ولذلك فتعرف النجوم ليس عاماً، ورفعة الذكر ليست عامة.

أما الاسم الكريم لشمس النبوة، سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، فهو معروف في كل قوم من أقوام الدنيا. وشهرته في السماوات والأرض سواء. وفي البحر والبر، والصحراء والبوادي، تدوي أصوات الأذان، وفيها يلزم ذكر اسمه الكريم مع اسم الله: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ). ولا مكان لم يصل إليه نور علومه، ولا إقليم لم تنتشر فيه تأثيراته الأخلاقية وبركاته. وسبب ذلك هو نفسه: أن فيضه العام وصل إلى الدنيا كلها؛ لأنه لم يكن نبياً محلياً، بل كان نبياً عالمياً ومصلحاً ومربياً لعالم الإنسانية كله. ولم تكن رسالته خاصة بقوم واحد أو طبقة واحدة، بل كانت عامة من الجهة الشرعية والتاريخية والتمدنية.

فانظر من الجهة الشرعية، فقد سماه القرآن رحمة للعالمين ونذيراً للعالمين، ومن ذلك يتضح كونه رحمة لجميع العوالم وهادياً ونذيراً لجميع العوالم. ثم مع هاتين الصفتين ذكرت رسالته لجميع الناس، وقيل إن رحمته انتشرت وعمت في بلاد الدنيا:

)وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً(.

وأمر أن يخاطب جميع إنسان العوالم:

)قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً(.

ولذلك انتشرت أمته واتسع ملكه في الروم والشام، ومصر وفلسطين، وإيران وتوران، والهند والسند، وأوروبا وآسيا، وأفريقيا وأمريكا، والصين وروسيا، وأفغانستان وتركستان، وجاوة وسومطرة، وبالجملة في الشرق والغرب.

ومن الجهة التاريخية، فقد أقرت الدنيا بأنه جاء مصلحاً علمياً وتعليماً عالمياً، والدنيا مضطرة أيضاً إلى قبول ذلك التعليم. وحتى الذين لا يقبلون نبوته، فإنهم يسلمون لا محالة بأنه أكبر حكيم في الدنيا، وأعظم عاقل ودانٍ. وهم ينتفعون بالأصول التي علمها، بل هم مضطرون إلى الانتفاع بها في كل شعبة من شعب الحياة.

فقد أعطى هو رسالة التوحيد الكامل، وهي حياة الدين وروحه السارية. ومن نتيجة صدى هذا التوحيد ظهر مذهب البروتستانت بين النصارى، فأظهر التبرم من التثليث وقبل درس الوحدانية.

.ومن نتيجة هذه المواعظ التوحيدية قامت آريا سماج بين الهندوس، وبدأت تذكر اسم التوحيد

ومن ثمرة هذه التعاليم التوحيدية ظهرت فرقة السيخ بين الهندوس، منادية باسم التوحيد. وقد استفاد مؤسسها غورو نانك صاحب من حضرة بابا فريد شكر گنج، وبدأ نشر التوحيد.

ومن نتيجة هذه التربية التوحيدية أن الأقوام الوثنية اليوم بدأت تنظر إلى عبادة الأصنام بعين العيب والشك.

وانظر إلى خط المعاشرة، فقد أعطى درس المساواة بإزالة العلو والدنو، واضطرت أمم الدنيا إلى تبني هذا الأصل، وخاصة في عصر الآلة اليوم، حين صارت الدنيا كلها عائلة واحدة وقبيلة واحدة، وبرزت العمومية والشمول بسبب اختلاط أمم العالم بعضها ببعض، ولا مفر فيها من المساواة. ولذلك فإن الأقوام ذات العلو والدنو بدأت اليوم تعد العلو والدنو لعنة، وتنظر إلى الامتيازات العرقية بعين التحقير.

فمن أين وصل إليهم هذا الدرس؟ لا شك أنه وصل من الموضع نفسه الذي أعلن فيه بطريق الأصل:

١. الناس كلهم إخوة.
٢. يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى.
٣. كلكم بنو آدم، وآدم من تراب .

واليوم يعلن رئيس وزراء الهند، مستر نهرو: إن أردتم العالمية فأزيلوا الامتيازات العرقية، وأزيلوا لعنة النبذ، وامحوا العلو والدنو. ويقيم غاندي جي في حي الكناسين، ويدعو إلى فتح المعابد للهريجان. ويشرب پنت جي اللبن في كأس بيت الدباغين. فمن أين حصل محبو النبذ في النهاية على هذا التعليم؟

ولماذا عزم الهندوس المتعلمون اليوم على تمرير مشروع قانون الهندوس، وهو من أوله إلى آخره نسخة من الفقه الإسلامي؟ ولماذا يجري الحديث في المجالس عن ميراث البنات، وتعدد الزواج، ومشروع الطلاق، ومشروع الخلع، وغير ذلك؟ ولماذا يعاد النظر اليوم في تحقير مسألة الرق؟

وفي الخطوط السياسية، لماذا تأتي الملكية في صورة القيادة؟ ولماذا يجري أصل اختيار الأصلح بدل وراثة العرش؟ ولماذا تنشأ أهمية الرأي العام بدل الاستبداد الشخصي، الذي كان الأمراء والسلاطين دائماً يفرون منه وينفرون؟ ومن أعطى اليوم درس التسامح بدل ضيق الصدر؟ ولماذا ينظر إلى التعصب بعين السوء، مع أنه كان إلى الآن يعد أصلاً أساسياً لبقاء الأمة؟

ولماذا بدأ اليوم من كانت قاعدتهم الدينية نفسها قائمة على تحقير مقتدي الأديان يمدحون مقتدي غيرهم على المنابر، وكان الدين عندهم اسماً لتكذيب الغير لا لتصديق الغير؟ ولماذا تعد اليوم هذه أسس الكراهية سيئة، ولماذا يقال لها طائفية ويدعى في مقابلها إلى المؤانسة الدولية؟

إن هذا بلا شك ثمرة التأثر، شعورياً ولا شعورياً، بالتعاليم المنيرة لهذه الشمس النبوية وحدها، التي دعت الدنيا إلى العالمية، وعلمت الإيمان بجميع مقتدي الأديان، ومنعت التفريق بين الرسل في شأن الإيمان، وقالت إن جميع الناس إخوة، وأعطت الدنيا كلها رسالة الأمن والسلام، ودعت جميع البشر بلا تفريق في الجنس واللون إلى ذات واحدة، وجمعتهم عليها، ووضعت أصل جعل جميع الأقوام أمة واحدة، وأرسلت الفرمانات إلى سلاطين العالم، وقلبت السياسات الجبرية والاستبدادية لقيصر وكسرى، ونشرت السياسة الأخلاقية، وأرسلت نقباءها في الدنيا كلها فأوصلت رسالة الفطرة، التي كانت صالحة للقبول على السواء لكل قوم.

وهذا هو الفيض العام العالمي الذي به صارت مقبوليته عالمية، وشهرته وعظمته عالميتين، ومعرفته والتعرف عليه عالميين، كما هو شأن الشمس بين النجوم. فالدنيا لا تعرف حتى أسماء كثير من الأنبياء لأن نورهم لم يكن نوراً منتشراً. أما تعاليمه فكانت كضوء الشمس، صنعت النهار أيضاً، وانتشرت على كل ذرة فعرفت نفسها بنفسها أمام كل فرد من البشر. ولذلك لم تكن هناك علة تمنع العالم كله من معرفة شمس النبوة والتعرف عليها، ولا تمنع أن تصير هذه المعرفة العامة المميزة لها بين جميع نجوم النبوة عامة شاملة.

جامعية الشؤون

ثم في الشمس أيضاً شأن الجامعية. فهي تحرق وتطفئ أيضاً. وفيها السوز والحرارة، وفيها الخنوسة والبرودة أيضاً. وفيها الجلال والجمال. لأن الشمس حين تطلع على هذا السماء المادي، فمن الأمر الواضح أن الحرارة تبدأ بالانصباب بلا حساب، فتسخن الأشياء وتحترق. وعلى هذا السماء نفسه يطلع القمر أيضاً، فتبدأ البرودة بالانصباب منه وتبرد الأشياء.

فلو لم تنصب حرارة الشمس، لما بقيت في الأشياء الحرارة الغريزية التي هي منشأ الحياة. ولو لم تنصب برودة القمر، لما نشأ العصير في الثمار، ولا اللب في الأنابيب، ولا المخ في القشور، وهي أساس حياة الشيء. فإن العظام إذا جفت، والثمار إذا يبست لفقدان العصير، والقشور إذا فقدت لبها وانكمشت باليبس، فذلك فناؤها. ومن ذلك يتضح أنه حيث تحتاج الأشياء إلى اليبس، تحتاج كذلك إلى الرطوبة. وقد جمع السماء هذين الأمرين: فالشمس تأتي باليبس، والقمر يأتي بالرطوبة.

ولكن إن تأملت، فهذه الرطوبة أيضاً إنما تأتي بها الشمس نفسها. لأن القمر لا يملك نوراً من ذاته. هو كالمرآة الشفافة، وكل لمعانه وتألقه ونورانيته من فيض الشمس. ولذلك ففي القمر في الحقيقة نور الشمس نفسه. والفرق فقط أن في ظرف القمر نفسه وضعت بعض خواص البرودة، حتى إن نور الشمس إذا وصل إليه غير لونه أيضاً. فلا تبقى حدته ولا إبهاره، وتتبدل حرارته

أيضاً فلا يبقى إلقاء اللهب، ويتبدل اسم الضوء أيضاً، فيسمى بدلاً من ضوء الشمس ضوء القمر. لكنه في الحقيقة نور الشمس نفسه. فإذن الضوء البارد للقمر هو في الحقيقة ضوء الشمس نفسه، يحدث بعض التبدلات بسبب مقامات الخصوصيات.

كما أن الكهرباء إذا أجريت في المدفأة سخنت الغرف، وإذا أجريت تلك الكهرباء نفسها في آلة التكييف بردت الغرف. فأصل الكهرباء في الحقيقة نارية وحدة. لكنها إذا جيء بها من طريق التكييف تبدلت تلك الحدة والحرارة نفسها إلى برودة. وذلك من خاصية الآلة وظرفها. ولذلك يمكن أن يقال إن نار الكهرباء تعمل عملي الإحراق والإطفاء معاً. وإنما تتبدل خصوصيات الظرف، ولا تتبدل الكهرباء.

وكذلك تماماً في نور الشمس أيضاً توجد خاصيتا الحرارة والبرودة التي هي خصوصية ظرف القمر. فإن كان هناك فرق فهو أن الحرارة بلا واسطة، وهي خاصية الشمس الأصلية، والبرودة بواسطة القمر، وهي خصوصية ظرف القمر. لكن النور في الموضعين يعمل عمل الشمس نفسها. ولذلك تسمى هاتان الحالتان شأناً للشمس نفسها: فهي تحرق وتطفئ، وتسخن وتبرد. والفرق إنما هو فرق الواسطة وبلا واسطة.

ولكن إذا أعمق النظر اتضح أن الحرارة والبرودة كلتيهما مجموعتان في الشمس في آن واحد حتى بلا واسطة القمر. فإن الشمس حيث تسخن البحار، وهو نفسه معنى الإحراق والتسخين، تثير أيضاً بتلك السخونة أبخرة منها، فتأتي بالمانسون وتمطر على الدنيا ماء بارداً، فتنطفئ الحرارات. وكل ذلك فيض الشمس نفسها. فلو لم تكن لما ارتفعت الأبخرة من البحار، ولا تكون المانسون، ولحرمت الدنيا من الماء البارد. ومن ذلك يظهر أن الشمس في وقت واحد تخلق في البحار أسباب الحرارة والبرودة معاً.

ثم ليست هاتان الكيفيتان في البحر فقط، بل في البر أيضاً تظهران من ذات الشمس نفسها. ففي شدة الحر، في اللحظة التي تسخن فيها الشمس سطح الأرض، في تلك اللحظة نفسها تمنح البرودة للجزء الداخلي من الأرض. فكلما اشتدت الحرارة في الأعلى ازدادت البرودة الداخلية بذلك القدر. وفي الصيف يخرج الماء نفسه بارداً من داخل الأرض. أما في الشتاء فيقع العكس. فهذه الشمس نفسها حين تعطي الجزء الأعلى من الأرض حرارة أقل، فكأنها تمزج فيه البرودة، تزيد الحرارة تحت الأرض، حتى إن الماء في الشتاء أيضاً يخرج دافئاً من داخل الأرض، وتدفأ السراديب أيضاً.

ومن ذلك يتضح بجلاء أن الشمس، حتى بغير واسطة القمر، تحمل في ذاتها شأني البرد والحر، والحرارة والبرودة، مختلطين. ومن ذلك يتضح أن جامعية الأضداد شأنها الخاص. فإن كانت هذه في الصيف برودة الأرض الذاتية، فأين تضيع هذه الصفة الذاتية في الشتاء، ولم تضيع؟ وإن كانت الحرارة داخل الأرض أصلية ذاتية، فلماذا تزول في الصيف؟ وإن لم تكن هذه البرودة والحرارة في الأرض ذاتيتين، بل كانتا أثر الشمس، فذلك هو مقصودنا. ومنه يظهر أن الشمس تظهر آثار الحرارة والبرودة في البحر والبر معاً.

وكذلك تماماً فإن شمس النبوة أيضاً تحمل في ذاتها شأني الجلال والجمال، واللين والحرارة، والمهر والقهر. ومن ذلك يثبت كمال اعتدالها. فحضرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، من جهة، رحمة مجسمة، ومن جهة أخرى غضب مجسم أيضاً. ففي الإرشاد النبوي:

«بعثت مرحمة وملحمة.»

أي أرسلت رحمة مجسمة وغضباً مجسماً أيضاً.

وقيل:

«أنا الضحوك القتال.»

أي أنا كثير التبسم وكثير القتال أيضاً.

فمن جهة، في شريعته العفو والصفح، وغض البصر، وقبول العذر، والمصالحة والتغاضي في غاية الكمال، وهو شأن المهر. ومن جهة أخرى، الحدود والقصاص، والعقوبة والتعزير، والجهاد والقتال، والكفارات أيضاً على مقياس كامل، وهو شأن القهر والسياسة. فكما تقطر من نور هذه الشمس الروحانية المهر والرحمة، كذلك يترشح القهر والسياسة. وكما أنها مصدر الجمال، فهي أيضاً المظهر الأتم للجلال.

ولذلك سميت هذه الشمس الروحانية «سراجاً منيراً». فمن لفظ «سراج» يثبت الجلال والقهر والحرارة، ومن لفظ «منير» تثبت البرودة والشأن الجمالي. فكأن من لفظ «سراج» يظهر شأن «نذير للعالمين»، ومن لفظ «منير» يتضح شأن «رحمة للعالمين». وقد جمعت هاتان النوران، نور الديانة ونور السياسة، في ذات واحدة.

فمن جهة، الأمر هو:

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ).

ومن جهة أخرى، الأمر هو:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ).

فمن جهة، يدخل مكة وقت فتح مكة مسلحاً بجيش جرار، وهذا شأن القهر والسياسة، وفي تلك اللحظة نفسها يكون حال التواضع والخضوع والشفقة بحيث ينحني العنق من شدة التواضع، حتى يقرب الرأس المبارك من عنق الجمل، وهو يعلن الأمان العام. فهناك إنذار وتبشير، ومهر وقهر، وديانة وسياسة، وفقر وملك.

وقواه الروحانية نفسها إذا مرت بالصديق الأكبر ظهرت في صورة الرحمة المحضة والجمال، وإذا مرت تلك القوى نفسها بالفاروق الأعظم اتخذت الشأن الجلالي والسياسي. لكن النور في

كليهما كان نور شمس واحدة يعمل. وبالجملة، ففي هذه الشمس النبوية والسراج المنير اللين والحرارة قائمان معاً ممزوجين في وقت واحد. فكما ثبت من تمثيل الشمس شأن الجامعية الكبرى في شمس النبوة، كذلك يظهر من هذا التمثيل شأن جامعية الجلال والجمال فيها، وتظهر في ذات واحدة كمالات متضادة مجتمعة.

وإلا ففي الأمم الأولى كانت هاتان الشأنان منفصلتين. كان الأنبياء يعطون الأحكام الشرعية، وكان السلاطين والملوك ينفذونها. أي إن الدين والسياسة كانا منقسمين في طبقتين منفصلتين. فكأن دين ذلك الوقت لم يكن يستطيع تحمل القوة والشوكة المادية، لأن قوى ذلك الزمان كانت، من جهة قوى المزاج الشديدة، أقوم قومية، ومن جهة القوى النفسانية أشد. ولإدخالهم في الدين كانت الحاجة إلى درجة من التوجه الواحد وترك الدنيا لا يمكن معها أن يجتمع الجاه والجلال الدنيوي والتاج والعرش. فلو جمعت هذه الأمور، لمِالت قواهم النفسانية الشديدة بسبب ذلك الكروفر إلى الدوافع النفسانية فقط، ولما بقي فيهم أثر من الروحانية.

فكانت جماعة الأنبياء توجد في قلوبهم الدين وخشية الله بمجاهدات ترك الدنيا، وكانت جماعة الملوك والسلاطين تحت رعايتهم تنفذ ذلك الدين بالقوة السياسية، وعندئذ يكون دين الأقوام خالصاً. ومع ذلك لم تستطع عامة الأمم أن تأتي إلى الدين والروحانية، بل هلكت بمقاومة الأنبياء مرة بعد مرة.

أما الأمة المسلمة فكانت الأمة الأخيرة. وبمشاهدة رد فعل الجلال والجمال المنقسمين في العالم القديم، كان قد حصل في قواها كمال الاعتدال، ونشأت فيها قابلية الجامعية. ولذلك أعطيت نبوة وشريعة جامعتين، وجعلت هاتان الشأنان، الجلال والجمال، في ذات واحدة مباركة، أي شمس النبوة. وبذلك امتزجت السياسة بالديانة، والملكية بالروحانية. وهكذا ظهر معنى «الملك والدين توأمان»؛ أي إن الملك والدين ولدان توأمان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

فكأن افتراق هذين الأمرين في الأمم السابقة كان بسبب ضعف استعداد الأمم، ولم يكن هو الحقيقة الأصلية. نعم، وقع أن بعض الأنبياء عليهم السلام أمروا بالجهاد، وأمروا بفتح جزء خاص من الملك. لكن بعد الفتح بقيت تلك القسمة نفسها بين الديانة والسياسة. أما في الإسلام وحده فقد جمع الدين والملك بعد الجهاد والفتح، وذلك كان حقيقتهما الأصلية. ومن ذلك يظهر شأن الجامعية في شمس النبوة من هذا التمثيل نفسه، وهو مصداق لنصوص شرعية كثيرة.

جامعية الأحوال

ثم إن لهذا الجمع نفسه مثالاً آخر وجانباً آخر يوافق هذا التمثيل أيضاً، ويظهر بالنظر إلى خصوصية أخرى من خصوصيات الشمس: أن لها وجهين. فمن جهة، هي في كل آن تمنح الدنيا النور والحرارة والضياء، ولا تخلو لحظة واحدة من ذلك، بحيث ينقطع وصول النور والحرارة منها إلى الدنيا. فهي تسخن العناصر والمواليد وتنيرها، وتلقي الضوء والحرارة على بيت كل أحد، وتملأ طبائع المرضى بالحرارة والضوء، وتثير الحرارة الغريزية في الأصحاء. ثم تعين

بهذا الضوء والحرارة في أعمال الدنيا، مثل إتمام سفر المسافرين، وهو لا يكون بلا ضوء، وإتمام المعاش، وهو لا يكون بلا نهار مضيء، وملء المواد القابلة للاشتعال بالمادة النارية. فإن لم تطلع لم يبق اسم ولا أثر للآثار النارية في أي مادة قابلة للاشتعال ولا في أي ظرف ناري. فلا يرتفع الشرر من الصوان، ولا تنشأ الشرارة من الحديد، ولا تخرج النار من الحجر، ولا تتكون الكهرباء من الماء، ولا يقوم المانسون من البحر، ولا تجف الرطوبات الفاسدة، ولا يحصل الاعتدال في الأمزجة الرطبة. ومن ذلك يتضح أن كل لحظة من لحظات الشمس مشغولة بإفاضة النفع على جميع أشياء الكائنات، ولا يكون غير مناسب أن يعطى هذا عنوان خدمة الخلق.

لكن مع خدمة الخلق، إذا نظر إلى حالها الآخر، يظهر أن لحظة منها أيضاً لا تخلو من عبادة الرب. ففي حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، أنه قال:

«كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد عند غروب الشمس، فقال: يا أبا ذر، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: تذهب لتسجد فتستأذن، فيؤذن لها في الرجوع كما جاء» ـــ كما في رواية الترمذي وأحمد ـــ «ويوشك أن تسجد فلا يؤذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله عز وجل: والشمس تجري لمستقر لها.»

ولتعيين مراد الحديث، تأمل أن الأرض كروية، كما ثبت في موضعه، وأن الشمس تدور حولها. فما معنى ذلك إلا أنها في كل آن تطلع في مكان وتغرب في مكان؟ فكأنها في كل لحظة تطلع وتغرب معاً. ولما كانت بعد كل غروب تسجد وتطلب الإذن في طلوع جديد، فالنتيجة الواضحة أنها تمضي وهي ساجدة في كل آن. فكما أنها بهذه الحركة تمنح الأشياء النور والحرارة في كل لحظة، كذلك في هذا الحال تسجد في كل لحظة، وهذا ينبغي أن يسمى عبادة الرب.

فكأن كل لحظة من لحظات الشمس مشغولة بخدمة الخلق وعبادة الرب على السواء. فلا تشغلها العبادة عن خدمة الخلق، ولا يحدث من خدمة الخلق فرق في عبادة الرب. ومن ذلك تتضح جامعية أحوال الشمس.

وكذلك تماماً حال الشمس الروحانية. فمن جهة، ليلاً ونهاراً، كان مشتغلاً بتربية خلق الله وإيصال نور العلم وحرارة العشق الإلهي إليهم، ولم يكن فارغاً من ذلك دقيقة واحدة، لأن حياته كلها سميت أسوة حسنة. فكل لحظة منها دين وشريعة. سواء كان قولاً أو عملاً، عادة أو عبادة، ففي كل واحد منها نموذج العمل وذخيرة الاتباع والاقتداء. نومه ويقظته كلها نموذج شريعة. ومن الظاهر أن هذا الاتباع في الدين لا في الدنيا. ولذلك فحياته كلها، وكل حركة وسكون من حياته، مانحة للدين. ولا يمكن التعبير عن ذلك بعبارة أخرى إلا بأن كل لحظة من لحظاته كانت مشغولة بخدمة الخلق وتربية الخلق.

لكن مع ذلك لم تخل لحظة من لحظاته من ذكر الله والذكر الإلهي. ففي الحديث الصريح:

«كان يذكر الله على كل أحيانه، وكان دائم الفكرة حزيناً.»

فكان كل لحظة مشغولاً بذكر الله، وكل دقيقة بالفكر. ولم تكن ساعة خالية من الذكر والفكر، ولم يكن عمل من نوم أو يقظة إلا وكانت روح الإخلاص الكامل والمحبة الكاملة جارية فيه. فتلك الحياة كلها التي كانت مشتغلة بخدمة الخلق، كانت هي نفسها بأسرها مشتغلة بعبادة الرب أيضاً، لأنها كانت لوجه الله. ولذلك كان في كل آن مشتغلاً بالشفقة على خلق الله، وفي كل آن مشتغلاً بتعظيم أمر الله. فلا كانت خدمة الخلق تجعله غافلاً عن العبادة، ولا كانت عبادة الرب تجعله غافلاً عن الخدمة. ولذلك اتضحت جامعية أحوال شمس النبوة أيضاً من هذا التمثيل نفسه بالشمس المادية.

الرحمة المطلقة

ثم كما جعل للشمس طلوع وغروب، فهي بالطلوع تظهر أمام النظر، وبالغروب تحتجب. فهي ليست موجودة في كل وقت ولا غائبة في كل وقت؛ لأن وجودها الدائم أيضاً يكون سبب هلاك الدنيا بسبب عدم التحمل، وغيبتها الدائمة أيضاً تكون سبب خراب الدنيا بسبب انقطاع الحرارة. ولذلك فظهورها نافع، وخفاؤها أيضاً مفيد، وكلاهما ضروري للعالم.

فبالظهور تأخذ الدنيا النور منها نفسها، وتعمل قابلياتها للاستفادة. وبخفائها تستفيد الدنيا من تلك الأجزاء النورانية التي تنشأ فيها، بفيض الشمس، قابليات إفاضة النور، فتظهر في الدنيا أنواع جديدة من الأنوار والحرارات، وبذلك تعمل القوى الإفادية في الدنيا.

وكذلك تماماً جعل دور شمس النبوة أيضاً مشتملاً على الظهور والخفاء. فبظهورها أخذت الدنيا منها ضوء العلم والأخلاق وحرارتهما، وأنارت صدورها، فعرفت الخالق والمخلوق والفرق بينهما، وصححت علمها وعقيدتها، ورأت فيها عاقبتها الصحيحة. وبهذا جرى معمل الروحانية، وبه تمت الحياة الروحانية للإنسان. ومن الظاهر أنه بغير طلوع شمس النبوة لم يكن هذا النور الهدايتي ليظهر بوجه من الوجوه، ولبقي الإنسان مطروحاً في ظلمات الظلم والجهل. ومن ذلك يظهر أن طلوع شمس النبوة رحمة ونعمة مستقلة للعالم: «أنا رحمة مهداة»؛ أنا رحمة أعطيت هدية لعالم الإنسانية.

ولكن تأمل، فإن غروب شمس النبوة واحتجابها ليس بأقل رحمة. فكما أن الناس بعد غروب الشمس المادية يجتهدون في أن يستخرجوا إلى الدنيا ما يوجد من الضوء والحرارة التي وهبتها الشمس في أي مادة من المواد؛ فإن كان في الدنيا قمر ونجوم توجهت قوة الاختراع فيها إلى المصابيح والقناديل والغاز والمصابيح والكهرباء والقمقمات والكبريت والصوان والمشاعل ونحوها، فتظهر في الدنيا أنوار مختلفة الألوان. ولو لم يكن ذلك، لما عملت قوة الاختراع في الإنسان، ولبقيت هذه القابليات الاختراعية مستورة في حجاب العدم.

كذلك غروب شمس النبوة، أو هذا الانفصال الحسي والمكاني عنها مع وجودها، ثبت أنه نعمة عظيمة ورحمة من الله. فبعد احتجاب شمس النبوة، حين أظلمت الدنيا، جاء وقت ظهور ذلك النور الذي جاء في ورثة النبوة بفيض النبوة. وكل فرد انغرست فيه شعاع من تلك الشمس

الروحانية استنبط منها، ووجد طريقاً في الحوادث. وظهرت مسائل جديدة، وبدأت مئات الألوف من العلوم والمعارف التي كانت ملفوفة في ثنيات نور النبوة تظهر بعد فتح تلك الثنيات. وبذلك جاء الدين أمام الدنيا في صورة باقة مرتبة.

ولو لم تحتجب شمس النبوة بهذا الحجاب الظاهري، فمن كان يملك الجرأة أن يعمل باجتهاده واستنباطه في حضرتها؟ وكانت النتيجة أن قابليات الأمة الاجتهادية لم تكن لتعمل أبداً. فكما تنفتح بغروب الشمس المادية القابليات الاختراعية للمواد الكونية في إفاضة النور، كذلك انفتحت بغروب الشمس الروحانية القابليات الاجتهادية للمواد الروحانية في إفاضة العلم. فإن انفتحت بالطلوع قوى أخذ النور، ظهرت بالغروب قابليات إعطاء النور. فبأحدهما ظهرت قوة الاستفادة، وبالآخر قوة الإفادة.

مع أن النور في الحالتين إنما هو نور الشمس نفسها، وهو الذي يثبت أنه مضيء؛ لكنه في الطلوع بلا واسطة، وفي الغروب بواسطة. فبالطلوع ظهر نور النبوة، وبالغروب نور الولاية. وبالطلوع انفتح لون التقليد والاتباع، وبالغروب لون الاجتهاد والاستنباط، وهو بواسطة عين ذلك النور بنور النبوة. وإنما تلحق به خصوصيات الظرف، فيصير مختلف الألوان. وكما أن شؤون النبوة نفسها مختلفة الألوان، فكذلك كان لا بد أن تكون مظاهرها مختلفة الألوان. ولذلك لم يكن ممكناً ظهور القوى الاستنباطية للصديقية والفاروقية والإمامة وأولي الأمر إلا بعد احتجاب النبوة. ولذلك ثبت أن غروب شمس النبوة أيضاً نعمة ورحمة مستقلة، وبهذه الطريقة ثبتت الذات النبوية المباركة من هذا التمثيل نفسه رحمة مطلقة أيضاً: «أنا رحمة مهداة».

ومن جهة أخرى، كان هذا الظهور والغيبة، والحضور والشهود، في حق ذاته المباركة نفسه وسيلة لترقي المدارج في كل لحظة. ففي وقت الظهور والشهود كان بالتعليم والتربية والتنوير والتأثير أمام الجميع، وكان في كل لحظة ترقي الدرجات. وفي وقت الغيبة، حين تكون الغيبة تامة، كما مثلاً عند نزول الوحي، كان غلبة الفنائية الكاملة والغيبة التامة، فلا يكون هو عند أحد ولا يكون أحد عنده؛ أو حسياً كما في ليلة المعراج، كان مستوراً عن الجميع، ففي ذلك كان ترقي الدرجات بلا واسطة. فكان الترقي في الشهود بواسطة التعليم والتربية وخدمة الخلق، وكان الترقي في الغيبة بلا واسطة. ولذلك ثبت أن هذا الظهور والخفاء لشمس النبوة، في حق شمس النبوة نفسها أيضاً، رحمة كاملة في كل لحظة.

النضج والتكميل

ثم كما أن النجوم السماوية تملأ الأعشاب بالعصارة وتحدث الليونة في البراعم، لكنها لا تستطيع إنضاجها. فالنضج إنما يحدث بالشمس وحدها، وبها تبلغ عصارة الأعشاب حد الكمال، وتنضج الليونة في أنابيب العظام فتصير حياة العظم. ولو لم تنضج الشمس بحرارتها تلك الألباب وبقيت مواد سائلة جارية، لما نشأت في بدن حياة ولا قوة.

وكذلك تماماً، فإن نجوم النبوة، أي الأنبياء السابقين، ملؤوا القلوب والأدمغة بالإيمان ولا شك، وظلوا يملؤون أوعيتهم بلب الدين، لكن نضج الدين وتكميله كان مستحيلاً بغير شمس النبوة. أما في الأمم السابقة فكانت صورة النضج أن علوم خاتم النبيين كانت عاملة في صحفهم: (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ)، أي إن روح هذا القرآن كانت موجودة في كتب السابقين. وبهذه الطريقة كانت هذه العلوم والمعارف القرآنية تملأ لونها في خطوط التعاليم الوقتية للأنبياء، فتحدث صورة النضج في التعليم والتربية.

وأما في الأمة المحمدية فالأمر بالعكس: كانت علوم السابقين موجودة بواسطة حضرة خاتم النبيين، وصارت العلوم النبوية عاملة مباشرة. ولذلك كان سبب النضج للأمم السابقة وللأمة المرحومة جميعاً هو شمس النبوة.

أو يعبر عن هذه الحقيقة بلون آخر فيقال: إن معنى النضج هو تكميل الدين، ومعنى التكميل ليس الإيجاد من جديد، بل إيصال الموجود إلى حد الكمال. فذلك الدين الذي بدأ من آدم، وكان يتقدم درجة درجة نحو التكميل، تم تكميله في النهاية على يد حضرة خاتم النبيين عليه السلام. إذ لم يكن هذا التكميل ليحدث بغير علوم الخاتم الأكمل.

فالشمس الروحانية أوصلت الدين السابق، من طريق جامعيتها الكبرى، إلى حد الكمال من جهة الأصول والفروع، وقوته وأحكمته بالدلائل القاهرة والمعجزات العظيمة، وملأت بأسوتها الحسنة الجامعة تلك الجوانب من الدين التي كانت خالية، فأتمت الدين من كل جهة.

)الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً(.

ففي الصورة الأولى يثبت نضج أرباب الدين وتكميلهم، وهو أيضاً لا يمكن أن يوجد بغير علوم الخاتم. وفي الصورة الثانية يثبت نضج نفس الدين وتكميله، وهو أيضاً كان مستحيلاً بغير علوم الخاتم.

حكمة التربية ونسخ الشرائع

ثم كما أن الشمس بعد طلوعها لم تجعل ساكنة في مكان واحد، بل جعلت متحركة تسير من المشرق إلى المغرب. وحركتها أيضاً لم تجعل مستقيمة، بل جعلت دورية، تدور على دائرة، وتعود من المكان الذي سارت منه إلى ذلك المكان نفسه. وهذه الحركة أيضاً لم تجعل دفعية، بل جعلت تدريجية؛ فهي لا تتم دورتها في دقائق معدودة، بل في أربع وعشرين ساعة.

فليس أنها تقفز دفعة واحدة من المشرق إلى خط الاستواء، وتأتي مع طلوعها في النهار تلك الشدة والحرارة والسخونة نفسها التي تكون وقت نصف النهار. وليس أنها تقفز من نصف النهار قفزة واحدة فتصل فجأة إلى المغرب، وترتفع فجأة إضاءة نصف النهار وشدته، فتحدث البرودة. ولو كان ذلك، لاحتر الناس المبردون بالليل فجأة وقت الطلوع، ولبرد الذين حميوا بشدة حرارة الاستواء فجأة بالغروب، وكانت النتيجة أن تفسد أمزجتهم بهذا البرد والحر المفاجئين، وتلحقهم

أمراض مختلفة. ولو لم تجعل في الشمس حركة أصلاً، بل كانت تطلع وتقف على نقطة واحدة، لضاقت الدنيا من حرارتها وشدتها.

ولذلك جعلت متحركة، وجعل في حركتها التدرج بدل السرعة والحدة، وقيد ذلك بالعروج والنزول والقرب والبعد، حتى تتأثر الكائنات وتنتفع بتدرج من آثار كل كيفية شيئاً فشيئاً، وتظل كل حالة لاحقة تنهي الحالة السابقة تدريجياً وتعد الأمزجة للاحقة. لأنه ما لم تنته هذه الحالة الأولى، التي وضعت رعاية للأمزجة، لا تظهر الاستعداد للحالة الثانية.

وكذلك تماماً، جعل الحق تعالى في أحوال شمس النبوة أيضاً ترقياً، وهي في حركة دائمة. وفيها ظهرت كيفيات مختلفة من عروج الأحوال الروحانية ونزولها، وشدتها وخفتها، وألقت آثارها على الأمزجة الروحانية ورتبت الأمزجة على أسلوب خاص.

ففي ابتداء الإسلام، وهو زمان يشبه طلوع الشمس، كان نور شمس النبوة لطيفاً خفيفاً قريباً من الطبائع. لأن طبائع زمان الجاهلية لم تكن لتألف كمال الدين دفعة واحدة. فالصورة الكاملة للصلاة الموجودة اليوم لم تكن في ابتداء الإسلام. كان في الصلاة إلقاء السلام والكلام وسماعه، والنظر هنا وهناك، والحركة والانتقال من جهة إلى جهة، كل ذلك جائزاً. لأن حديثي العهد والداخلين الجدد في الإسلام لو فرضت عليهم فجأة جميع قيود الصلاة الإسلامية، لملوا الصلاة نفسها ولم يحتملوها.

ولذلك كلما احتملت الطبائع وضعت القيود كذلك. أولاً منع التنقل والحركة، ثم منع النظر هنا وهناك، ثم جاءت ممانعة السلام والكلام. وبحسب قول حضرة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام.»

ولو منعوا من هذه الحريات كلها دفعة واحدة، لكان ذلك مثل أن ينقل الإنسان فجأة من البرد إلى الحر بحركة الشمس الدفعية. فإن كان بذلك يفسد المزاج المادي، فبهذا يفسد المزاج الروحاني. ولذلك نسخت الأحكام الابتدائية شيئاً فشيئاً، وجاءت أحكام جديدة، حتى تحتملها الطبائع وتحدث في الأمزجة الروحانية كيفيات الترقي والسكون تدريجياً.

وهذه الصورة نفسها من النسخ التدريجي للأحكام اتخذت في إنهاء قتل الكلاب. وهذه الصورة التدريجية والنسخية نفسها وضعت في أحكام الخمر. وهذه الصورة التدريجية نفسها اتخذت في صوم عاشوراء وصيام شهر رمضان. وهذه الصورة التدريجية نفسها وضعت في أحكام الوصية والمواريث. وهذه الصورة التدريجية نفسها اتخذت في شأن التشدد والجهاد. وبالجملة، جاءت الأحكام بتدرج من حركة شمس النبوة الشرعية، واتخذت التهذيب والترتيب، وأنهت الأحكام السابقة في كل باب.

وتحت حكمة التربية هذه، انتقلت الشريعة في بعض المواضع من التساهل إلى التشدد، كما في تحريم الخمر، وفي بعض المواضع من التشدد إلى التساهل، كما في شأن قتل الكلاب. لكن التدرج والتسهيل كانا منظورين في الصورتين، وهما أساس حكمة التربية وأصلها.

فمن تمثيل الشمس نفسه ثبت في شمس النبوة أيضاً شأن نسخ الشرائع وحكمة التربية.

)مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا(.

عموم الفيض وعمومية البعثة

ثم انظر أيضاً إلى هذا الجانب من الشمس المادية، فإن فيضها ليس خاصاً بفرد أو نوع أو جنس، بل آثار نورها وحرارتها عامة على كل ذرة من الكائنات تحت هذا السماء، وتنويرها وتأثيرها شاملان. فكما تلقي الضوء والحرارة على قصور الأغنياء والقلاع الملكية، كذلك تلقيهما على أكواخ الفقراء وأكواخ الدراويش. وكما تنفذ أشعتها في الإنسان حتى يتأثر عمق البدن، كذلك لا تبقى الحيوانات والنباتات والجمادات محرومة من فيضها.

فعند طلوع الشمس تظهر آثار السوز والحرارة من الشجر والحجر والحصى والصخر والحديد والخشب والجلد والثوب جميعاً. وحتى الماء في الأنهار والجداول والبرك يفقد برودته ويسخن. وحتى الهواء في الفضاء يسخن، والفضاء نفسه يسخن. وبالجملة، لا يبقى شيء إلا ويأخذ أثر الشمس. بل إن حياة جميع هذه الأشياء قائمة بتلك الحرارة الحيوية التي تمنحها الشمس لها.

ثم إن إفاضة الشمس هذه متساوية أيضاً. فهي تشرق على كل ذرة، وتوصل إلى الجميع فيض نورانيتها وحرارتها على السواء. وليس أنها تمنح أحداً نوراً أقل وآخر أكثر، أو تعطي أحداً حرارة أقل وآخر كثيراً، فكأنها سخية بالنسبة إلى أحد وبخيلة بالنسبة إلى آخر. لا، إنها حرارة واحدة وضوء واحد يقعان على الجميع على السواء. فإن كان الآخذون ينقصون أو يزيدون في الأخذ بسبب اختلاف قابليتهم واستعدادهم، أو يأخذون أقل أو أكثر بسبب القرب والبعد من الشمس، فهذا التفاوت لهم أنفسهم. ولا يحدث به فرق في مساواة عطاء الشمس وجودها. ومن الظاهر أن المرآة تقبل من نور الشمس ما لا يستطيع المقلى الأسود قبوله. والحديد والحجر يسخنان من الشمس بما لا تسخن به الخشبة والثوب. لكن هذا كله فرق قابلياتهم وقبولهم، لا فرق عطاء الشمس. وبالجملة، لا يوجد ركن من الكائنات لا يصل إليه فيض ضوء الشمس وحرارتها على السواء.

وكذلك تماماً، فإن شمس النبوة توصل نورها العلمي وحرارتها الأخلاقية إلى جميع نفوس الكائنات على السواء. الغني والفقير، والقريب والبعيد، والقريب والغريب، والوطني والأجنبي، والأسود والأبيض، والحر والعبد، بل المقر والمنكر، تقع على الجميع أنوارها على السواء، ورسالتها عامة للعالم كله. فكما نادت الفقراء، أرسلت كذلك فرامين النبوة إلى سلاطين العالم. وكما هي هادية للعوام والسذج، فهي كذلك مرشدة للخواص والفلاسفة. وقد أعلن:

بعثت إلى الأسود والأحمر»؛ أي أرسلت إلى الأسود والأبيض جميعاً».

ونودي بالعمومية:

)قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً(.

وبالنسبة إلى الأقوام والأنبياء فتحت هذه العمومية بألفاظ أوضح:

«كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة».

ومن ذلك يظهر عموم الفيض ومساواة الهداية.

مراتب القبول في المؤمنين

لكن في المؤمنين كل واحد استفاد منها بقدر قابليته واستعداده. ومن ذلك نشأ اختلاف الدرجات والمراتب. وبسبب هذا الفرق صار من المؤمنين من هو صديق وفاروق، ومن هو ذو النورين، ومن هو أسد الله، ومن هو سيف الله، ومن هو عيسوي الصفة، ومن هو على نقش إبراهيمي، ومن هو محدث، ومن هو محدث، ومن هو حكيم، ومن هو فقيه، ومن هو صالح، ومن هو شهيد. وبالجملة، بحسب اختلاف قابلياتهم، صار كل واحد ما كان ينبغي أن يصير من هذا السوز والحرارة الروحانية العامة، ومن هذا البهاء والنضارة النورانية. ولم يكن في عطاء النور والحرارة فرق.

تأثرات المنكرين

ثم لم يتأثر بهذا الفيض العام المؤمنون فقط، بل المنكرون وأشد المعاندين أيضاً، مع بقائهم في موضعهم، لم يبقوا محرومين من فيض شمس النبوة. فقوم استفادوا من هذا الدين فائدة التمدن، وقوم استفادوا إصلاح الدين وتعديله. وأجرت أمم الدنيا تعديلات في تمدناتها ودساتيرها القومية والملكية من أشعة شمس النبوة. وتغيرت القوانين المدنية، وحدث فرق في العقائد الدينية. حتى الإنسان الأشد شركاً بدأ يذكر اسم التوحيد.

ففي النصارى ظهر مذهب البروتستانت، وكان أثراً للتعاليم الإسلامية الأندلسية. وفي الهندوس ظهر السيخ وآريا ورت، وبدأوا يذكرون اسم التوحيد. وأحدث لوثر بتعليم الجامعات الأندلسية الإسلامية انقلاباً في تمدن أوروبا. وحتى أكثر الأمم إنكاراً صارت قائلة بالقوة القدسية للنبوة. وغيّر السياسيون مجاري سياساتهم. فجاءت الشعبية من الملكية، وصارت الديمقراطية من الشخصية، وتحول تفرد الخواص إلى صورة الارتباط بالعوام. واتضح فرق التشدد وعدم التشدد وموضع استعمالهما. ومع حرب التشدد وضعت كذلك خطط الحرب الذهنية والعصبية. ومع الحياة المدنية بقيت الحياة الملكية أيضاً دستوراً للدنيا الضعيفة. وبقي عنوان الحكم لابساً ثوب القيادة.

وبالجملة، سواء كانت أمماً متمدنة أو أمماً دينية، فقد تأثرت كلها درجة درجة بأشعة شمس النبوة وشعاعاتها، ودخل تأثير هذه الشمس الروحانية في بواطنها شعورياً ولا شعورياً. ولو قبلت هذه الأمم هذه الأصول نفسها بالانقياد والطاعة والتسليم والرضا، لاستنارت الآخرة أيضاً مع الدنيا بهذا النور، وهو المقصود الأصلي. لكن تأثرها كان بغير رضا بل بالاضطرار، ولما رأت الاتجاه العام للهواء لم تجد بداً من هذه التغيرات. فاستنارت دنياها سطحياً بهذا الضوء وسخنت بهذه الحرارة، لكن ظلمة الآخرة لم تزل. ومع ذلك، كما لم يبق المؤمنون، لم يبق غير المؤمنين أيضاً بلا علاقة ولا أثر من فيض شمس النبوة. وقد مضت أمثلة ذلك التفصيلية. وبهذا عم هذا الفيض العام عالم البشرية كله، كما تشرق الشمس المادية على كل ذرة من ذرات الدنيا.

أثر شمس النبوة في الأشياء غير ذات الروح

ثم لم يبق هذا الفيض العام محدوداً بعالم البشرية فقط، بل وصلت آثار هذه الدعوة العالمية إلى الجمادات والنبات والحيوان والجن أيضاً، كما يصل أثر نور الشمس المادية وحرارتها إليها. دخلت الحصى في اليد المباركة، فبدأت تقرأ التسبيح. ونال جذع النخلة اليابس أياماً حرارة صحبة شمس النبوة ومعيتها، فسخن بعشق النبوة حتى صار، كالعرفاء الكاملين، يبكي وينوح في فراق النبي. وفي الحديبية قرب الجسد المبارك لشمس النبوة من شجرة سمر، فصارت شجرة الرضوان التي أثنى عليها رب العالمين في كلامه المبارك.

ونشأت في الشجر والحجر قابلية السلام والشهادة بالنبوة. وبدأت الحيوانات تأتي بشكاياتها، ثم ترجع مطمئنة بحكم النبي الحق. وجاءت الإبل ووضعت رؤوسها عند القدم المباركة، وبكت شاكية ظلم أصحابها وجورهم، فنالت مرادها. وبدأت الذئاب تشهد بصدق النبوة. وبدأت الحيوانات تعرض أنفسها للذبح. فلما ضحى في حجة الوداع بمئة من الإبل، كان كل واحد منها يتقدم بنفسه للذبح، ويخفض عنقه ويتقدم ليذبح باليد المباركة.

ليبق رأس الأحبة سالماً، فأنت تجرب الخنجر.

وبدأ الماء الجاري يسبح الله. واشتغل الثوب الأبيض بتسبيح الله. وانشغلت الأغصان الخضراء بالتسبيح. وبدأت الوحوش والطيور تقرأ التسبيح بلغاتها. وبدأت وفود الجن تأتي طالبة المواعظ النبوية، وتتأثر فتقرأ كلمة الإسلام. ولما وقعت النظرة الطاهرة على السحاب، بدأ يؤدي خدمات بسط الظل، وصار في الشمس مظلة للرأس المبارك.

آثار شمس النبوة في المكان والفضاء

ثم لم تستنر بهذه الشمس الروحانية أعيان هذا العالم وأشخاصه فقط، أي الجماد والنبات والجن والحيوان، بل إن المكان والخلاء الذي تستقر فيه البيوت وأهل البيوت لم يبقيا أيضاً بلا تسخين من شمس النبوة. فهؤلاء الأشخاص سكان تلك الأمكنة وقاطنوها. فكما كان الفضاء يستنير ويسخن بالشمس المادية، كذلك هو أيضاً يتلقى من الشمس الروحانية ذلك النور المعنوي والحرارة المعنوية التي هي نور العبادة الإلهية.

أولاً، لأن كل طاعة وعبادة يؤديها أي ذي روح أو غير ذي روح ستقع يقيناً في مكان وموضع ما، ولا يمكن أن تكون في اللامكان. وفي هذه الصورة يصير المكان ظرف العبادة ووسيلة الطاعة. والجميع يعلم أن الوسيلة في حكم المقصود. ولذلك، فإذا كانت العبادة فعلاً مقدساً، وهي كذلك لا محالة، كان قدس ظرفها ضرورياً أيضاً. كما أن العطر إذا كان ذا رائحة طيبة، وهو كذلك بلا شك، فصيرورة زجاجته ووعائه ذوي رائحة طيبة أمر طبيعي. وبهذا الدليل اتضح تقدس مكان العبادة.

ولهذا المبدأ سمت الشريعة المساجد «خير البقاع»، أي أطهر الأماكن كلها، لأنها مكان أطهر الأعمال، وهو العبادة. وسمت السوق «شر البقاع»، أي أسوأ الأماكن كلها، لأنها غالباً مكان الأعمال النجسة كالخصام والفساد والمنازعات. ومن ذلك اتضح معيار خير المكان وشره، وهو العبادة. والعبادة بلا شك أثر شمس النبوة. فكل موضع تؤدى فيه العبادة والطاعة الإلهية سيقال بلا شك إن ذلك الموضع والمكان متأثر أيضاً بشمس النبوة. ولذلك اتضح أن الساكن ليس وحده، بل المكان نفسه أيضاً متأثر بنور شمس النبوة وحرارتها.

ثم إن هذا المكان لم يصر مقدساً بكونه وسيلة العبادة فقط، بل هو نفسه أيضاً عابد مباشرة، ويتلقى بلا واسطة هذا النور المعنوي والحرارة المعنوية من شمس النبوة. فالطريق الذي مر به الحضور صار مقدساً. وموضع الولادة مقدس، وموضع الوفاة مقدس، وموضع الدفن مقدس، ومزار للخلائق.

في المكان الذي يكون فيه أثر كف قدمك،
سيسجد أهل النظر سنين طويلة .

وبدأت أصوات تلاوة القرآن تأتي حتى من حفر الأرض وقبورها. وكل قطعة من الأرض حصلت لها نسبة ولو إلى غلام نبوي صارت مقدسة أيضاً. وكل جزء من الأرض أدى عليه أي عبد صالح وظيفة العبادة صار شاهداً رسمياً، وستكون شهادته في يوم القيامة في شأن عابده معتبرة ومقبولة. فكأن العدالة والورع، وهما صفتان مخصوصتان للشهود، دخلا في تركيب تلك القطعة. وهذا دليل واضح على تقدسها.

وكل بيت حصلت له نسبة بعيدة أيضاً بصاحب النبوة صار معدوداً في بيوت الله. فمساجد العالم كلها، وخانقاهاته كلها، ومدارسه كلها، وكل المؤسسات التي يجري فيها تنفيذ الأحكام الإلهية وإجراؤها، وكل مجالس الوعظ والتذكير، وكل مواضع مذاكرة العلم والعمل، وكل التلال والوديان المقدسة المنسوبة إلى أي صاحب إلهام أو صاحب وحي، مع أن كل صاحب وحي وإلهام وكل صاحب كشف ومنام، سواء كان في الأولين أو الآخرين، منسوب في النهاية إلى خاتم النبيين ومستفيض بفيض الخاتم؛ كل هذه تعد مقدسة وعابدة بسبب هذه النسب، لأنها حصلت لها نسبة إلى شمس النبوة بواسطة من الوسائط.

فحرم الكعبة، وحرم مكة، والحرم المقدس، وحرم المدينة، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى، والمسجد النبوي، ومسجد قباء، ومسجد الخيف، ومسجد نمرة، وغير ذلك. ثم في القبر المبارك، تلك البقعة التي حفظ فيها الجسد المبارك أفضل حتى من العرش، لأن الجسد اللطيف متصل بها. ثم في الجبال: جبل الطور، وجبل النور، وجبل حراء، وجبل ثور، وجبل أحد، ووادي سيناء، ووادي آدم. وفي الأنهار: سيحون وجيحون، والنيل والفرات، وغير ذلك. وفي الآبار: بئر زمزم والآبار السبعة المشهورة بالمدينة، بئر أريس، وبئر الخاتم، وبئر بضاعة، وغير ذلك. وكل تلك البقاع المباركة التي اتصلت بها نسبة إلى هؤلاء المقدسين، أو تعلقت بأسمائهم؛ ثم جميع المشاهد والآثار وجميع الأماكن المقدسة في العالم، إنما صارت مقدسة لأنها حصلت لها نسبة ومناسبة إلى شمس النبوة.

فبعض المكان هو ما سمته الشريعة بالاسم ذا نسبة، وعيّنت بنفسها كونه مقدساً بالفعل، مثل الأماكن المذكورة. وبعضها ما تركته لاختيار الصالحين وجعلته ظرفاً للعبادة، أي إن الإنسان حيثما عبد صار ذلك المكان مقدساً وشاهداً في حقه. ولما كانت هذه القابلية موجودة في كل بقعة في كل وقت، فكأن جميع بقاع العالم كلها قد جعلت مقدسة بالقوة. وقد أُرشد إلى هذه الحقيقة في الحديث الآتي:

«جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً.»

وفي هذه الصورة، أي بقعة من الأرض تبقى حتى يقال إنها غير متعلقة بنور شمس النبوة وحرارتها، بالفعل أو بالقوة، بالخصوص أو بالعموم؟ والحاصل أن حيثما وصلت شعاع أو لمعة من شمس النبوة، أضاءت تلك البقعة وسخنت، بالواسطة وبلا واسطة. ومن الظاهر أن المكان محيط بكل شيء في العالم، ولا يخرج أي شيء مكاني من دائرته. فإذا كان هو نفسه كله مستفيداً من شمس النبوة، فأي شيء يبقى في إحاطته منفصلاً أو غير متعلق بآثارها النورانية؟

ومن ذلك اتضح أنه كما وصل الفيض الحسي للشمس المادية إلى كل بقعة من بقاع الدنيا، بحيث لا يحرم منه فرد من المكان ولا من الساكنين في المكان، كذلك فإن الفيض المعنوي لهذه الشمس الروحانية أيضاً قد غطى كل ذرة، فلم يبق فرد من الفضاء والمكان وسكانهما خارجاً عنه. نعم، بعضهم سمته شمس النبوة باختيارها وقالت إنه نوراني بالفعل، وبعضهم تركته لاختيار المطيعين من البشر وبيّنت أنه نوراني بالقوة.

آثار شمس النبوة في الزمان

ثم كما أن فيض الشمس المادية ليس محدوداً بالمكان والأشياء المكانية، بل إن ضوءها وحرارتها أثرا في الزمان أيضاً، كذلك فإن فيض شمس النبوة أيضاً تجاوز المكان والمكانيات وانتشر إلى الزمان والأشياء الزمانية. فاليوم الذي وقعت عليه النظرة صار مقدساً، والليلة التي وقعت عليها النظرة صارت طاهرة. وتلك الساعات، وتلك الشهور، وتلك السنوات، وذلك الجزء من الزمان

الذي دخل تحت نسبة من نسب شمس النبوة، صار مقدساً مقبولاً مباركاً. وكذلك صارت الأشياء التي دخلت في دائرة الزمان مباركة أيضاً.

وصورة ذلك أن المكان كما أحاط بكل ذرة من ذرات الكائنات، ولا يوجد شيء جسماني يستغني عن المكان والموضع، وبقول الفلاسفة: «كل جسم فله حيز طبيعي»، أي إن لكل جسم طبعاً موضع قرار وظرفاً مكانياً ضرورياً؛ كذلك لا يمكن لشيء من العالم أن يكون خارج إحاطة الزمان أيضاً. أي إن الزمان، كالمكان، محيط بالكائنات. بل إن إحاطة الزمان أوسع من إحاطة المكان، لأن المكان لا يحيط إلا بالموجودات، أي الأشياء التي قد وجدت. أما الأشياء غير الموجودة، أي المعدومات، فلا علاقة للمكان بها، ولا يقال إن الأشياء التي لم تخلق بعد محبوسة في مكان كذا.

لكن الزمان يحيط مع الموجودات بتلك المعدومات أيضاً التي لم توجد بعد. لأن الزمان لا يطلق على الحال فقط، الذي تكون فيه الأشياء الموجودة، بل يطلق على الماضي أيضاً، الذي امتلأ بالأشياء الماضية. وكل شيء يموت يقال إنه صار ماضياً، أي ذهب إلى الزمان الماضي. ثم المستقبل أيضاً جزء من الزمان، أي الزمان الآتي، وفيه تلك الأشياء التي لم تخلق بعد.

ففي إحاطة الماضي محاطة الأشياء التي وجدت ثم مضت. وفي إحاطة المستقبل محاطة الأشياء غير المولودة بعد. وفي إحاطة الحال لا تحاط إلا الأشياء التي وجدت وهي موجودة. ومن الظاهر أن أشياء الماضي التي مضت وأشياء المستقبل الآتية أكثر بكثير من الموجودات المحاطة في الحال. ولذلك فإن قبضة الحال قليلة جداً بالنسبة إلى الماضي والمستقبل. والجميع يعلم أن ما دخل في إحاطة المكان هو فقط الأشياء التي هي في قبضة الحال. أما أشياء الماضي والمستقبل فلا علاقة للمكان بها. ولذلك اتضح أن إحاطة المكان أصغر وأقصر كثيراً من إحاطة الزمان، وأن ما دخل في إحاطته قليل جداً بالنسبة إلى ما دخل في إحاطة الزمان. وهذا دليل واضح على الفرق بين إحاطتي المكان والزمان.

والفرق الثاني أن أشياء الكائنات التي دخلت في قبضة المكان هي نفسها متحركة ليلاً ونهاراً، لكن المكان ساكن. فهو محيط بتلك الأشياء ثابت في موضعه ساكن غير متحرك. أما الزمان، فهو مع إحاطته بتلك الأشياء متحرك بنفسه، والأشياء الزمانية ساكنة. لا ينتقل شيء بنفسه من زمان إلى زمان آخر، بل الزمان نفسه يمر عليها ويأتي ويذهب. فالماضي يمضي ويذهب إلى الخلف، فكأنه يبتعد. والمستقبل يأتي ويقترب من الأشياء. والحال بين هاتين الحالتين نقطة ساقطة موهومة، متوجهة إلى الجهتين.

ولذلك قال القرآن الحكيم عن الزمان إنه يأتي قريباً من الأشياء ويبتعد، فكأنه قال إن الزمان متحرك وإن الأشياء ساكنة:

)اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ(.

وقال في موضع آخر:

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ).

وسمى الأرض فراشاً، وهو علامة سكونها؛ لأن الفراش لا يتحرك، بل صاحب الفراش يتحرك عليه. وبالجملة، فكل ذرة من الكائنات في قبضة الزمان والمكان. لكن المكان ساكن والأشياء المكانية متحركة، والزمان نفسه متحرك والأشياء الزمانية ساكنة. غير أنه، مع هذا الفرق وهو أن إحاطة الزمان أوسع وأكثر حركة من المكان، فالقاسم المشترك بينهما حقيقة قائمة في موضعها: أن المكان والزمان يحيطان بكل ذرة من ذرات الكائنات.

والآن تأمل في هذا: إن الزمان والمكان، مع سعتي إحاطتهما اللامتناهية، قد دخلا معاً في إحاطة الشمس نفسها. فكما أن المكان والأشياء المكانية تستنير وتسخن بالشمس، كذلك الزمان والأشياء الزمانية تسخن وتستنير بالشمس.

وجود الزمان من الشمس

بل الزمان أكثر دخولاً في قبضة الشمس من المكان. لأن المكان متأثر بالشمس فقط، وليس مصنوعاً للشمس. أما الزمان فوجوده نفسه من الشمس، لأن الزمان اسم دوران الشمس. فإن لم تطلع وتغرب، لا تتكون الليالي والأيام؛ وإن لم تكن الليالي والأيام، لا يكون الوقت ولا الزمان. ولذلك صار الزمان كأنه ولد الشمس ومولود منها. فكون الزمان أكثر تأثراً بالشمس من المكان أمر طبيعي.

ولهذا تكون الليالي والأيام حارة ومضيئة. أما كون النهار حاراً ومضيئاً، فالجميع يحسه. لكن كون الليل حاراً في الصيف، أثر من يكون إلا أثر الشمس؟ ثم كونه منوراً إلى حد ما بضوء النجوم، وإن كان في الظاهر أثر النجوم، إلا أن ضوء النجوم نفسه في الحقيقة ضوء الشمس. وبحسب دعوى الفلاسفة، القمر والنجوم أجسام شفافة من نوع ما، وليس فيها نور من ذاتها، وإنما يأتيها هذا اللمعان والتألق من مقابلة الشمس. ولذلك فإن تنور الليل بالنجوم هو بالواسطة تنور بالشمس نفسها. فالنهار والليل كلاهما يأخذان من الشمس الحرارة والنور معاً. ولذلك فالزمان أيضاً ليس محروماً من فيض الشمس، لأنه يتكون من الشمس ويأخذ آثاره منها أيضاً.

وكذلك تماماً فإن شمس النبوة تصنع زمانها بنفسها. هناك كانت الليالي والأيام الحسية تتكون من الدوران الحسي للشمس المادية: فإذا خرجت الشمس صار النهار، وإذا اختفت الشمس صار الليل. ولذلك ظلت لمعات الشمس تصنع الليل والنهار. وهنا تتكون الليالي والأيام الشرعية من الحركة الشرعية للشمس الروحانية. فإذا طلعت هذه الشمس الروحانية صار النهار الشرعي، وإذا غربت صار الليل. وفي كليهما آلاف المصالح الخفية. فالنهار وقت إفاضة الشمس، والليل وقت استفادتها هي.

فكما أن الشمس المادية تختفي ليلاً عن الأبصار، وتذهب بنص الحديث تحت العرش وتسجد وتطلب الإذن بالطلوع، فكأنها بسجدة الحاجة تستعد لأن تأتي بنور جديد وحياة جديدة للنور لتفيض النور على اليوم الآتي، وتطلع بشأن الإفادة؛ كذلك فإن شمس النبوة تختفي في الليالي عن

الأبصار العامة، وتبلغ إلى العرش للقيام الليلي وسجدات العبودية، وتجمع قوى روحانية جديدة للإفادات الآتية، وتطلع في النهار لتهدي خلق الله.

والفرق فقط أن الشمس المادية تغرب فتمضي تحت الأرض، وتقف أمام الجزء الأسفل من العرش، وتسجد في الحضرة الإلهية. أما الشمس الروحانية فتغرب ثم تعلو عن الأرض، بل تتجاوز السماوات أيضاً، حتى تبلغ إلى الجزء الأعلى من العرش، وتسجد لرب العرش العظيم، ومن هناك تأخذ حياة روحانية جديدة بعد جديدة ثم ترجع إلى العالم، فيصير النهار، ويأتي وقت الإفادة بتلك القوى. فكأن النهار ظهور حياتها الاجتماعية والجلوتية، والليل ظهور حياتها الجامعة للقلب والفردية أو الخلوية. وبالجملة، فكما تصنع الشمس الروحانية الليل والنهار الشرعيين بالطلوع والغروب، كذلك فالزمان الذي صنعته الشمس الروحانية قائم جنباً إلى جنب مع الزمان الذي صنعته الشمس المادية.

أيام شمس النبوة

والآن إذا تأملت في الزمان الذي صنعته الشمس المادية، ظهر أن كل الزمان الذي يتكون من الشمس هو في الحقيقة يوم وسبع ليال فقط. ولذلك فكل عمر الدنيا كلها ليس أكثر من سبعة أيام وسبع ليال، أي أسبوع واحد. نعم، لما كان هذا الأسبوع يعود ويتكرر مرة بعد مرة، فبقدر تكراره تطول أعمار الدنيا وأمم الدنيا وحوادث الدنيا الكبرى، وتسمى آلاف السنين. لكن حاصل أطول هذه الأعمار ليس أكثر من أسبوع واحد.

والأسبوع ذو الأيام السبعة يبدأ من يوم السبت وينتهي بيوم الجمعة، وهذا الأسبوع هو العمر الأصلي للدنيا كلها، وإن كان يتكرر. فلو لم يكن المراد أن يكون عمر الدنيا هذا الأسبوع، أو بعبارة أخرى لو كان عمرها أكثر من أسبوع، لأجريت الشمس بدلاً من تدويرها من جهة واحدة مستقيمة، ولتركت تجري دائماً إلى الأمام على خط مستقيم، ولما غربت أبداً، ولما ظلت تدور مرة بعد مرة في دائرة واحدة بين المشرق والمغرب. لكن من الظاهر أن في هذه الصورة لا يتكون إلا يوم واحد يساوي آلاف السنين، ولا يتوسط الليل بينه.

لكن في هذه الصورة كانت تفوت جميع التغيرات والحوادث ومصالحها اللامتناهية الكامنة في تعاقب الليل بعد النهار والنهار بعد الليل. ولما كان للزمان تحديد، ولا تعينت مدة معينة، ولا قام حساب، ولا تكونت الشهور ولا السنين ولا السنون ولا التاريخ. وبهذا لم يكن تاريخ الدنيا نفسه ليتكون، فتختل جميع معامل العبر والمصالح. ولذلك جعل في حركة الشمس بدل الحركة المستقيمة حركة دورية ودوران، فحدث منه الطلوع والغروب، وتكون منه الليل والنهار، حتى يصنع الليل والنهار نفسهما، بالعودة مرة بعد مرة، مقادير الزمان، وتبقى موجودة جميع مصالح الكائنات المرتبطة بانقلاب هذا الليل والنهار. وكذلك ليتجدد في الطبائع تجدد بتجدد هذا الليل والنهار، حتى تبقى الطبائع كل يوم طازجة جديدة، وتجري في ميادين السعي والعمل، وتظهر مصالح العالم.

ومع أن عمر العالم بهذا الطريق يخرج في الجملة يوماً واحداً، يمكن أن يعود مرة بعد مرة، ويمكن أن يطول عمر العالم، لكن في هذه الصورة كانت تلحق صعوبات في إقامة الحساب وتعيين أعمار الحوادث. فكأن البشر كلهم مولودون في يوم واحد، ويكون يوم الموت يوماً واحداً، ويوم الزواج يوماً واحداً، وكل حادث من حوادث العمر في يوم واحد، فيصعب تمييز أمور الحياة. ولذلك جعلت سبع دورات لليل والنهار، فجعل عمر العالم أسبوعاً واحداً، وقررت سبعة أيام بسبعة أسماء، وبالتكرار منها عينت الشهور. وجعلت هذه الشهور اثني عشر، حتى يمكن تعيين الأيام بالشهور، والساعات والأوقات بالأيام بسهولة.

ولعل القرآن الحكيم لذلك ذكر في شأن خلق الدنيا وإيجادها سبعة أيام بدل يوم واحد: ستة تصريحاً وواحداً إشارة. فقال:

)إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ(.

ومفهوم هذه الآية الصريح أن ستة أيام هي لخلق الكائنات، ويوم واحد للاستواء على العرش، وينبغي أن يسمى يوم الفراغ. ولا يمكن أن يكون إلا زائداً على تلك الستة وبعدها، لأن أيام خلق العالم الستة لا يمكن أن يراد بها أيام ناقصة غير تامة، إذ لفظ «ستة أيام» أطلق، والمطلق يراد منه الفرد الكامل. ولذلك أريد بهذه الأيام الستة بلا شك الأيام الكاملة. والوقت الذي يأتي بعد إكمال الأيام الستة هو الذي يسمى اليوم السابع، وهو يوم الاستواء. ولذلك يخرج من هذه الآية في شأن خلق العالم مجموع أيام العمل والفراغ سبعة أيام: ستة تصريحاً وواحداً كناية. وهذا اليوم الواحد لا يمكن يقيناً إلا أن يكون بعد إكمال الستة، كما أن لفظ «ثم» دليل واضح على بعديته عن الستة. فصارت المدة المجموعة لخلق العالم والفراغ منه، في ضوء النص القرآني، هي ذلك الأسبوع الواحد.

وكذلك في الأحاديث، لما قسمت المخلوقات على الأيام، وبدأ خلقها من الأحد وانتهى إلى الجمعة، ثبتت ستة أيام من تلك الرواية، وذكر يوم السبت صريحاً في حديث آخر سيأتي ذكره بعد. ولذلك فإن أيام الزمان السبعة كما خرجت من الآية، عدداً لا اسماً، خرجت كذلك من الأحاديث أيضاً، لكن تفصيلاً واسماً.

إجماع أمم العالم على أسبوع الدنيا

ثم إن هذا الأسبوع، بوصفه مدة الدنيا، كما يثبت بالتصريح القرآني والدلالة والحديث، يثبت كذلك بإجماع الأمم، وهو مما اتفقت عليه كبريات أمم العالم.

فعند اليهود يكون يوم السبت واجب التعظيم ويوم عيد. يقولون إنه يوم الراحة، وفيه استراح الحق تعالى بعد الفراغ من خلق العالم؛ أي إن خلق العالم بدأ من يوم الأحد وتم يوم الجمعة، فكان يوم السبت يوم الراحة. وإذا جاءت ساعات الراحة بعد الفراغ من عمل مهم، فهي بالطبع ساعات فرح. ولذلك ينبغي أن يكون هذا اليوم أيضاً يوم فرح وعيد ومهرجان. ومن هذا خرج ثبوت الأسبوع عند اليهود بنص الحديث.

وجعل النصارى يوم الأحد يوماً واجب التكريم وقرروا أنه عيد. يقولون إن ابتداء خلق العالم كان في هذا اليوم، والساعات التي يفتتح فيها أمر مهم تكون وقت فرح. ولذلك يعقد الناس المجالس عند افتتاح الأمور المهمة. وإذا وضعوا حجر الأساس لبناء، أظهروا الفرح بهذا الافتتاح في البناء. وإذا اكتمل بناء وبدأ استعماله، احتفلوا بذلك عادة. فلما كان يوم الأحد يوم افتتاح خلق العالم، كان ينبغي أن يكون هو يوم العيد. ومن هذا ثبتت الأيام السبعة عند النصارى أيضاً.

وقال المسلمون إن خلق الكائنات اكتمل يوم الجمعة، وصار العالم كله كاملاً مستعداً. والساعات التي يبلغ فيها أمر مهم حد الكمال تكون، بالنسبة إلى الصانعين والمستعملين، وقت الفرح الأقصى. ولذلك فالجمعة جديرة بأن تجعل يوم فرح وعيد. ومن هذا أيضاً ثبتت تلك الأيام السبعة نفسها.

وأما أن في هذا الأسبوع يوماً واحداً عند كل قوم يكون يوم فرح وعبادة، وأن اختيار قوم ليوم ما أنه ملائم للفرح ومناسب للعبادة، فإذا تأمل فيه ظهر أن نيل ساعات الفراغ والراحة بعد صنع الشيء لا يتعلق بتكميل الشيء، بل يتعلق بساعة راحة الصانع وفراغه. والفرح براحة الإنسان نفسه لا يتعلق بالفرح بتكميل الشيء، بل هو فرح مستقل لا يتعلق بابتداء الشيء ولا بانتهائه. ولذلك فإن فرح اليهود في الحقيقة لم يكن على إكمال خلق العالم، بل كان على الفراغ بعد صنعه، وهو فرح براحة الصانع. ولهذا لا يخرج في الفرح بالشيء إلا درجتان: إما افتتاحه وإما اختتامه، أي يوم الابتداء ويوم التكميل. ولذلك كان فرح النصارى والمسلمين في الحقيقة بخلق العالم، لا بالفراغ منه، لأن ذلك شيء زائد على الخلق. فإذا كان هذا الفرح متعلقاً بخلق العالم، وهو بلا شك متعلق به، فالفرح المعقول إنما يثبت في الحقيقة للنصارى والمسلمين.

لكن إذا تأمل في هذين الفرحين، كان فرح المسلمين أقرب إلى الفطرة وأوفق بها. لأن الفرح بابتداء الشيء يكون ولا شك، لكن الشيء نفسه لا يكون موجوداً في ذلك الوقت، أو لا يكون كاملاً. ولذلك، فإن كان هناك فرح، فهو على إرادة الشيء لا على نفس الشيء، لأنه لم يوجد بعد. نعم، الفرح بالشيء هو الذي يكون عند وجود الشيء، ولا يقال للشيء إنه موجود إلا عند تكميله لا قبل التكميل. ولذلك يثبت أن الفرح الكامل والفرح الأقرب إلى الفطرة هو فرح المسلمين، الذين جعلوا عيدهم اليوم الذي هو يوم تكميل خلق العالم، أي يوم الجمعة.

ويظهر أن جعل يوم الجمعة عيداً وتعيينه، مع الفرح، يوم عبادة كان أيضاً منشاءً إلهياً؛ لأن الحديث الصريح ذكر أنه وقع امتحان من الله لليهود والنصارى والمسلمين في شأن يوم الجمعة: أن يعين كل قوم يوماً واحداً من الأسبوع يوم عبادة، يكون يوم فرحهم الروحاني. فعين اليهود يوم السبت وقالوا إنه يوم الراحة. وعين النصارى يوم الأحد وقالوا إنه يوم الافتتاح. وعين المسلمون يوم الجمعة وقالوا إنه يوم التكميل، والفرح إنما يكون عند التكميل، حين يصير الشيء قادراً على إظهار منافعه.

ولذلك جعل في الشريعة الإسلامية عيد الفطر يوم فرح، لأنه الحد النهائي لتكميل الصيام. وجعل عيد الأضحى يوم فرح، لأنه الحد النهائي لتكميل مناسك الحج. وكذلك تماماً جعل يوم الجمعة يوم

عيد، لأنه كان يوم الحد النهائي لخلق العالم. ومن هذا اتضح أن جعل المسلمين الجمعة عيداً لكونه يوم التكميل كان موافقاً لذوق الشريعة. ولذلك قبلته الشريعة فوراً وجعلته شريعة.

وبالجملة، فكما ثبت من ذلك أن لكل أمة يوماً واحداً يوم عيد، ثبت كذلك أن عدد الأيام عندهم سبعة أيام، واتضح أن المدة الأصلية للزمان هي في الحقيقة سبعة أيام، وعليها إجماع كبريات أمم العالم.

ثم إن هذا اليوم السابع، أي يوم الاستواء أو يوم الفراغ، متعلق أيضاً بالعالم؛ لأن هذا الاستواء على العرش كان للتدبير والتصرف، وبه بقاء العالم. فإذا كانت الأيام الستة لتكميل حدوث العالم، فاليوم السابع كان لتدابير بقاء العالم. ولذلك كان اليوم السابع أيضاً متعلقاً بخلق العالم، لا يوم الراحة، كما يقول اليهود. فبقطع النظر عن أن الحق تعالى منزه ومقدس عن شوائب الراحة، فإن طلب الراحة مخالف أيضاً للواقع. وإذا كان هذا اليوم السابع فراغاً، فهو فراغ من خلق العالم، لا فراغ من العالم.

وعلى هذه الصورة، لما كانت مدة العالم كلها سبعة أيام، وكانت هذه المدة نفسها مصروفة إلى خلق العالم، فمعنى ذلك أن الزمان كله صرف إلى خلق العالم. ولذلك، إذا جعلنا العمر الكلي لمجموع العالم هو هذه الأيام السبعة نفسها وسمينا هذه المدة كل الزمان، فلا يكون ذلك بعيداً عن القياس. والفرق إنما هو أن هذه الأيام السبعة مرت على خلق العالم بلا تكرار، فبقيت مدة الخلق محدودة؛ وهذه الأيام السبعة نفسها تمر على بقاء العالم مع التكرار، فطال عمر العالم. والله وحده يعلم كم سيطول بعد ذلك.

وهذا بحث آخر لا تعلق له بموضوعنا، وهو أن يوماً واحداً من ذلك العالم يساوي ألف سنة من عالمنا هذا، وأن ذلك اليوم الواحد لا يتكون من دوران هذه الشمس، بل يوجد بدوران آخر. لكن هذا لا يحدث فرقاً في دعوانا أن المدة الكلية للزمان هي أسبوع واحد، وهو سبعة أيام، سواء كان اليوم كبيراً أو صغيراً. وبالجملة، فحاصل المقصود أن الليل والنهار الماديين تصنعهما الشمس المادية، وبطلوعها وغروبها يتكون الزمان، ومجموعه سبعة أيام وسبع ليال.

وكذلك تماماً، فإن الزمان الذي صنعته شمس النبوة بطلوعها وغروبها الروحانيين هو أيضاً سبعة أيام وسبع ليال. وهذه الأيام السبعة والليالي السبع نفسها تعود مرة بعد مرة على الإسلام وأعماله، وبها يطول عمره. وهذه الأيام السبعة أساسية وأصلية، ويتعلق بكل منها حادث عظيم وانقلاب فطري من حوادث الإسلام. فكأن بهذه الأيام تتعلق حوادث ووقائع فطرية تعود في الدنيا مرة بعد مرة من حيث الأصول، وتظل تشكل الأمور المهمة في الدنيا. ولذلك فإن أسبوع هذه الأيام الشرعية ليس، من حيث النوع، مخصوصاً بقرن واحد، بل سيأتي بالتكرار على كل قرن من قرون الإسلام.

فافهمه هكذا: منذ أن طلعت شمس النبوة أول طلوع، وهو ما نسميه الطلوع الجسماني، أي حين وقعت ولادته المباركة، تكون من ذلك أول يوم للإسلام، ونسميه يوم الولادة. ثم طلعت من الجهة

الروحانية، حين منحت له النبوة، فتكون اليوم الثاني للإسلام، ونسميه يوم البعثة. ثم طلعت من جهة الانتشار الروحاني، حين جمع القوم وأسمعهم الرسالة وأعلن نبوته، فكان ذلك اليوم الثالث للإسلام، ونسميه يوم الدعوة.

ثم طلعت شمس النبوة من جهة الاستقرار والتمكين، بحيث يقع نورها على القلوب بثبات، وذلك حين ترك مكة واتخذ المدينة مستقراً. فتكون من ذلك اليوم الرابع للإسلام، ونسميه يوم الهجرة. ثم طلعت بضوء التشدد والمدافعة الحاد، حين أذن له بالقتال والحرب، فتكون من ذلك اليوم الخامس للإسلام، ونسميه يوم القوة. ثم طلعت من سقف الغلبة والاقتدار، حين فتحت مكة، أو بعبارة أخرى العرب، على يده المباركة، فتكون من ذلك اليوم السادس للإسلام، ونسميه يوم الشوكة. ثم طلعت من جهة تكميل المقصد واختتام العمل، حين نزلت عليه هذه الآية الكريمة: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)، فتكون من ذلك اليوم السابع للإسلام، ونسميه يوم الإكمال. ويمكن أن يسمى أيضاً يوم الوداع واليوم الآخر.

فكما صنعت الشمس المادية سبعة أيام: يوم السبت، يوم الأحد، يوم الاثنين، يوم الثلاثاء، يوم الأربعاء، يوم الخميس، يوم الجمعة، وهي تعود مرة بعد مرة في عمر الدنيا كله، وبها يطول عمر الدنيا وحوادثها؛ كذلك صنعت الشمس الروحانية أيضاً سبعة أيام: يوم الولادة، يوم البعثة، يوم الدعوة، يوم الهجرة، يوم القوة، يوم الشوكة، يوم الإكمال. وهذه الأيام السبعة نفسها تعود مرة بعد مرة على الإسلام ومهمات الإسلام، وبها يطول عمر الإسلام ويتكون تاريخه. فكأن التاريخ يكرر نفسه، وتظل حوادث العالم تظهر متشابهة، وفي لون يشبه بعضها بعضاً، وإن اختلف لونها في كل دور.

وهنا يرد سؤال: أين يعود يوم الولادة؟ وكذلك يوم البعثة ويوم فتح مكة ويوم الإكمال ونحوها، فهي أيام مخصوصة بعهد النبوة. فكيف يمكن أن تعود في القرون اللاحقة حتى يسلم تكرارها؟

والجواب: لا شك أن هذه الأيام مخصوصة بعهد النبوة من جهة خصوصياتها، لكن إذا نظر إلى روحها العامة، فهي ذات صفة معيارية، وبهذه الصفة تأتي في كل دور وستظل تأتي. لأن روح الولادة الجسمانية الشريفة هي تعيين الشخصية المركزية التي يؤخذ منها عمل الإصلاح. وروح الولادة الروحانية، أي البعثة، هي تعيين نصب العين الذي يجرى في العالم. وروح الدعوة هي إعلان نصب العين الذي يتعلق به إصلاح العالم. وروح الهجرة هي تعيين المستقر والمركز البعيد عن الفتنة، الذي يستطيع نصب العين من خلاله أن يبلغ القلوب. وروح القوة هي تقوية نصب العين حتى تخضع له القلوب. وروح الشوكة هي الغلبة والاقتدار، وبها يغلب ضد نصب العين ويقهر. وروح الإكمال هي تكميل نصب العين، وبها لا يبقى لأحد مجال الفرار.

فإذا وضعت هذه الأرواح المذكورة لهذه الأيام السبعة وصفاتها الأصولية في النظر، اتضح أن هذه الأيام ليست مخصوصة بعهد النبوة، بل بطفيل النبوة لا بد في كل قرن، لكل نصب عين مهم واجتماعي، من هذه الأصول نفسها، أو بعبارة أخرى من هذه الأيام نفسها. فإذا أريد في دور من أدوار الانحطاط أن ينهض بالإسلام كله، أو بفرع من فروعه الدينية أو السياسية، في صورة

حركة، كأن يقوم مجدد للتجديد، فلا بد أن يمر بهذه المراحل السبع نفسها: تعيين الشخصية المركزية، وتعيين نصب العين، ونشر نصب العين، وتعيين المركز لنصب العين، وتوفير وسائل القوة لنصب العين، وحصول الغلبة والاقتدار لنصب العين، والتكميل العلمي والعملي لنصب العين.

ولما كانت هذه الأمور السبعة هي الروح الأصولية لتلك الأيام السبعة، فالنتيجة أن كل نصب عين لا بد أن يمر بهذه الأيام السبعة. وبعبارة أخرى، مثلاً، إذا قامت شخصية مقدسة لتجديد الدين وإحيائه، وبدأت العمل من رسم أولي، ثم شرحت معنويته، ثم ظهر منه انقلاب ديني، ثم استقرت القلوب عليه واطمأنت، ثم حصل له الغلب، وأخيراً تم المقصد وانتهى عمل المجدد، ففي هذه الصورة لا بد أن يكون المجدد قد مر بالأسبوع الشرعي. فكأنه ولد في يوم، وظهر في يوم، ودعا في يوم، واتخذ مستقراً في يوم، وهيأ وسائل قوة المقصد في يوم، وحصل على الغلبة في يوم، وأكمل المقصد وسلمه إلى الأمة في يوم. فمرت عليه تلك الأيام السبعة نفسها: الولادة، والبعثة، والدعوة، والهجرة، والقوة، والفتح، والإكمال.

فما معنى هذا إلا أن هذه الأيام، من حيث صفتها الأصولية والكلية، ليست مخصوصة بعهد النبوة، بل في كل دور، كلما جيء بنصب عين في صورة حركة، وقام رجال العمل، فلا بد أن يمروا بهذه الأيام السبعة نفسها. وستكون هذه المراحل السبع نفسها ضرورية لابتداء كل مهمة أصولية وانتهائها وارتقائها. ولذلك خرج حاصل المقصود: أن شمس النبوة أيضاً صنعت زمانها بنفسها مثل الشمس المادية، وهو أيضاً أسبوع من سبعة أيام، وسيظل يعود إلى القيامة. وبهذا تظل دعوة الإسلام وحركته ومقاصده الكلية والجزئية تمر بهذه الأيام، ويطول عمر الإسلام. وإلا فعمره الأصلي هو تلك الأيام السبعة نفسها، التي ينبغي أن تسمى أسبوع النبوة.

الليالي المقدسة لشمس النبوة

نعم، كما كان مجيء الليالي مع الأيام في الشمس المادية حكمة ومصلحة، فكانت الأيام تتكون من طلوعها والليالي من غروبها، ولذلك وضعت منازل الطلوع والغروب؛ كذلك كان وجود الليالي مع الأيام في الأسبوع الذي صنعته شمس النبوة عين الحكمة والمصلحة. ولذلك وضع هنا أيضاً طلوع وغروب، حتى تتكون من الطلوع الأيام الشرعية، وعند احتجابها عن الأبصار تظهر الليالي الشرعية.

فكما أن الشمس المادية، بتصريح الحديث النبوي، تغرب فتسجد تحت العرش وتطلب الإذن بالطلوع لليوم الآتي، فيؤذن لها ــــــــــ فتطلع بنور ذلك الإذن والإجازة وقوتهما فتنير العالم؛ كذلك فإن شمس النبوة أيضاً تصل إلى الحضرة الإلهية، وتنال من رب العرش، بالركوع والسجود والقيام والتشهد والذكر والفكر، نور كمالات الظاهر والباطن مع ترقيات لحظة بعد لحظة، وتطلب الإذن أن تطلع فتصنع النهار وتنير العالم في اليوم الآتي بالنور الذي حصلت عليه.

فهناك أيضاً عند الغروب حضور أمام العرش وطلب الإذن من مالك العرش، وهنا أيضاً عند الغروب حضور أمام العرش وطلب الإذن من رب العرش في شأن الحركة والكلام الآتيين. والفرق إنما هو أن الشمس المادية تذهب عند الغروب تحت الأرض، ولعلها تقف أمام الجزء الأسفل من العرش العظيم، وتؤدي سجدة العبودية. أما هذه الشمس الروحانية فإنها عند الغروب تعرج لا فوق الأرض فقط، بل فوق السماوات أيضاً، وتنحني أمام رب العرش تجاه الجزء الأعلى من العرش. أي إن روحانيتها تعرج، وتنقطع عن الخلق، وتفنى وتستغرق في الخالق.

فعروج الشمس المادية في دائرة الأرض، وعروج الشمس الروحانية فوق دائرة السماوات في اللامكان. وفي الشمس المادية يكون الإقبال إلى الماديات عروجاً، والذهاب إلى العرشيات نزولاً. وأما هنا، فالتقدم نحو الروحانية عروج، والإقبال إلى المخلوقات نزول. أي إن النزول عن المرتبة العالية الرفيعة والاختلاط بالمخلوق وإصلاحه نزول إلى أسفل، وليس صعوداً.

وبالجملة، فإن هذا الغروب وصنع الليالي كان ضرورياً أيضاً باعتبار شؤون النبوة المختلفة. فأيام النبوة ظهور الشؤون الإفادية لشمس النبوة، وفيها توصل إلى الكائنات نور العلم وحرارة الأخلاق. وليالي النبوة ظهور الشؤون الاستفادية لشمس النبوة، وفيها تأخذ من الحق تعالى نور العلم والأخلاق وحرارتهما، وتقطع هي نفسها درجاتها العالية، حتى تطلع على أفق الإنسانية فتضيء الكائنات كلها بالعلم والأخلاق.

لكن كما تصنع من غروب الشمس المادية سبع ليال، كذلك فإن الشمس الروحانية أيضاً، باحتجابها عن الأبصار أو ببلوغ مقام الغيبة، صنعت سبع ليال لأسبوع النبوة، وكانت ضرورية للترقيات الفردية. فغروب من غروب شمس النبوة هو الرحيل عن الدنيا والاحتجاب، وهو الغروب الأخير والنهائي. وهناك غروب جزئي يقع في الحياة الناسوتية، وحقيقته الغيبة عن هذا العالم أو كمال التوجه إلى العالم الأعلى. ومعناه الاحتجاب عن هذا العالم مؤقتاً.

وكما أن ابتداء أسبوع الزمان يكون أيضاً من الليل، ويستخرج اليوم منه، كذلك ابتداء زمان أسبوع النبوة يكون من الليل أيضاً، ومنه يخرج اليوم رأسه ويظهر وجهه المنير. فقبل الطلوع الأول لشمس النبوة، أي قبل البعثة، جاءت الليلة التي كانت أول ليلة للاستعداد النبوي في الذات النبوية، وهي مجموع ليال عدة كان فيها كثرة العبادة انجذاباً له: «يتحنث الليالي ذوات العدد»، أي كان يستغرق في العبادة ليالي معدودة. وفي آخرها جاءت ليلة الرؤى الصادقة، التي ابتدأت فيها النبوة بالرؤى الصادقة، وكان ما يراه من رؤيا يظهر واقعاً مثل فلق الصبح. وينبغي أن تسمى ليلة البداية، لأن الحديث: «أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة» استعمل فيه لفظ البداية والأولية، ومنه أخذ لفظ البداية. وبعد هذه الليلة طلعت شمس النبوة وخرج أول يوم للشريعة.

وبعد ذلك، لما صار شمساً وتوجه إلى عالم الغيب، جاءت الليلة التي ملئ فيها نور ذلك المشهد في شمس النبوة: أن مجموع الوحي الإلهي ينقل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، وتنزل في

ركابه جماعات الملائكة المقدسة، وتنزل بركات عالم الغيب مجتمعة على القلب المبارك. واسم هذه الليلة ليلة القدر.

ثم غربت شمس النبوة غروباً آخر، فجاءت الليلة التي ملئ فيها نور مشهد آخر في شمس النبوة، وهو أن حدود حوادث العالم ومقاديرها تعين، والأعمار والأرزاق والحصص التقديرية للمخلوق تشخص، وترسم في دفتر القضاء والقدر مخططات الأنظمة المادية والروحانية وتبلغ إلى الملأ الأعلى. واسم هذه الليلة ليلة البراءة.

ثم وقع غروب آخر لشمس النبوة، فجاءت الليلة التي ملئ فيها نور الاستعداد العظيم للأمور الاجتماعية، وألقي في القلب الصافي مشهد قوى مركزيتها، حتى يظهر في أيام الحج ظهور هذه الجمعية الكبرى. واسم هذه الليلة ليلة عرفة.

ثم غربت هذه الشمس الروحانية مرة أخرى وبلغت عالم الغيب، فجاءت الليلة التي أعطيت فيها قوة تجديد جميع تلك القوى الروحانية وتقويتها مرة بعد مرة، حتى تبقى قوية. واسم هذه الليلة ليلة الجمعة.

ثم غربت شمس النبوة غروباً آخر، أعطيت فيه قوة مشاهدة الفتن المخالفة لجميع الأنظمة الروحانية والمادية المعطاة، حتى تقوم في الذهن قوة الدفاع عن الأمور المنافية للنظام. واسم هذه الليلة ليلة الفتن، وقد أشير إليها في الحديث: «ماذا أنزل الليلة من الفتن، أيقظوا صواحب الحجر، رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»، أي: كم من الفتن قد نزلت هذه الليلة ظاهرة، يا ساكنات الحجر، أي الأزواج المطهرات، استيقظن واشتغلن بالطاعة والعبادة، ولا تنشغلن بإظهار اللباس والزينة. فكثير من المتلبسات في الدنيا عاريات في الآخرة.

ثم غربت شمس النبوة المنيرة للعالم غروباً آخر، فجاءت الليلة التي أريت فيها جميع مقامات العروج في دورات هذه الشمس، ثم منحت في النهاية شرف الاستغراق في عالم النور المطلق. وفيها بلغ نور النبوة نهاية شدته وقوته، وأحضر ذلك المقام الرفيع من النورانية الذي لم تصل إليه نجمة من الأولين ولا الآخرين. وخصوصاً أنه، بعد أن سيّر في مقامات العبودية، منح كذلك خطاب عبد الله الرفيع المنزلة. وأخيراً أري مخطط جميع الأنظمة الروحانية والأخلاقية والسياسية التي كان المراد أن يقام بحسبها على الأرض، في ضوء شمس النبوة هذه، نظام صالح. واسم هذه الليلة ليلة الإسراء وليلة المعراج، ويمكن أن نسميها أيضاً ليلة النهاية، التي أوصلت فيها قربات النبوة إلى النهاية.

وهذه الليالي السبع ملازمة للأيام السبعة للنبوة. وكما عادت أيام النبوة في كل دور وظلت تعود، كذلك لا بد أن تعود هذه الليالي بالتكرار لتكميل أسبوع النبوة. لأن هذه الليالي وإن بدت من جهة سطحها مخصوصة بعهد النبوة، إلا أنها من جهة روحها الأصولية ومنافعها العامة عامة لكل دور من أدوار الإسلام ولكل منفعة من منافع كل دور.

فروح ليلة البداية هي تكميل الاستعداد الذهني. وروح ليلة القدر هي انبساط الاستعداد الذهني ونزوله في العروق والأعصاب. وروح ليلة البراءة هي الانسجام الذهني مع مقادير حوادث العالم. وروح ليلة عرفة هي انطباع الشؤون الاجتماعية لتلك الحوادث في الذهن. وروح ليلة الجمعة هي تجديد هذه القوى الذهنية. وروح ليلة الفتن هي تعريف الذهن بطرق دفع وسد الفتن والفرص التي تسد الطريق. وروح ليلة المعراج هي الشغف الروحاني والذهني بالمقامات النهائية للقرب إلى الله، وتكميل الارتباط القلبي بمقامات التوجه إلى الخالق.

ومن الظاهر أن كل زعيم وقائد، وكل مصلح ومناد، يمر طبعاً بهذه المراحل السبع لحياته القيادية ونضجه الذهني، ولا بد له منها. فيجب أولاً أن يجمع قواه الذهنية، حتى يكون الرسم الأصولي الذي يأتي به أمام الدنيا منضبطاً مرتباً، ويكون تأثيره قوياً، ولا يكتمل ذلك إلا بالترتيب الصحيح. ثم يحدث فيها انبساطاً ذهنياً حتى يتكون البرنامج التفصيلي. ثم يضع حوادث الدنيا أمامه، حتى يتقدم العمل وفق النفسيات. ثم يفهم اللون الاجتماعي حتى يستطيع أن يصنع مجتمعاً صحيحاً. ثم يظل يجدد قواه الذهنية دائماً مرة بعد مرة حتى ينشأ في عمله العزم والثبات. ثم يراقب هفواته مراقبة شديدة، حتى لا يجد المخاطبون فرصة للاعتراض ولا يحدث تعطل في العمل. ثم يبقى متوجهاً بكليته إلى تكميل قواه الذهنية أيضاً، حتى لا يبقى خوف فساد داخله أثناء صناعة غيره.

ولما كانت هذه الحقائق هي روح هذه الليالي السبع التي لا بد منها لكل مصلح ومناد، فالنتيجة الطبيعية هي أن هذه الليالي السبع لا بد أن تمر فطرةً على كل مصلح وكل قائد وكل زعيم، وإلا فلا يتم عمل الإصلاح. ولذلك فإن هذه الليالي الشرعية أيضاً، مثل الأيام الشرعية، ستظل تعود مرة بعد مرة إلى القيامة، وسيظل أسبوع النبوة، بأيامه ولياليه، في حركة وتكرار.

ومن هذا اتضح أنه كما صنعت الشمس المادية بدورانها أسبوعاً واحداً، هو عمر العالم كله، وينبغي أن يسمى أسبوع الدنيا؛ كذلك صنعت الشمس الروحانية أيضاً بحركتها التشريعية أسبوعاً واحداً، هو عمر الإسلام كله، وينبغي أن يسمى أسبوع النبوة، أو من جهة عموميته الداخلية أسبوع الإسلام. وبتكرار أسبوع الدنيا يطول عمر الدنيا، وبتكرار أسبوع الإسلام هذا يطول عمر الإسلام. فبذلك تكتمل الحياة المعاشية، وبهذا تكتمل الحياة المعادية.

النظام الزماني

نعم، ثم لما كانت هذه الأيام التي صنعتها شمس النبوة منطبقة على هذه الأيام المادية نفسها، فليس الأمر أن شمس النبوة صنعت زماناً منفصلاً عن هذا الزمان في عالم آخر، بل حولت وجه هذه الأيام نفسها فجعلتها من مادية إلى روحانية. وكلما تعلقت نسبة شمس النبوة بهذه الأيام ولياليها صارت تلك الأيام والليالي مقدسة مقبولة.

وكذلك الأوقات التي جعلتها شمس النبوة ظرفاً لأعمالها وأورادها المنيرة، أخذت تصير طاهرة مطهرة. ولذلك فإن أسبوع النبوة زمان كلي محيط بالزمان المادي كله. أي كما أن الزمان الكلي الذي صنعته الشمس المادية يشتمل على ملايين ومليارات الساعات من الوقت، كذلك فإن أسبوع

الإسلام هذا، الذي صنعته شمس النبوة، هو زمان كلي، تدخل فيه مليارات الأيام الإيمانية والساعات المقبولة، وملايين الأيام، وآلاف الشهور والسنين. ومن هذا اتضح أن للشمس الروحانية أيضاً نظاماً مثل الشمس المادية، ففي أسبوع الإسلام هذا تأتي، في محالها ومواقعها، ليال وأيام ضمنية، وتبدأ الشهور والسنون وتنتهي، وتوضع الساعات والدقائق في مواضعها. وهكذا لم يتقدس الزمان الكلي فقط، بل الأوقات الجزئية التي في ضمنه أيضاً صارت مقدسة تحت هذا النظام. وفي النهاية استولت شمس النبوة على زمان هذه الشمس المادية كله وأدخلته في نظامها.

فمثلاً، في مواضع، اتخذت شمس النبوة لأورادها النظام الشمسي، وهو النظام الذي أقامته الشمس المادية بلا واسطة. وفي مواضع اتخذت النظام القمري، وهو النظام الذي أقامته الشمس المادية بواسطة. فمثلاً في عبادات الليل والنهار نفسها، التي تصرف فيها الساعات والدقائق، جعلت شمس النبوة النظام الشمسي معتبراً. فكأنها أدخلت نظامها الروحاني والمعنوي في النظام الحسي للشمس واتخذته لنفسها. فأوقات الصلوات يتعلق حسابها بحركة الشمس وتنقلها. فبعض أوقات الصلوات يتعلق بطلوعها وغروبها، كالفجر والمغرب. وبعضها يتعلق بمقدار حركتها، كالظهر والعصر. وبعضها يتعلق بآثارها، كالعشاء، إذ يدخل وقته بغروب الشفق. وكذلك أذكار الصباح والمساء متعلقة بالنظام الشمسي، كتسبيحات الصباح والمساء. ولما صارت هذه الأوقات أوقات ذكر وصلاة، صارت مقدسة، ودخل قسم كبير من الزمان في نظام الشمس الروحانية.

ومن جهة أخرى، اعتبر تحت هذا النظام نفسه، في عبادات الشهور والسنين، النظام القمري، وهو أيضاً نظام الشمس بالواسطة؛ لأن نور الشمس هو الذي يعمل في القمر. ومن ذلك تعيين أشهر الحج، أي شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة، وهي تقريباً شهران ونصف؛ واثنا عشر شهراً لوجوب الزكاة؛ وشهر واحد لأيام الصوم؛ أو خلوة الأربعين، مثل أربعين موسى، وهي شهر وربع؛ أو أربعة أشهر لمدة الإيلاء؛ أو ثلاثة حيضات لعدة الطلاق، أي ثلاثة أشهر تقريباً؛ أو أربعة أشهر وعشرة أيام لعدة وفاة الزوج. فبهذا أحاطت شمس النبوة بجزء عظيم آخر من الزمان.

ثم تحت هذا النظام الروحاني نفسه توجد أيام مخصوصة لعبادات مخصوصة، مثل الليالي العشر من العشر الأخير من رمضان، أو الأيام العشرة من أول عشر ذي الحجة، أو الأيام الثلاثة الأولى من العشر الثاني من ذي الحجة، التي تسمى أيام التشريق، أو يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، حيث ترفع أعمال بني آدم، أو أيام الجمعة، فأخذت هذه من النظام القمري وأدخلت في النظام الروحاني، وقام استيلاء شمس النبوة ونظامها على جزء آخر من الزمان.

ثم تحت نظام الأوقات الروحاني نفسه أخذت ساعات ولحظات كثيرة من الوقت إلى هذه الجهة، مثل ساعة ليلة القدر، وساعة الجمعة، وساعة في كل ليل ونهار وعد فيها بقبول الدعاء، أو لحظة إقامة صلاة الجماعة، أو ساعة بدء الجهاد والتقدم بالهجوم، أو ساعة لقاء مسلمين بالمحبة ومصافحتهما، أو ساعة القيام إلى التهجد والصلاة، وقد أخبر الحق تعالى في هذه عن رضاه،

وفي بعض الساعات عن نهيه. ومن الظاهر أن هذه الشهور والأيام والساعات وبعض اللحظات لم تصر مقدسة إلا لأنها أخذت ظروفاً لعبادات مختلفة. وهكذا قام نظام شمس النبوة على جزء كبير آخر من الزمان، وصارت هذه الأوقات تسمى أوقاتها. فكأن نظاماً مستقلاً وموازياً للشمس الروحانية أدرج في نظام القمر والشمس الماديين.

ثم تحت نظام الأوقات الروحاني نفسه أخبرت الشمس الروحانية أيضاً عن أوقات مقبولة لا تأتي في ساعة واحدة معينة، وليست محددة، لكنها بإخبارها عن احتمال مجيئها في كل ساعة جعلت الزمان كله مقدساً إلى حد ما. كما ورد في الحديث النبوي:

«ألا إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها»، أي: تنبهوا، فإن في أوقات لياليكم وأيامكم نفحات قبول من ربكم، فانشغلوا بطلبها وابحثوا عنها، لئلا تمر تلك الساعات المقبولة بسبب غفلتكم وتبقوا محرومين.

فهذا الحديث، بإيجاده احتمال التقدس والقبول في كل ساعة من الزمان بسبب العبادة، أدخل الزمان كله كأنه تحت النظام الروحاني وجعله مقدساً. ومن الظاهر أن العبادة ثمرة الاتصال بشمس النبوة. ولذلك، لما صار هذا الزمان كله ظرفاً للعبادة، يسمى زماناً صنعته شمس النبوة ويصير لها. بل إذا نظر إلى الأمر عملاً، كان كل لحظة وكل دقيقة من النبي الكريم صلى الله عليه وسلم مشغولة بالذكر والطاعة؛ أي إنه بسيرته الطاهرة أظهر عملياً أن الزمان كله مقدس. فقد ورد في الحديث:

«كان يذكر الله على كل أحيانه»، أي كان مشغولاً بذكر الله في كل لحظة.

وقال:

«كان دائم الفكرة حزيناً»، أي كان في جميع الأوقات متفكراً حزيناً من خوف الله وفكر الآخرة.

وبالجملة، فهذه أجزاء من الزمان جعلتها الشريعة نفسها، باختيارها وانتخابها، منضمة إلى نظامها ومختصة بها، سواء مع التعيين أو مع الاحتمال العام بلا تعيين. ومع ذلك، فإن الأجزاء الطويلة العريضة من الوقت التي لم تخصصها الشريعة بنفسها، لا بتعيين خاص ولا باحتمال عام، بل تركت لبني آدم أن يختاروها بأنفسهم ظروفاً للعبادة والطاعة، فمعنى ذلك أن في هذه الأوقات أيضاً صلاحية الانضمام إلى النظام الروحاني والصيرورة إلى القداسة. غير أن ذلك يظهر باختيار عباد الله الصالحين وأعمالهم، بشرط أن يعمروها بهذه الوظائف المقدسة. ويدخل في ذلك النوافل، والتلاوة، والأذكار، والجهاد، والهجرة، واستعمال القيم الأخلاقية، وجميع الطاعات الاختيارية التي يستطيع الإنسان، بإذن الله، أن يجعل بها تلك الأوقات غير المعينة مقدسة مقبولة باختياره. وهكذا يدخل جزء كبير آخر من الزمان تحت النظام الروحاني. وبهذا يصير الزمان كله تقريباً، بالفعل وبالقوة، مقدساً لأنه صار ظرفاً للعبادات والأفعال، ويصير طاهراً مقبولاً لأنه دخل في نظام الشمس الروحانية. ففيه عبادات تؤدى بأمر الشريعة، وأخرى يؤديها العبد بإذن الشريعة بإرادته. ولذلك فإن كل ساعة من ساعات الزمان، لأنها تصير ظرف

عبادة، سواء كانت بالقوة أو بالفعل، وباختيار شرعي أو باختيار العباد المقدسين، تصير مقدسة وتصبح ساعة من ساعات شمس النبوة.

لكن هذا الكلام كله كان في العبادات، إذ تجعل الزمان والمكان اللذين تقع فيهما مقدسين، لكونهما ظرف العبادة. وبهذا يدخل جزء عظيم من الوقت في نظام الشمس الروحانية. لكن الإنسان لا تصاحبه العبادة وحدها، بل تصاحبه أيضاً جيوش عظيمة من أفعال العادات والمعاشرة، مثل الأكل والشرب، والنوم واليقظة، والمجيء والذهاب، والمشي والحركة، واللبس والالتحاف، والأخذ والعطاء، واللقاء والمخالطة، والضحك والكلام، والسكن والمعيشة، والمحبة والعداوة، والصداقة والخصومة، والسلم والحرب، والمعيشة والمعاشرة، وغير ذلك. وفي هذه أيضاً يصرف جزء كبير من وقت الحياة الإنسانية، وهو يقيناً غير مشغول بالعبادة، ولذلك يبدو في الظاهر أنه يبقى غير مقدس كما كان، لحرمانه من آثار شمس النبوة. لكن إذا تأمل فيه، وجد فيه أيضاً ذلك النظام الشرعي نفسه لزمان شمس النبوة، وذلك أن هذه الأفعال في نفسها ليست عبادة، لكن الإسلام جعلها عبادة بطريق حسن النية والإخلاص واتباع السنة. ولذلك، فمن أداها بنية شرعية صارت عبادة، وفي أي جزء من الزمان وقعت على وجه العبادة جعلته مقدساً مقبولاً مثل الأوقات الشرعية. ومن الظاهر أنه بعد ذلك لا يبقى جزء من العمر خارجاً عن هذا النظام الروحاني أو مستغنياً عن نسبة شمس النبوة أو محروماً منها.

فالحاصل أن نظام الشمس المادية في التنوير وإفاضة الضوء محيط بالزمان كله، وكذلك النظام الروحاني لشمس النبوة محيط بالزمان كله. هناك يتكون نظام النور الحسي من الحركة التكوينية للشمس المادية، وهنا يتكون نظام النور المعنوي من الحركة التشريعية للشمس الروحانية. وكما أن ذلك النظام محيط بحياة الإنسان كلها، فكذلك هذا النظام محيط بحياته كلها.

ظهور الفصول من الزمان الذي صنعته شمس النبوة

ثم كما يتكون الليل والنهار من حركة الشمس، كذلك يظهر من أوضاع هذه الحركة وهيئاتها المختلفة ظهور المواسم والفصول. فإذا مالت عن خط الاستواء وأخذت تسير نحو الجنوب، جاء البرد وجاء فصل الخريف. وإذا صارت محور حركتها نحو الشمال، جاءت الحرارة وبدأ موسم الربيع وجاء فصل الربيع. ثم تقع آثار هذه الفصول والمواسم في أمزجة الكائنات وأشياء الكائنات ونفوسها. ففي موسم الربيع يكون في الأمزجة نهوض، وفي القوى شوق وحركة. وفي موسم الخريف يظهر في الطبائع كسل، وفي النبات والحيوان ذبول، وفي الجماد والمعادن يبوسة وجفاف. ثم بمقتضى هذه الفصول المختلفة تنبت أزهار وثمار وحبوب وفواكه وأعشاب مختلفة، وتظهر آثارها في أمزجة الأحياء. وبهذا تظهر آثار الشمس المادية في جميع المواليد والموجودات المتولدة؛ أي إنها ليست مؤثرة في المكان والزمان فحسب، بل في الأعيان أيضاً، ويصل تأثيرها إلى كل شيء زماني ومكاني، بل إلى داخله، سواء كان جماداً أو نباتاً أو حيواناً أو إنساناً.

ثم لما تنزل الأمطار من الفضاء السماوي بمقتضى المواسم، تأتي الحياة إلى الأرض والبحر ومخلوقاته أيضاً. فإذا نزل مطر نيسان، تولد اللؤلؤ في الصدف البحري. ومنه يظهر الياقوت البدخشاني. ومنه أيضاً تتولد الألماس والياقوت الأزرق في المعادن. وبهذا يظهر أن أثر الشمس المادية، الظاهر في الفضاء وتحت الأرض إلى جوفها، يعمل تحت عرض السماء، في الجو والفضاء، وعلى سطح الأرض، وفي جوف الأرض، وعلى سطح البحر وفي أعماقه، في صورة تأثيرات شمسية. وبهذه تبقى مصالح العالم قائمة وتعمل مصانع العوالم.

وكذلك تماماً، كما تتكون من السير الشرعي لهذه الشمس الروحانية الأزمنة الروحانية والأيام والليالي الروحانية والأسابيع الروحانية، كذلك يظهر منها، تحت النظام الشرعي، ظهور الفصول والمواسم الروحانية. وتظهر تلك المواسم والفصول التي تتعلق بها أمور مختلفة معادية وأخروية. فقرن النبي الطاهر، أي خير القرون، وأزمنة تجديد المجددين للدين، وغلبة الصالحين والأتقياء، وأوقات الصلاح والرشد، لها في الأيام الروحانية منزلة موسم الربيع. ففي القلوب انبساط، وتظهر ساعات نمو بذرة السعادة ونشوئها، وتنشأ في كل قلب استعدادات قريبة لنبات شجرة الإيمان وإخراج ورقها وثمرها. وكل أحد، عامياً كان أو غيره، يجد في ضميره خيراً، وينهض الإيمان والعمل الصالح تلقائياً في القلوب السعيدة. فكأن بذرة الخير إذا غرست في قلب كاذب أيضاً، أنبتت تلك البذرة برعماً وصارت في مدة قليلة شجرة باسقة.

نعم، فإذا حصل البعد عن تلك الأزمنة، كان ذلك موسم خريف تلك الروحانية، وفيه تكون القلوب ذابلة، وينشأ الفتور من جهة الدين، وتضعف القوى العلمية والعملية وتسترخي، وتظهر الفتن وتنقص الأمانة، وتختفي الأخلاق الفاضلة وتنشط سوق الأخلاق الرديئة. ويعلو الكفر والتمرد، وتبقى المشاكسة والوقاحة ظاهرة. وبالجملة، ففي بعض الليالي والأيام يظهر:

«سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين»، أي سيروا في هذه الأرض ليالي وأياماً آمنين.

وهذا دور الأمانة. وفي زمان آخر يظهر:

«في يوم نحس مستمر»،

و:

«في أيام نحسات».

وهذا دور الفتنة. فالأول موسم الربيع الروحاني، والثاني موسم الخريف الروحاني.

فإذا كانت الشمس المادية تأتي بموسم البرد، وفيه يأتي فصل الربيع، وهو زمان الأزهار والثمار، فهذا أيضاً وقت فصل الربيع الشرعي الذي تقيمه شمس النبوة بتصرفها الروحاني، وفيه تنبت الأزهار والثمار الروحانية. أي إن ليلة الشتاء طويلة، فيسهل التهجد وقيام الليل حتى على عشاق النوم. ولذلك ورد في الحديث النبوي:

الشتاء ربيع المؤمن»، أي إن موسم الشتاء فصل الربيع للمؤمن».

أو لهذا سمي العصر النبوي خير القرون، إذ كان نور النبوة ونور الصحبة يضيئان فيوضحان طريق الخير والشر. وسمي عصر التابعين خيراً أيضاً، ولكن في الدرجة الثانية. فكأن هذه كلها أجزاء عالية ودانية من موسم الربيع، غلب فيها الخير والروحانية على الدنيا. ولما صارت القرون اللاحقة خريفاً، يرسل المجددون مثل سحاب المطر، فتصير أرض القلوب الميتة حية خضراء مرة أخرى.

ثم كما أن لكل موسم في الماديات أزهاره وثماره الخاصة، ففي موسم المانجو، وفي آخر التفاح والبرتقال، وفي آخر العنب والرمان والتمر ونحوها، كذلك فإن أزهار ورياض وثمار وأوراق هذه الفصول الروحانية مختلفة أيضاً. ففي موسم تظهر بتأثير شمس النبوة أزهار وثمار شرعية. وفي عصر مجدد تكون التجليات القرآنية بلون الديانات. وفي عصر آخر تظهر بلون سياسي. وفي عصر تكثر الأعمال. وفي عصر آخر ينمو العلم والاستدلال والحجة والبرهان. وفي عصر يكون لون التجديد صوفياً، وفي آخر كلامياً. وفي عصر يدور دور إعلاء الحديث، وفي آخر تنشط سوق الفقه والتفقه. وبالجملة، تأتي في الأزمنة المختلفة فصول روحانية مختلفة، وتجلب ما يناسب حالها من الأزهار والثمار والأوراق والنتاج. وهذا كله ثمرة التأثيرات والتصرفات الخفية لشمس النبوة، كما تظهر في المواسم المادية تأثيرات الشمس المادية المختلفة. وبالجملة، فالساعة التي تلقي عليها شمس النبوة ظلها النوراني، أو على وضع من أوضاعها وفصل من فصولها، تصير تلك الساعة مقدسة. وبهذا ينتشر النظام الروحاني المستقل لشمس النبوة على جميع دورات هذه الليالي والأيام وحركاتها، ومنه تتضح شمولية آثارها وعموم فيضانها.

الأيام المسماة

ثم من الظاهر أن هذه الأيام والليالي التي صنعتها الشمس المادية مواضع وظروف تقع فيها الأعمال المختلفة والمهام. وكثير منها تاريخي، له شأن امتيازي وشهرة عامة بالنسبة إلى الأيام العادية. أي إن الماديين إذا جعلوها ظروفاً لعمل مهم واجتماعي لهم، نسبت هذه الأيام إلى الشخصيات المهمة أو إلى أعمالهم وأدوارهم المهمة، وصارت تسمى بأسمائهم. فتسمى أيامهم، وتحتفل بها الجماعات كالأعياد. مثل أيام ولادة مقتدى الأديان أو وفاتهم، أو أيام أعمالهم التاريخية، فينسبها الناس إلى تلك الحوادث ويحتفلون بها بوصفها «يوماً». وتصير هذه الأيام تاريخياً أياماً لتلك الشخصيات، مثل «يوم كريشنا» عند الهندوس، أو «يوم الحسين» عند المسلمين، أو «يوم المسيح»، اليوم الكبير، عند النصارى، أو «يوم غاندي» و«يوم تيلاك» عند السياسيين، ونحو ذلك. أو مثل الأيام التي تنجح فيها جماعات سياسية في كفاح الحرية، فيحتفلون بها باسم «يوم الحرية». أو يعطونها اسم «يوم الجمهورية» فيحتفلون بيوم ميلاد الحكومة الدستورية. أو في زمن الصراع السياسي، عند موت المتطوعين مظلومين، يحتفل بيوم باسم «يوم الشهداء». أو يسمى يوم جلوس ملك على العرش «يوم الاحتفال». أو يحتفل باليوم الأول من السنة باسم يوم الذكرى السنوية، وغالباً يبدأ التاريخ الرسمي لذلك البلد، على سبيل الذكرى،

من ذلك اليوم. أو يحتفل باليوم الأول من عمر السلاطين والأمراء كل سنة باسم يوم الذكرى. وبالجملة، فصنع الأيام عمل الشمس، لكن الماديين يتخذونها بسبب نسبتها إلى عمل مهم عظيم أو شخصية مهمة عظيمة، ويسمونها بأعمالهم، ويشهرونها سنة بعد سنة.

لكن إذا تأمل في الحقيقة، فإن التخصيص النظامي ليوم من أجل عمل، وجعله مع النسبة يوم اجتماع، هو في الأصل حق النبوة وشمس النبوة؛ لأن هذا التخصيص وضع في الحقيقة لدائرة الدين نفسها. وقد قلدته الدنيا المادية أو سرقته، وبدأت استعماله للحكومات أو الأعمال الحكومية أو الشخصيات الحكومية. مع أن هذا التخصيص لم يكن جائزاً في الأعمال الدينية أو الشخصيات الدينية إلا بإذن الدين، فكيف يسرق هذا الأسلوب الشرعي للعمل من أجل الأعمال والشخصيات الدنيوية؟

فإن وقعت هذه السرقة في أمور ذات هيئة دينية بلون الدين، واستعملت على وجه العادة والرسم، وجعلت هذه الأيام بهذا اللون دينية في الاعتقاد، فهي مذمومة، لأنها تصرف في حق شرعي وتغيير لمصرفه. وإن استعملت في أمور دنيوية خالصة، فهي مداخلة في حقوق الأيام الدينية، وذلك لا شك أنه في غير موضعه.

نعم، إذا أعطت شمس النبوة هذه الأيام صفة اجتماعية وأدخلتها في نظامها تذكاراً لمهمة شرعية، كان ذلك حقاً. مثل أنه بعد صيام ثلاثين يوماً من رمضان، سمي أول شوال «يوم الفطر» واقترح الاحتفال به كـ«يوم»، وملئ بعبادة الصلاة. أو مثل أنه في موسم الحج، ضمن المناسك، تذكاراً للقربان الإبراهيمي، سمي العاشر من ذي الحجة «يوم النحر» وجعل «يوماً»، وملئ بعبادة الصلاة والقرابين حتى يكون علامة لأداء الشكر. أو مثل يوم نجاة موسى عليه السلام أو يوم الحرية، وهو آخر يوم من العشر الأول من المحرم، سمي «يوم عاشوراء» وجعل يوماً خاصاً، وملئ في البداية بعبادة الصوم المفروض ثم بعد ذلك بالصوم النافل، حتى تبقى ذكرى تلك الفرحة متجددة في الدنيا إلى الأبد. أو مثل يوم افتتاح عبادة الحج الاجتماعية العظيمة، سمي «يوم التروية» وأعطي شأناً امتيازياً، حتى تبقى أهمية افتتاح هذه العبادة وعظمتها ظاهرة إلى القيامة، وغير ذلك.

فهذه هي أيام الله، التي يذكّر بها خاصة في ضوء:

وذكرهم بأيام الله»، أي وذكرهم بأيام الله».

فالأيام الدنيوية المذكورة يذكر بها أهل الدنيا بالاحتفال بـ«الأيام»، وهذه أيام الله يذكر بها أهل الله بالاحتفال بـ«الأيام». لكن تعيين اليوم والاحتفال به في الحقيقة حق الشريعة. وقد أثبت أهل الدنيا المداخلة في الدين بجعل نظام دنيوي مواز لنظام الدين وتعيين الأيام. وكذلك أثبتت الطبقة الجاهلة من أهل الدين المداخلة في الدين بلون الدين، حين عينت من تلقاء نفسها أياماً باسم الدين وأهل الدين، وجعلت أعياداً للاحتفال بها، مثل اليوم الحادي عشر، واليوم العاشر، واليوم الثالث، ويوم

الذكرى السنوية للوفاة، أو يوم ولي من الأولياء، أو يوم الصديق، أو يوم الفاروق، ونحو ذلك. وهذا أقبح من الأول، لأنه يحدث في الدين التباساً وتلبيساً.

وبالجملة، فالشمس الروحانية صنعت زمانها بنفسها مثل الشمس المادية. وضعت الليل والنهار بنفسها، وهيأت الشهور والسنين بنفسها، وصنعت المواسم والفصول بنفسها، وأدخلت فيها النسب بنفسها. وهكذا أقامت، إلى جانب النظام المادي للزمان كله، نظامها الروحاني الشامل. وبذلك عم فيضانها العام على وجه منظم، من المكان إلى الزمان، ومن سنة الزمان إلى شهره وأسبوعه وساعته. وهذا دليل واضح على السعات العالمية لشمس النبوة وعموم فيضانها. ولما بلغ هذا العموم مرتبة الثبوت بهذه الشبه المذكورة مع الشمس المادية، دخل بلا شك تحت دلالة «السراج المنير»، وصار مصداقاً لتلك الآية. فلله الحمد والمنة.

شمس النبوة والاجتماعية الكبرى

إذا زيد التأمل، فإن هذا الطلوع والغروب لشمس النبوة، الذي تكونت منه ليالي النبوة وأيامها، هو طلوع وغروب من حيث الصورة، وإلا فهو في الحقيقة عروج ونزول، وليس له إلا صورة الطلوع والغروب. فإذا توجهت شمس النبوة من عالم الشهود هذا إلى عالم الغيب، وهو ما عبرنا عنه بالغروب، فليس ذلك غروباً حقيقياً، بل كان عروجاً إلى مقامات القرب. وإذا توجهت من عالم الغيب مرة أخرى إلى عالم الشاهد، وهو ما سميناه طلوعاً، فليس ذلك في الحقيقة طلوعاً، بل كان نزولاً إلى خلق الله حتى ينتفعوا بالنور الغيبي. لذلك فليس هذا الطلوع والغروب حقيقياً، بل هو بمعنى العروج والنزول. والطلوع الحقيقي واحد، وهو تشريفه صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا. والغروب الحقيقي واحد كذلك، وهو تشريفه إلى العالم الأعلى. ولذلك ينبغي أن يفهم أن اليوم الذي خرج من طلوع شمس النبوة كان يوماً واحداً مقداره ثلاث وستون سنة، وكان يقع فيه هذا العروج والنزول. ولهذا، إن كانت هناك ليلة حقيقية، فهي الزمان السابق للولادة والبعثة، حيث ظلت نجوم النبوة تلمع بمئات الألوف. وهو الزمان من آدم عليه السلام إلى زمان الولادة النبوية، وهو يقارب سبعة آلاف سنة. فكأن ليلة روحانية طويلة مقدارها سبعة آلاف سنة مرت على العالم، وبعدها خرج النهار، وكان ذلك النهار ثلاثاً وستين سنة. فإذا قسمت لهذا النهار سبعة أجزاء، كانت سبعة أجزاء كل واحد منها تسع سنوات، ومعنى ذلك أن تسع سنوات من خاتم النبوة تعادل ألف سنة من النبوات السابقة. فالذي أدته تلك النبوات في أدوار مقدار كل منها ألف سنة، أداه خاتم النبيين في تسع سنوات. والمدة الأربعينية من الولادة الشريفة إلى البعثة، وإن لم تسم مدة النبوة، فهي لا شك مدة مبادئ النبوة وظهور فطرة النبي الطاهرة، وينبغي أن تفهم من متعلقات النبوة.

وعلى كل حال، فأعظم فيض لطلوع الشمس بعد الصبح الصادق هو وجود النهار المشرق، وهو خاص بالشمس وحدها، ولا يشاركها فيه نجم واحد، بل ولا النجوم كلها مجتمعة. ومن الظاهر في هذه الصورة أن خصائص النهار يمكن أن تكون مختصة بالشمس وحدها لا بالنجوم. وإن كانت للنجوم خصائص، فهي خصائص الليل لا خصائص النهار. وخصائص الليل هي أن الناس

يستريحون من الجهة الجسدية. وتتعطل الأعمال العامة والشؤون الجماعية، مثل المعاملات المدنية، والأخذ والعطاء، والاختلاط، والمعاشرة العامة، ونظام الأمة، والمهام الإدارية والسياسية، والمعاهدات القومية، والمعاملات الدولية، والحرب والجهاد، والفتوحات الملكية. وفي باب المعاملات، لا يؤدى غالباً إلا شيء من الحقوق الواجبة للأهل والعيال، أو الأقارب، أو إذا زيد قليلاً فحقوق الجيران، ويعد ذلك كثيراً. نعم، إذا اشتغل الروحانيون بالعبادة روحياً، فإنهم يؤدون فرائض العبودية فرادى مع الخلوة. وإلا فمحل العبادات الجماعية عادة وعموماً ليس الليل. ولذلك سمى القرآن الحكيم النهار معاشاً والليل سكناً. فالنهار وقت حياة العمل والاختلاط، والليل وقت السكون والانفراد. وبعبارة أخرى، النهار زمان الاجتماعية، والليل زمان الفردية والانقطاع.

وكذلك تماماً، قبل طلوع شمس النبوة، إذ كانت الليلة الروحانية الطويلة، فإن النظر في أديان العالم يدل على أن الفردية، بل الانقطاع، كان غالباً فيها. كان الأصل أن يعبد الإنسان منفرداً. ولم تكن في الدين حياة جماعية ولا هيئة جماعية. وكان يظن أن ذكر الخالق لا يمكن إلا بالانفصال عن الخلق. وكانت العزلة والرهبانية والخلوة أصل العبادة. وكان الناس يعدون الوصول إلى قمم الجبال والفيافي وشواطئ الأنهار، والبقاء مشغولين بالرياضات، هو الروحانية. ولم يكن لهم، في سبيل إكمال الروحانية، تعلق بشؤون الدنيا المدنية والسياسية. وكان معنى الدين نفسه هو مجرد الرابطة بين العبد والله. كان الملك منفصلاً والدين منفصلاً. وكان رجال العمل في كل دائرة منفصلين، كأنهم خصصوا بطريق التجزئة القومية. وكانت روابط الاختلاط والمعاشرة مع الخلق تعد منافية للروحانية. ففي دين ما كان النكاح والاتصال بالمرأة منافياً للروحانية، فكانت أول درجة في الترقي الروحاني ترك النكاح. وفي دين آخر كانت الحياة المدنية منافية للروحانية، فكان ترك البيت والأهل والأرض والملك والعلاقات كلها، والجلوس في الغابات والجبال، أعظم عبادة. وفي دين آخر كان الانتفاع بنعم الأكل والشرب واللباس والغطاء منافياً للروحانية، فكان ترك اللذات، والعيش على أوراق الغابة والنبات، وربط خرقة واحدة من مئزر بدلاً من اللباس، أو لبس الجلد، والاكتفاء بالاستجداء في الطعام، أعظم زهد وتقوى، وروح التواضع والانكسار.

وبعبارة أخرى، صار تعذيب الجسد ديناً بدلاً من تعذيب الروح. لذلك كان الانتحار، وإلقاء النفس من الجبال للهلاك، والموت غرقاً في الأنهار، وإشعال النار من الجوانب الأربعة وإحراق النفس في الوسط وشويها، والجلوس على الشوك والمسامير وثقب البدن، يعد رياضة دينية. وحاصل ذلك هو تعذيب الجسد مع الانقطاع عن الخلق وتفريغ النفس من جميع مقتضيات البشر. لأن هذا كان دور الليل الروحاني، وفي الليل لا يدور إلا دور الفردية. أما الاجتماعية فلا تغلب فيه، وإنما تغلب فيه الوحدة لا المعاملات بين الذوات.

ولا يلزم من ذلك أي اعتراض على أنبياء الوقت أو الشرائع الإلهية. فهذه التضييقات كلها، والانقطاعية والفردية في الأحكام الدينية، كانت مقتضى جبلات ذلك الزمان. فكلما قويت القوى النفسانية، اشتد الميل إلى الدنيا ولذائذها. ولرفع الناس عنها كان يطلب منهم من المجاهدة والرياضة بقدر ذلك، إذ لا يمكن بغير ذلك أن تقبل النفوس القومية هذه الروحانية. كانت الأمم

السابقة شديدة جداً من جهة قواها النفسانية، وكانت جبلاتها وطبائعها غارقة إلى درجة عظيمة في محبة جاه الدنيا ومالها، حتى لو أعطيت شيئاً من السعة في الشوكة الدنيوية والثروة ولذات الدنيا، لودعت نفوسها المنحرفة الدين كله ووقفت على الدنيا المحضة، ولما كان لها تعلق بدين الحق أبداً. ولذلك لم يكن دينها يتم بوجه من الوجوه إلا بهذه الوحدة الكلية والانقطاع عن اللذات. وبعبارة أخرى، لم يكن دين ذلك الزمان قادراً على السير جنباً إلى جنب مع تمدن الدنيا، ولم تكن طبقة واحدة من الدنيا في ذلك الوقت قادرة على الجمع بين الدين والدنيا. وكان حامل الدين هو تلك الطبقة التي تقطع الصلة بالدنيا كلية وتتخذ العزلة بالرهبانية. ولذلك فصل الدين عن الشوكة الدنيوية، وأعطي الملك لطبقة، وصارت طبقة أخرى حاملة للروحانية، منعزلة تماماً عن الدنيا، محبوسة في الكنائس والزوايا والصوامع والمعابد. وكان عليها، بمجرد خروجها من تلك الزوايا، خطر أن تخطف الشياطين دينها، وأنها إذا قربت من التمدن وأدواته لم تستطع حفظ دينها بوجه. فكانت روحانية النفوس الضعيفة والنفسانية القومية الشديدة سبب هذه الفردية والانقطاع، لا، معاذ الله، نقصاً في القوة الروحانية للأنبياء أو نقصاً في الدين. ولذلك كان ينزل لهم من الدين بقدر ما تستطيع طبائعهم تحمله طبعاً. ولم تكن فيه جامعية، لأن الطبائع نفسها لم تكن جامعة حتى تتحمل الدين الجامع.

لكن ما إن طلعت شمس النبوة وخرج نهار الروحانية، حتى بدأت الفرديات تنتهي طبيعياً وتتحول إلى الاجتماعيات، لأن الدين الجماعي لا يكون فيه طبعاً وقت للوحدة، بل يكون وقت الجلوات والأعمال الجماعية. فلما أشرق نور شمس النبوة بدأت الطبائع تميل إلى الدين الجماعي والروحانية الجماعية، وأخذت تطلب بندائها الصامت ديناً لا يكون معه انقطاع عن الدنيا، وتكون معه السياسة ونظام الأمة مجموعين مع الديانة، وتكون الاجتماعية مخلوطة بالفردية. فقد ظهرت آخر أمة في العالم، وكانت تملك أمامها تجارب الأمم والشعوب السابقة من جهة العلم. وكان مقتضى رد الفعل الطبيعي لإفراط القوى الأولى أن تكون الأمة الأخيرة معتدلة المزاج لا مفرطة ولا مفرطة في التفريط. فلم تكن قواها النفسانية في هيجان يجعلها تهرب من تصور الدين والروحانية مع لذات الدنيا، ولم تكن متقشفة زاهدة ضيقة النظر بحيث تفنى منها مادة الدنيا ولذاتها، بل كان فيها امتزاج معتدل بين القوى النفسانية والقوى الروحانية، بحيث صارت أهلاً للجمع بين الشوكة الدنيوية والدين، وبين الروحانية والشوكة الدنيوية. كانت تستطيع أن تجلس على عرش السلطنة وتبقى درويشة، كما فعل الخلفاء الراشدون والسلاطين الصالحون. وكانت تستطيع أن تلبس كساء الدروشة وتنظم الأمة، كما أظهروا ذلك عملاً. ولذلك جعل الملك والدين توأمين، وأرسلت نبوة جامعة كاملة تحمل الجلال والجمال، والقهر والرحمة، والديانة والسياسة في آن واحد. وبسبب هذا الامتزاج الكامل بين الدين والدنيا منحوا منصب الاستخلاف في الأرض. فلم يعطوا ملكاً مجرداً بلا دين، ولا ديناً مجرداً بلا شوكة. ولذلك أعلن في شأن الدين بلا شوكة:

«لا رهبانية في الإسلام»، أي لا عزلة ولا انقطاعية في الإسلام.

وفي شأن لذات اللباس والطعام بين أنها يمكن أن تجتمع مع الدين:

قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق»، أي قل حتماً: من حرم زينة الله» والرزق الطيب الذي خلقه الله لعباده؟

:وبين أن كون الإنسان صاحب بيت وأهل لا ينافي الدين والروحانية، بل يعين الدين

النكاح سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني»، أي النكاح سنتي، فمن أعرض عن سنتي فليس» .من جماعتي

:واتخاذ البيت والأهل، واكتساب الأرض والملك، ليسا ضد الدين حتى لا يجتمعا معه

.والله جعل لكم من بيوتكم سكناً»، أي جعل الله بيوتكم لكم سبب سكون»

وفي النهاية أعلن صريحاً أن الدين والملك في هذا اليوم قد جمعا، كما يولد التوأمان ملتصقين :بالفطرة، لا يستطيع أحد فصلهما، وإذا فصلا ضاعا جميعاً

الملك والدين توأمان. الله أمرني بهذه الأشياء: الجماعة، والسمع والطاعة، والهجرة والجهاد»» .((تفسير ابن كثير

:ثم

.«الإمام جنة. ومن لم يعرف إمام زمانه فقد مات ميتة جاهلية. والجهاد ماض إلى يوم القيامة»

ثم جعلت العبادات أيضاً جماعية. فالصلاة صارت بالجماعة، ولا بد لها من إمام. والحج صار بالجماعة، ولا بد له من إمام. ونظام الزكاة صار جماعياً، ولا بد له من وجود إمام أو قائم مقامه. والسفر صار جماعياً، ولا بد فيه من اختيار أمير. وتدبير المنزل صار جماعياً، ولا بد فيه من :أمير البيت

.كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»، أي كل واحد منكم حارس، وسيسأل عن من تحته»

وزال التفريق بين الدنيا والدين، وبين أن كل دنيوي يمكن أن يكون دينياً مع دنياه كلها، وأن كل طبيعي يمكنه أن يجعل جميع أموره الطبيعية شرعية بربطها برابطة النية والاتباع. أي إن الأمور الطبيعية جعلت أموراً شرعية. فأكل الطعام، والذهاب إلى الزوجة، والنوم مضطجعاً، وقضاء الحاجة، جعلت موجبة للأجر إذا كانت على طريقة السنة. وعيادة المريض، والسؤال عن حاله، واتباع الجنازة، وغسل الميت، وتعزية أهل الموتى، والمشاركة في التجهيز والتكفين، وخدمة الزوجة، وتربية العيال، ورعاية العبيد، والشفقة على الأيتام، ونصرة المظلومين، وقمع المتمردين، والقصاص من القاتلين، ومعاقبة السارقين، وتعزير شاربي الخمر، ومجازاة المقامرين، وقتال المفسدين، جعلت عبادة وديناً. وصارت التجارة والصناعة والحرفة والوظيفة جزءاً من الديانة. وصارت الدولية، وما بين الأوطان، والقومية العالمية، والتنظيم العالمي، أي الخلافة، رؤوس الدين. وصارت الإمارة والشورى والعسكرية من أصول الدين. وصارت

محاولة إبقاء الفردية بالاستجداء مذمومة. وعدت اليد العليا خيراً من اليد السفلى. وكل شيء يسند فيه الواحد الآخر عد عبادة وقربة وطاعة، سواء كان بالقول أو بالفعل، أو بالأخلاق أو بالإشارة. وأعلن:

والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»، أي إن الله تعالى يعين عبده ما دام العبد يعين» أخاه.

نعم، أقيمت الحدود الشرعية لهذه الأشياء كلها، وبين أن الإسلام لم يأت لسحق القوى الفطرية، بل لوضعها في مواضعها. ولذلك سيستعمل كل قوة، شهوة كانت أو غضباً، سبعية كانت أو ملكية، لأن الإنسانية لا تتكون إلا من مجموعها كلها. فبقاء هذه القوى بقاء الإنسانية، بشرط أن تبقى داخل الحدود المبينة والنظام المقرر. ولذلك صار شكل هذا الدين، بسبب هذا النظام الملي والاجتماعي، مثل الملك، ودخلت فيه جميع لوازم الحكم. وليس لذلك سبب إلا أن هذا النور هو نور شمس النبوة. وكما أن الشمس آخر كوكب لا يعمل بعده نور نجم، كذلك كان نوره ودينه آخر دين، وكان لا بد أن يبقى إلى القيامة. والبقاء الدائم لا يكون بالفردية، لأن الأفراد كلهم عابرون وفتنيون. ولو كان هذا الدين فردياً لانتهى بانتهاء الأفراد، كما كانت الأديان السابقة فردية فانتهت بانتهاء الأفراد. وكان كلما انتهى دين سابق جاء دين جديد. ولذلك لم يحصل لأي دين منها بقاء دائم. أما هذا الدين، فلما كان آخر دين، جعل جماعياً. قام لا بالأفراد فقط، بل بالأصول والجماعة. فصارت السنة والجماعة فيه أصلاً، لا مجرد الأفراد. ولذلك مضى الأفراد، وبقي النظام الجماعي والأصول، وهي لا تنتهي بانتهاء الأفراد. فبقي الدين، وسيبقى إلى قيام القيامة.

وعلى كل حال، اتضح من هذا أن خاصية الليل المادي هي الفردية والانقطاع، وخاصية النهار هي الاجتماعية والمعاشرة العملية، وكذلك كانت خصائص الليل الروحاني فرديات دينية ورهبانيات. فلما خرج النهار عند طلوع شمس النبوة، انتهت تلك الانقطاعيات بنفسها، وظهر فجأة دور الحياة الجماعية، وهو ما لا يظهر إلا في ضوء النهار. وفيه اجتمع الدين والملك في آن واحد، وأظهر صورة التنظيم الجماعي والنظام الاجتماعي. ولذلك ثبت أن النظام الاجتماعي للإسلام دور ثوري للعالم، أحدث انقلاباً عظيماً في الذهنيات.

الانقلاب الجامع

فكما تصل من الشمس فيوض النور والحرارة إلى العالم، وهي تصل على نهج واحد منذ آلاف آلاف السنين بلا تغير، كذلك توجد في الشمس صفة إحداث التغير وإثارة الانقلاب، حتى تبدل ماهيات الأشياء وحقائقها. فكأنها بين جميع الكواكب كوكب انقلابي يغير الماهيات، وتقع آثاره على الدنيا بلون انقلابي. فمثلاً، إذا أحدثت النجوم عصارة في الأعشاب ولباً في العيدان، فهذا أثر إيجابي يملأ وعاء خالياً، ولا يتغير شيء. أما الشمس فتذيبها أو تجففها حتى تعدمها أيضاً، فلا يبقى الشيء ذلك الشيء. والقمر لا شك أنه يقلب البحار، لكن لا تتغير بذلك إلا هيئة البحر، لا ماهيته. أما الشمس فتغير كيفياته وخواصه أيضاً. تسخن البحر المر وتجعله موسماً مطرياً، فيصير الماء المر حلواً. والبحر سفلي، لكن الشمس تسخنه وترفع منه الموسم المطري، وتجعل

قسماً منه علوياً، فيصعد إلى السماوات ويمطر على العالم ماء عذباً. والبحر سائل، لكن الشمس تجعله موسماً مطرياً وتعطيه صورة السحب. وهذه الشمس نفسها، ليلاً ونهاراً، إذا أثرت في الرياح، جعلت النسيم صرصراً، والهواء البارد هواء حاراً. فتحويل الرطب يابساً، واليابس رطباً، والخام ناضجاً، والناضج خاماً، والجريان سكوناً، والسكون جرياناً، والسكون حركة، والحركة سكوناً، والموات حياة، والحياة مواتاً، وقلب باطن الشيء، هو بلا شك انقلاب ماهية، .وهو عمل الشمس وحدها، ولا يساويها فيه نجم

وكذلك تماماً، فإن نجوم الهداية، وهم الأنبياء عليهم السلام، أصلحوا أمم العالم، وبآثارهم الطاهرة رأت الدنيا طريق الله. لكن كان ذلك على هذا النحو: بقيت جبلاتهم في مواضعها، وغطيت أو غلبت شيئاً ما، وألبست رسوم الدين. أي إن تلك الجبلة كبتت بالرياضات الشاقة، وترك الدنيا، وترك اللذات، وترك الراحة والدعة، فبقوا إلى حد ما على الدين. ولو أنهم، مع بقائهم على ذلك الدين، تركوا شيئاً يسيراً من رهبانيتهم، لرحلت عنهم العواطف الدينية في الحال. ومثله كمثل أن يحبس العدو في بيت ويتخذ التحفظ منه، ثم يؤخذ في تلك الفرصة شيء من العمل الروحاني من النفس. لكن رده الطبيعي هو أنه إذا فتح قفل السجن قليلاً، ظهرت تلك الجبلة النفسانية والمزاج .الطبيعي، فهدمت المزاج الروحاني من جديد

أما شمس النبوة، فلم تحبس النفسانية أو تقيدها من أجل إكمال الإنسانية، بل أبقتها قوية كما هي، ولم تقيدها، لكنها تملكتها واستعملتها في خدمة الروحانية. وبدلاً من سحق تلك المقتضيات الطبيعية جعلتها شرعية ووضعتها في مواضعها، حتى صارت هي نفسها خادمة للروحانية. فالشهوة نفسها، بدلاً من أن تخصى وتسحق، أخضعت للعقل والشرع، وجعلت جميع أفعالها الطبيعية شرعية بصحة النية وصواب الطريق. أي إنها حولت من طبيعية إلى شرعية بجعلها وسيلة للدين. ولذلك فإن نوم المؤمن ويقظته، ومشيه وحركته، وأكله وشربه، وصداقته وعداوته، ومعيشته ومعاشرته، ومباشرته ومجامعته، إذا كانت بقصد الدين وعلى طريقة السنة النبوية، تصير ديناً، وتصير جميع نواحي المعاشرة هذه شعباً من الدين. فكأن العادة بهذا الانقلاب التشريعي تصير عبادة، والدنيا تصير ديناً. فالنور والبرنامج العملي الذي قدمته شمس النبوة غير .ماهيات هذه المقتضيات الطبيعية كلها وجعلها شرعية دينية، وأحدث انقلاباً دينياً عظيماً

ولذلك لا يحتاج المؤمن اليوم إلى محو الشهوة والغضب، والحرص والهوى، والبخل والطمع، والحقد والحسد، والمحبة والعداوة، وأمثالها، أو حبسها، بل يحتاج إلى وضعها في مواضعها على النحو المذكور وتملكها. وعند ذلك تسلك تلك القوى الطبيعية نفسها، التي كانت تقود إلى الفساد، طريق الصلاح والرشد. ولذلك يمكن أن يقال: إن الرهبانية في هذا العصر انتقلت من البدن إلى القلب، أي إن النية والخيال والقوة الفكرية جعلت راهب الإسلام، حتى تميل إلى الله وحده بدلاً من التوجه إلى غير الله. فإذا كان اتجاه هذه القوى نفسها إلى الله، كانت الأفعال الصادرة عنها بطبيعتها لله، ولو بدت في الظاهر دنيوية. فبحسب المسالك الأخرى يصل الإنسان إلى الله إذا تعطل، وبحسب الإسلام يصل الإنسان إلى الله وهو باق إنساناً. ولذلك يكون الفعل الواحد حراماً من جهة، ثم يصير تحت هذا البرنامج حلالاً من جهة أخرى، بل عين الطاعة والعبادة. فالمشي

تكبراً كان حراماً إذا كان المقصود رضا النفس: «ولا تمش في الأرض مرحاً»، أي لا تمش في الأرض مختالاً. لكن الفعل نفسه صار حلالاً وعبادة في طواف بيت الله، لما صار المقصود إعلاء كلمة الله ورضا الحق. والحرص نفسه كان حراماً إذا كان لمصلحة دنيوية، وصار ذلك الحرص نفسه حلالاً موجباً للثواب حين استعمل لمصلحة الآخرة. والسلب والنهب نفسه حرام إذا كان لأجل النفس وفي مقابلة المقبولين عند الله، وهو حلال إذا كان في الجهاد في مقابلة أعداء الله. والكذب نفسه حرام إذا كان لإثارة الفتنة، وهو حلال، بل موجب للأجر، إذا كان لدفع الفتنة وإصلاح ذات البين.

فلم تحبس شمس النبوة العواطف الطبيعية، مثل الترفع والحرص والغارة والنهب ونحوها، في زاوية من زوايا القلب وتغلق عليها القفل؛ لأنه كان يخشى، عند فتح القفل، أن تخرج فتفسد النفس من جديد بقوة أكبر. بل غيرت وجهتها، وجعلتها في خدمة رب العزة بدلاً من خدمة النفس، حتى تبقى في الحبس والحرية دائماً سائرة في طريق عظمة الحق، وتؤدي، وهي ثابتة في موضعها، الخدمة الصحيحة للإنسانية. فنجوم النبوة الأخرى فصلت النفس عن العواطف وعن نفس الإنسان بتقييدها بالأغلال والقيود، حتى لا تقع النفس في حبائلها، وإن تعطلت عن الأعمال المتعلقة بها. أما شمس النبوة فأطلقت هذه القوى وأخذت منها العمل بنفسها، وجعلت جميع الأعمال المتعلقة بها عبادات. وبهذا أحدثت انقلاباً عظيماً في الأذهان والقوى الذهنية. جعلت الرطب يابساً، والسفلي علوياً. وحولت الطبيعة، وكانت سفلية، إلى روحانية علوية. وجعلت الدنيا، وكانت غير طاهرة، ديناً طاهراً. وجعلت الحياة الناسوتية، وكانت خسارة في خسارة، حياة ملكوتية ولاهوتية، وهي كمال محض. وكان الغرض أن يزين البشر، مع إبقائه بشراً، بالصفات والأفعال الملكوتية. ولم يخرجه من البشرية ليجعله ملكاً، إذ لو فعل ذلك لما كان ترقياً للبشرية، بل كان إعداماً للبشرية، وليس ذلك كمالاً، بل هو حسنة جزئية أو نوع من المهارة الفنية.

والخلاصة أن الإسلام ليس اسم الانزواء والعزلة وصيرورة الإنسان خلوياً، بل هو اسم البقاء في زحام الجلوات وصرف كل قوة في مصرفها المبين، وأداء حقوقها الواجبة. وهذا هو العمل الانقلابي لشمس النبوة، الذي لم يتحقق على يد السابقين، وهو الذي يسمى إكمال الدين، ولأجله اختير ختم النبوة. فنجوم الهداية السابقة سلكت بهذه العواطف الطبيعية طرق الشرع بسحقها أو حبسها، أما شمس النبوة فأبقتها، وبواسطة النهي رقت بالدين الإنساني، وجعلت عين الدنيا ديناً. ولذلك لم تبق اليوم حاجة إلى ترك الدنيا تركاً وجودياً، بل الحاجة إلى إبقاء الدنيا بوصفها خادمة للدين وجعلها طريق الترقيات الدينية. كانت الأديان القديمة توصل إلى الله بإخراج الإنسان من الحياة المدنية، أما الإسلام فيوصله إلى الله بإقامة المدينة. ونجوم الهداية أظهرت جمال الله بترك وسائل التمدن، ووسائل المعاش، والزواج والأولاد، والبيت والأهل، وجميع وجوه المعاشرة، أو بإجلاس الناس في الغابات. أما الشمس النبوية فجعلت هذا التمدن، والعمران المدني، والتزوج والتوالد، مرآة جمال الحق، بحيث يرى الحق بالنظر إليها.

وكذلك فإن نور نجوم الهداية الأخرى يظهر وجه الله بعزل الإنسان عن كل قتال وخصام، وملك البلاد، وهجوم. أما شمس النبوة فتجعل الحرب لإعلاء كلمة الله أفضل العبادات، وتري بها

مشاهدة الحق. وبالجملة، فهناك ترك الدنيا وجودي، وهنا ترك الدنيا عقلي ومعنوي. هناك لا تستطيع همم النفس الأمارة أن تعمل، لأن المبدأ الموضوع هو عدم التقدم إلى العدو. وهنا تعمل الهمة والقوة الباطنية للنفس عملها الكامل، لأن السياسة الموضوعة هي الثبات أمام العدو وإخضاعه. وبالجملة، فإن شمس النبوة حولت الرهبانية إلى عمومية، والخلوة إلى جلوة، والانقطاعية إلى اجتماعية، وغيرت مجرى الدنيا كلها.

ففي دنيا اليوم، وقد جاءت أمم العالم كلها إلى منصة واحدة، وعملت عواطف الاجتماعية والاشتراكية، هل يمكن أن يجذب مبدأ ترك اللذات والعزلة والرهبانية العواطف، أم إن مبدأ قطع طرق الدين مع أخذ الماديات معه هو الذي يمكن أن يستقر في القلوب؟ من الظاهر أن صوت القلوب لا يمكن إلا أن يكون الثاني. لأن مبدأ الاجتماعية الكبرى هو الطريق الفطري الذي لا يجرؤ فرد من البشر على إنكاره. وقد أشار الأنبياء السابقون أيضاً إشارات واضحة إلى هذه الجامعية في الإسلام. ولذلك فإن قول موسى عليه السلام الفياض في هذا الباب واضح.

هل يكون سحق القوى الإنسانية أمراً معقولاً، فلا تبقى في الإنسان شهوة، ولا غضب، ولا حرص، ولا عواطف حياة؛ وبعبارة أخرى، لا يبقى الإنسان ولا إنسانيته؟ إن في الدنيا سوقاً رائجة للفعل والعمل. فإذا لم تبق القوى نفسها، فكيف يصدر العمل؟ وإذا لم يبق العمل، فكيف تظهر خواص وآثار قوى الأنفس والآفاق؟ أم يكون المعقول إبقاء هذه القوى وصرفها باعتدال في مصرفها الصحيح، وإبقاء الإنسان مع إنسانيته، حتى تظهر في الدنيا عجائب جديدة من الخلق الإلهي، وتنكشف القوى المكنونة في الأنفس والآفاق وتظهر، فيظهر بذلك الاستخلاف الأكبر للإنسان؟ من الظاهر أن العالم العاقل لا يختار إلا الصورة الثانية. لأنه إذا لم تبق القوى البشرية نفسها، فمن سيخاطبه هذا الدين آخر الأمر؟ لكن إذا كان بقاء الإنسان ضرورياً حتى يصح خطاب الدين، وكان معنى بقاء الإنسان بقاء قواه الطبيعية والخلقية، فمعنى إنسانية الإنسان أن تظهر قواه على نهج صحيح، حتى تطابق صورة الإنسانية الكاملة الروحانية الكاملة مطابقة تامة، وحتى يوضع هذا القوى في مواضعها، فيجعل الإنسان الكامل الخلقة، وسط ازدحام قواه المادية الكاملة، إنساناً كامل الروح. ولذلك فإن دنيا اليوم ستصدق يقيناً هذا المبدأ الأخير، وإن لم تكذب المبدأ الأول، لأنه كان نافعاً أيضاً في عصر من العصور على وجه العلاج في وقته. لكنها ستضطر مع ذلك إلى فهم ذلك المبدأ على أنه محدود، ولا يمكن أن يكون له بقاء دائم.

ثبوت هذا الانقلاب من التوراة والإنجيل

ورد في سفر التثنية، الباب الثالث والثلاثين:

«جاء الله من سيناء، وطلع من سعير، وأشرق من فاران. جاء مع عشرة آلاف من القديسين، وكان في يده اليمنى شريعة نارية لهم».

ومن الظاهر أن معنى مجيء الله من سيناء هو ظهور النبوة الموسوية وشريعة التوراة. ومعنى طلوعه من سعير هو ظهور النبوة العيسوية وشريعة الإنجيل. ومعنى إشراقه من فاران هو

ظهور النبوة المحمدية وشريعة القرآن، التي وقعت تجلياتها آخر الأمر على العالم كله. وأما تجليه مع عشرة آلاف من القديسين فإشارة إلى فتح مكة، حيث كان مع خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم جيش من عشرة آلاف من الصحابة المقدسين. وقد اتفقت سيرة ابن هشام، وتاريخ الطبري، والبداية والنهاية، والكامل لابن الأثير، وزاد المعاد، وتاريخ ابن خلدون، وغير ذلك، على هذا العدد من فاتحي مكة.

ومعنى الشريعة النارية هو اجتماع القوة السياسية والاجتماعية مع الدين. ولذلك جاءت في هذه الشريعة الحدود والقصاص، والتعزيرات والكفارات، والجهاد والقتال، والخلافة والإمارة، بوصفها أجزاء من الدين. وظهر مبدأ «الملك والدين توأمان»، أي إن الملك وهذا الدين ولدان توأمان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

وهذه الجامعية لم تكن يقيناً في الأديان التي أشرقت من سيناء وسعير.

ففي شأن دين المسيح أعلن المسيح نفسه:

«مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لقاتل خدمي لكي لا أسلم إلى اليهود».
إنجيل يوحنا، الباب 18، الآية 36 .

ومن هذا تظهر بوضوح نفي الجهاد والملك في شأن الدين.

وكذلك أعلن المسيح عليه السلام في شأن الحدود والتعزيرات:

«قد سمعتم أنه قيل: عين بعين وسن بسن. أما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرير، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً».
إنجيل متى، الباب 5، الآية 38 .

ومن هذا يتضح النفي الصريح للحدود والتعزيرات.

وكذلك جاء في شأن المعاملات والتحكيم والأمور القضائية قول المسيح:

«فقال له واحد من الجمع: يا معلم، قل لأخي أن يعطيني نصيبي من الميراث. فقال له، أي المسيح: يا رجل، من جعلني عليكم قاضياً أو قاسماً؟»
إنجيل لوقا، الباب 12 .

ومن هذا يذكر صريحاً نفي مناصب التحكيم والحكم القضائي والسلطة.

وأما في الشريعة الموسوية، فقد كانت السياسة موجودة، لكنها لم تكن ممتزجة بالدين، بل جعلت شيئاً دنيوياً، وحفظت دائرة الملك منفصلة عن دائرة النبوة. كان عمل الأنبياء إعطاء الهداية الدينية، وكان عمل الملوك إجراءها وتنفيذها. فلم تكن السياسة نفسها ديانة، ولا كانت السياسة في

الديانة بحيث يصير الاثنان لوناً واحداً ويسمى المجموع ديناً. وقد أبقى الإنجيل هذا المعنى: أعطوا نصيب البابا للبابا ونصيب الملك للملك. ولذلك كانت هذه الشرائع موافقة فقط للمزاج الإسرائيلي، ولا يقبلها إلا طبقة واحدة محبة للرهبانية. ولم يكن فيها شيء لألم الأمم المتقدمة، وتنظيم الملة، والأقوام ذات المزاج العالمي.

ثبوت هذا الانقلاب العام من القرآن

أما الإسلام فقد أعطى الشريعة لون الجامعية، ووضع أساس نور شامل عام. ففيه قدم الدين والملك، والديانة والسياسة، ممتزجة بعضها ببعض، وقدم ديناً دولياً كان نوره دولياً وشاملاً. ولذلك صار هذا الدين شاملاً، وصارت سياسته وخلافته شاملتين أيضاً.

وفي شأن شمول الدين جاء إرشاد الحق:

«هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله»، أي إن الله رب العزة هو الذي أرسل رسوله بالهداية ودين الحق ليغلبه على جميع أديان الدنيا.

وفي شأن شمول سياسة الدين وخلافته جاء الإرشاد النبوي:

«إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»، أي إن الله جعل مشارق الأرض ومغاربها أمامي، وسيصل ملك أمتي قريباً إلى حيث وصلت رؤيتي.

وقد فصلت هذه الرواية والمشاهدة في الحديث الآتي: ففي غزوة الخندق، لما ظهرت صخرة عظيمة أثناء حفر الخندق، وعجز سلمان الفارسي وسائر الصحابة عن كسرها، أخبروا النبي بذلك. فتشرف وجاء، وضربها بالمعول ضربة شديدة حتى انكسر منها جزء كبير. ثم ضربها ضربة ثانية فانكسر جزء آخر. وفي الضربة الثالثة جعلها فتاتاً. وفي كل ضربة من هذه الضربات الثلاث ظهر نور عظيم وإشراق. فقال إنني رأيت في ضوء الضربة الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى، أي إيران، وأخبرني جبريل أن أمتي ستغلب عليها. ورأيت في ضوء الضربة الثانية قصور الروم الحمراء، وقال جبريل إن أمتي ستغلب عليها. ورأيت في ضوء الضربة الثالثة صنعاء ومنطقة اليمن، وقال جبريل إن أمتي ستغلب عليها.

وكانت الدنيا في ذلك الدور منقسمة بين قوتين: الروم وفارس. وكانت جميع السلطنات الأخرى تحت تأثير هاتين القوتين. فغلبهما الإسلام وأقام آثاره السلطانية على دنيا ذلك الزمان كلها، وتحقق جزء كبير من النبوءة النبوية وظهر أمام العالم.

وأما دنيا اليوم فهي منقسمة إلى ثلاثة كتل: أمريكا وروسيا والبلاد العربية. وخريطة الدنيا الحاضرة تدل دلالة واضحة على أن هذه البلاد صارت وزن الترجيح للكتلتين العظيمتين، أمريكا وروسيا. ولذلك فهاتان الكتلتان إما تتملقان القوى العربية وإما تسعيان إلى اقتطاع أجزاء منها. لكن هذه الكتلة الثالثة تزداد قوة، وستغلب في النهاية على هاتين الكتلتين وتعم الدنيا كلها. وقد

جاءت في أحاديث ظهور المهدي هذه البشارة نفسها: أن قوى المشرق والمغرب ستنكسر على يد المهدي، وستقوم حكومته. ومن الظاهر أن ظهور المهدي سيكون من مكة، وأنه سيتخذ الشام مستقراً له ويجمع القوة هناك، وستقاتله الروم وفارس، ثم تنهزمان وتندمجان في قومية الإسلام الواحدة. وعندئذ يظهر معنى «فيكون الدين كله لله» ومعنى «ليظهره على الدين كله». وليس هذا موضع تفصيل ذلك، وقد بينت تفاصيله في موضع آخر.

والخلاصة أن جميع نجوم الهداية في سماء النبوة، لو اجتمعت، لم تستطع أن تجعل الليل نهاراً. كان هذا عمل شمس النبوة وحدها؛ فإنها بمجرد طلوعها أضاءت الدنيا كلها بنورها. وانتشر نورها العالمي في كل زاوية من زوايا العالم، وسيظل منتشراً. لأن الديانة والسياسة، والملك والدين، والشوكة والتواضع، وتكميل الفرد والقوم، وتنظيم الملة ونظام العالم، والطبيعة والعقل، جمعت كلها تحت الوحي، وأقيم أساس الدين على مزاج المجموع. ولذلك صار قابلاً للقبول عند كل طبقة من طبقات العالم وكل مزاج من أمزجته، وهذا هو الشأن الأول من شؤون العموم.

وجود المؤمن الإيماني وذاته

وسر ذلك أن الشمس كما تنير عالم الكون والمكان وتدفئه، مع أن المنير والدافئ حقيقة هو الشمس وحدها، وأما الأشياء الأخرى فتصير منيرة ودافئة عارضاً، ويبدو كأن هذه الأشياء منيرة، لكن بنظر الحقيقة لا يكون النور والحرارة إلا في الشمس. فإذا اتصل ذلك النور بشيء، صار ذلك الشيء أيضاً محسوساً بالنور والحرارة بقدر الاتصال. فنحن في النهار المشرق نقول إن الجدران والبيوت منيرة ودافئة، لكن الجدار في الحقيقة ليس منيراً؛ إنما المنير هو ضوء الشمس، لكنه متصل بالجدار، ولذلك يظهر الجدار منيراً. فإذا غربت الشمس في وقت المغرب وجمعت ضوءها، بقي الجدار نفسه موجوداً، لكنه يبقى مظلماً. ومن هذا يتضح أن النور في الجدار المنير ليس للجدار نفسه، بل لضوء الشمس. وفي الحقيقة المنير هو ضوء الشمس لا الجدار. وليس عمل الجدار إلا أن يبقى متصلاً بالضوء ويحفظ الاتصال صحيحاً.

وكذلك تماماً، بعد طلوع شمس النبوة، فإن نور الإيمان وحرارته في الحقيقة لخاتم الأنبياء وحده. هو المؤمن الأصلي. هو المنير في الأصل. ونحن وأنتم لا نسمى مؤمنين إلا لأن شمس الإيمان تلك ألقت علينا ضوءها الإيماني، فصرنا نسمى مؤمنين. وإلا فالمؤمن في الحقيقة هو النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وحده. نعم، ما دام اتصالنا به صحيحاً، وما دام الاتباع والطاعة موجودين، ذهنياً وخارجياً، فإننا نسمى أيضاً مؤمنين. وإلا فهذا الإيمان الذي يظهر فينا ليس إلا انعكاس الإيمان المحمدي، وليس إيماناً مستقلاً. فإن انقطع، والعياذ بالله، ذيل الاتباع، وتنحت عنا شمس النبوة، بقيت ذواتنا موجودة، لكن الإيمان لا يبقى. سنسمى آدميين، لا مؤمنين. فمعنى كوننا مؤمنين أننا نحمل على أنفسنا وفي داخلنا ضوء الإيمان الصادر من شمس النبوة.

ومعنى ذلك أننا، من حيث كوننا مؤمنين، لسنا قريبين من أنفسنا بمقدار قرب الرسول الأكرم منا. فإننا حين نعرف أنفسنا من حيث كوننا مؤمنين، فماذا نقول إلا: أنا عبد النبي ومن أمته. أي ننسب

أنفسنا إلى الشخصية المقدسة. ولا نقول: أنا موحد، أنا مؤمن بالآخرة، أنا مؤمن بالله؛ لأن غير المسلمين يستطيعون أيضاً ادعاء هذه الدعاوى كلها. نعم، لا يستطيع غير المسلمين أن يدعوا أنهم مطيعون لمحمد. هذا لا يقدر عليه إلا المسلم. ومن هذا يظهر أن الامتياز بين المسلم وغير المسلم إنما هو باتباع محمد أو عدم اتباع محمد. ولما كانت حقيقتنا هي أننا مطيعون لمحمد، فقد جاء ذكر النبي أولاً في حقيقتنا، ثم جاء ذكر أنفسنا. فظهر أن النبي قريب منا إلى درجة أننا لسنا قريبين من أنفسنا بهذا المقدار. فلو سئلت قطع الضوء: ما أنت؟ فما الجواب الذي تستطيع أن تعطيه إلا أنها أثر من الشمس؟ إذ لا وجود للضوء منفصلاً عن الشمس. فالشمس قريبة من نفس الضوء أكثر من قرب الضوء من نفسه. وكذلك إذا سئل المؤمن: من أنت؟ فلن يستطيع أن يجيب إلا بقوله: أنا عبد محمدي. فكأن معنى وجوده الإيماني هو العبودية المحمدية. فالمؤمن في وجوده ليس قريباً من نفسه بقدر قرب الرسول الأكرم منه. وإلى هذه الحقيقة أشار القرآن الحكيم:

«النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم»، أي إن النبي أحق بالمؤمنين من نفوسهم، وأزواجه أمهاتهم.

ومن هنا تزول أيضاً الشبهة التي يوردها بعض أهل هذا الزمان، وهي أن المسلمين وغير المسلمين، من حيث الدين، كلهم واحد، ولهم مقصد واحد ومنتهى واحد ومنزل مقصود واحد، وإنما الاختلاف في الطرق، وهذا الاختلاف لا يوجب فرقاً بين الأقوام. فقد اتضح أن منزل المقصود هو بلا شك الوصول إلى الله، لكن هذا الوصول لا يمكن إلا باستقامة الطريق. فإن كان الطريق خطأ، فالوصول إلى المنزل مستحيل. ولذلك لا ينظر إلى حق الأديان وباطلها من جهة البداية والمقصد، بل من جهة الطريق، ومعياره اتباع النبوة؛ لأن الطريق لا يتعين بلا خبر النبي. وطريق الله لا يبينه إلا الله، وبيان الله يكون بواسطة الرسل. ولا يكلم الله كل إنسان مباشرة. ولذلك لا بد في تعيين الطريق من اتباع النبي. وبدون تعيين الطريق يستحيل الوصول إلى منزل المقصود. لذلك يصبح اتباع النبوة لازماً للوصول إلى المنزل. ولما كان المقصود الأصلي هو الوصول إلى المنزل من طريقه الصحيح، لا مجرد ادعاء المنزل أو إعلانه، فإن الأقوام التي لا تتبع النبوة بطريق موثق لا تفعل إلا ادعاء منزل المقصود، ولا تعرف طريقه ولا تملك رغبة الوصول إليه.

انحصار النجاة في اتباع شمس النبوة

فكما لا يمكن، بعد طلوع الشمس، تحصيل النور من نجم غير الشمس، ومن يبحث بعد الطلوع عن سند من نور نجم يبقى محروماً من النور، كذلك من يبحث، بعد الظهور المحمدي، عن سند من نجم من نجوم النبوة في أمر النجاة، فإنه سيبقى محروماً من النجاة يقيناً. فالنجاة ليست اسم دعوى المقصد، بل اسم الوصول إلى المقصد، وهذا مستحيل بلا اتباع نبي الوقت واتباع السبيل. لذلك، اليوم، بعد أن طلعت شمس النبوة، لا تكون نجاة الدنيا في الآخرة وفلاحها في الدنيا إلا بالاستفادة من نور شمس النبوة هذه والوقوف تحتها. وطلب السند من نور نجم آخر في النهار هو البقاء محروماً من النور. والله يقول الحق ويهدي السبيل.

شمس النبوة والخلافة

لكن من الظاهر أن ظهور ختم النبوة بمنزلة النهار، لأنه زمان طلوع شمس النبوة. ومن هذا يفهم بنفسه أنه كما طلعت شمس النبوة بعد ليلة مقدارها آلاف السنين، فخرج النهار، فإن مقتضاه الطبيعي أن يختفي النهار بعد غروب شمس النبوة وتأتي الليلة. فكما كان طلوع شمس النبوة هو الولادة الشريفة، فكذلك غروب شمس النبوة هو الوفاة الشريفة، التي احتجب بها عن هذا العالم، وذهبت هذه الشمس فاختفت في عالم الغيب.

وهنا يرد السؤال: هل انقطع نور الإسلام باحتجابه، أم بقيت في هذه الليلة صورة من النور بحيث لم تبق الدنيا مظلمة تماماً؟ الجواب أن الشمس المادية، بعد الغروب، لا تترك الدنيا في الظلمة الخالصة، بل النجوم خلفاؤها، تأخذ منها النور وتعطيه للدنيا. ومن بينها القمر، وهو أشبه بالشمس وأقرب إلى صفاتها، فكأنه خليفتها الأعظم، ينتشر نوره مثل نور الشمس، ويأتي بظل نوراني، أي ضوء القمر، يشبه ضوء الشمس ولا يوجد في نجم آخر. ولهذا يكفي القمر وحده في ذاته، وتخفت النجوم الأخرى أمامه. أما بعد غروبه، فإن النجوم المختلفة الصغيرة والكبيرة تعمل مجتمعة، ويكون نورها المجموع هادياً. ولا يتوقف العمل في الليل أيضاً، وخصوصاً إذا كان العصر عصر الآلات؛ فإن الآلات تظل تعمل ويجري العمل كما يجري في النهار.

وكذلك تماماً، عند غروب شمس النبوة، حل الظلام في الدنيا بلا شك، لكن نور شمس النبوة لم ينقطع. ولم يترك العالم، بعد غروبه، في مجرد الظلمة، بل جعل من قبل بدور الصحبة ونجومها المنيرة خلفاء له، فقال:

«أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»، أي إن أصحابي كالنجوم، فمن تمسكتم بذيله منهم اهتديتم.

فكما أن نور النجوم ليس ذاتياً لها، بل نور الشمس هو الذي يعمل فيها، ويختلف لون ذلك النور وخاصيته بحسب كل وعاء، كذلك لم يكن نور العلم والأخلاق في الصحابة نوراً ذاتياً لهم، بل كان تجلي نور العلم والعرفان الصادر من شمس النبوة. نعم، لما انصب ذلك النور فيهم بحسب بنية قلوبهم وعقولهم وخصوصيات أوعيتهم، اختلفت الألوان. لكن تلك الألوان كلها كانت ألوان شمس النبوة. ففي بعضهم غلبت الشجاعة، مثل خالد سيف الله. وفي بعضهم غلبت السخاوة، مثل عبد الرحمن بن عوف. وفي بعضهم غلبت السياسة، مثل عمر بن الخطاب. وفي بعضهم غلب الزهد، مثل أبي ذر الغفاري. وفي بعضهم غلبت الحكمة والعرفان، مثل حضرة علي. وفي بعضهم غلب التفقه، مثل ابن مسعود. وفي بعضهم غلب الاجتهاد، مثل العبادلة الأربعة. وفي بعضهم ظهرت شؤون الملك العادل، مثل الأمير معاوية. وكان منهم من جمع شؤون النبوة، وكان أشبه بشمس النبوة، وهو الصديق الأكبر رضي الله عنه؛ فإنه بمنزلة القمر، وهو خليفة شمس النبوة بلا واسطة وظل النبوة. وهو في غلبة الرحمة أشبه برحمة للعالمين ونموذج للنبوة. وقد انتشر الظل النوراني لهذا القمر في الدنيا مشابهاً للظل النوراني للشمس، كما ينتشر ضوء القمر مثل ضوء الشمس. وليس الفرق إلا في اللون والكيفية والقوة والضعف.

والصحابة الآخرون أيضاً خلفاء من حيث المجموع، فهم كالنجوم الكبار والصغار، وكلهم نجوم هداية، وإن لم ينتشر منهم ضوء القمر كما ينتشر من القمر. فالنبوة قد ختمت، لكن الخلافة قامت مقامها، وكانت مستفيدة من نور النبوة، مع أن التفاوت في الضوء والتأثير واختلاف المراتب كان لا بد منه. ومع ذلك لم ينقص نور شمس النبوة من الدنيا، بل ظل يفيض ضوءه من خلال حجب آلاف النجوم، وسيظل كذلك. لقد جاءت الليلة، لكنها كانت ليلة منيرة ينبغي أن تعد مصداقاً لقوله: «ليلها كنهارها»، أي إن ليلها مثل نهارها. ولذلك استمر العمل الإسلامي في هذا النور وسيستمر.

نعم، إن هذه الليلة طويلة على نحو غير عادي، وستكون ليلة مئات السنين، ولن تنتهي قبل يوم القيامة. فإذا طلعت شمس النبوة نفسها في المحشر، فعندئذ فقط يخرج النهار، وهو ما يسمى يوم القيامة وصبح القيامة. وسيكون هذا اليوم أكبر بكثير من ليالي الدنيا وأيامها هذه. وفيه ستعرض حياة الدنيا كلها عرضاً كاملاً، حتى يظهر أمام أعين الأولين والآخرين الفيض العام لشمس النبوة الذي كان جارياً منذ الأزل. ففي ذلك اليوم سيكون لواء واحد اسمه لواء الحمد، يجتمع تحته جميع الأنبياء والأمم. وستكون شفاعة كبرى واحدة، تدخل في ظل عاطفتها جميع الأمم. وستكون يد مباركة واحدة تفتح قفل الجنة، وتجد جميع الأمم الناجية طريق الدخول إلى الجنة.

وكما كانت في الأزل لغة واحدة، إذ لما نادى في عهد ألست بكلمة بلى، ارتفع نداء بلى على ألسنة الجميع. ثم كانت ذات واحدة قالت بلى وأثبتت عشقها ومحبتها الإلهية قبل الجميع، واتبعها الجميع. فكأنه هو الذي، مع تعليم التوحيد، سخن القلوب بحرارة العشق والمحبة الإلهية، وكان أول من ربى خلق الله بعشق الأخلاق، أو أوقد نار العشق الإلهي الكامنة في الخلق وأثارها.

ثم كان في الدنيا معجزة علمية واحدة لتلك الذات، وهي القرآن، جرت روحاً في كتب المتأخرين:

وإنه لفي زبر الأولين»، أي إن روح هذا القرآن كانت أيضاً في كتب السابقين».

وأشرق نوراً في قلوب الأولين. فكان فيض ضياء شمس نبوة واحدة هو الذي ظهر في الأزل والأبد، وظل يهدي الأولين والآخرين إلى النور. وسيكشف ذلك يوم القيامة أمام الأولين والآخرين المجتمعين، على رؤوس الأشهاد. فذلك اليوم أيضاً سيظهر بطلوع شمس النبوة، وستضاء فيه هذه الحقائق كلها.

انحصار النجاة

وعلى كل حال، فمن أي جهة نُظر إلى الأمر، يظهر جلياً أنه كما لا مفرّ، مع العيش في العوالم المادية، من الشمس المادية، فكذلك لا يمكن، مع السكنى في العوالم الروحية، الاستغناء عن الشمس الروحية، أي شمس النبوة. فالنهار كان أو الليل، وبواسطة أو بغير واسطة، إنما يعمل نورها. ولذلك لا بد من الإقرار بأنه كما لا يمكن في العالم المادي النجاة من الظلمات المادية والآفات الظلمانية من غير الدخول تحت ظل الشمس المادية، فكذلك لا يمكن في العوالم الروحية النجاة من الظلمات والآفات المعنوية، ومن الجهل والظلم، ومن الشبهات والشهوات، ومن فتنة

العلم والعمل، من غير الدخول تحت ذيل شمس النبوة. أي إنه بعد دوران شمس النبوة وسطوع سلطانها، لا يمكن أن يكون تركها والالتفات إلى نور آخر أو هداية أخرى نافعاً. فالنجاة منحصرة في النور الذي جاءت به وحده.

وإن كانت الأديان السابقة وتعاليم الأنبياء المتقدمين صادقة وحقة في أوقاتها، فإن طلب النجاة فيها بعد دور خاتم النبيين يشبه أن يشرع إنسان، بعد طلوع الشمس، في البحث عن النجوم التي توارت، وأن يعزم على السير في الطريق أو الاهتداء إليه بنورها. فأولاً، لا يظهر له في نور الشمس الشديد نجم أصلاً، فضلاً عن أن يتيسر له نوره. ولو فرض أنه، بإجهاد عينيه وإدامة النظر، وجد نجماً في السماء، فإن نوره المفقود لا يمكن أن يظهر في النور الشامل للشمس حتى يقطع به الطريق. ولو فرض أيضاً أنه نجح في ذلك إلى حد ما بحسب خياله، فإنه مع ذلك يقطع الطريق بنور الشمس؛ إذ إن نسبة سيره إلى نور ذلك النجم المفقود لا تكون إلا سيراً خيالياً. فإن تشخص ذلك النور الجزئي وظهوره مستقلاً غير ممكن أصلاً في نور الشمس الكلي. ولذلك لا طريق إلى تحصيل النور إلا بالحضور أمام الشمس، ولا نجاة بالانفصال عنها.

ولهذا أعلن القرآن الحكيم صراحة أن قبول الدين عند الله منحصر في نور شمس النبوة وحده، واسم ذلك النور هو الإسلام. فقال:

ومن يبتغ غير الإسلام ديناً» —— أي من يطلب بعد مجيء الإسلام ديناً سوى الإسلام —— «فلن» يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين».

وهنا قد يرد سؤال: من جهة، حصر القرآن النجاة في الإسلام وحده؛ ومن جهة أخرى، هو نفسه يعلن أن هذه الأديان كلها كانت في أوقاتها صادقة وحقة، وأن الإيمان بصدقها اليوم أيضاً ضروري بقدر ضرورة الإيمان بدين الإسلام. فلماذا إذن يُمنع العمل بها واتخاذها دستوراً للحياة، مع أنها كانت حقاً بطريق مسلّم، ومع أنه لا يُعلن الآن أيضاً أن الحق قد خرج منها بالكلية؟

إذا أُمعن النظر، فإن حل الإشكال موجود أيضاً في مثال الشمس نفسه. وبيانه أن انحصار النجاة في الإسلام ليس مبنياً على بطلان الأديان السابقة أو عدم حقيتها، بل على كونها قد نُسخت. ومعنى النسخ ليس الإبطال، بل انتهاء المدة. أي إن مدة الشريعة السابقة كانت بهذا القدر فقط، وقد جاءت لذلك الوقت فحسب. ثم إن النسخ موجود أيضاً في القرآن والحديث أنفسهما؛ فقد جعلت آيات أو روايات بعض الآيات والروايات منسوخة. وليس ذلك لأنها، معاذ الله، كانت خطأ أو باطلة، بل لأن زمن حكمها أو تلاوتها كان بهذا القدر فقط. فلما مضى ذلك الزمن انتهى العمل بها كذلك. وهكذا، لما اكتمل الوقت المقرر والدور المحدد للشرائع السابقة، انتهى حكمها والعمل بها أيضاً.

لقد أوجد الزمن الجديد أحوالاً جديدة وذهنيات جديدة، وكانت هذه مقتضية لأحكام جديدة. ولذلك فإن الهدايات السابقة، مع كونها حقاً، لم تبق نافعة من جهة العمل، فأُنهِي اعتبارها القانوني،

وجيء بأحكام جديدة. فإذن، إن إنهاء صفتها الدستورية لم يكن مبنياً على كونها خطأ، بل على انتهاء وقتها المقرر، وعلى أنها لم تعد موافقة للحال.

ومن هذا تخرج النتيجة بسهولة، وهي أن شيئاً من هذه الشرائع القومية والوطنية لم يكن للعالم كله. ولم يكن كذلك لأنه لم يأت حاملاً من الأصولية والكلية والجامعية ما يجعله وحده كافياً لجميع أمم العالم المختلفة الأمزجة والأذواق. ولم تكن أمم العالم نفسها قد حصلت فيها بعد قابلية تلك الأصولية والكلية والمزاج الشامل التي تقتضي قانوناً دولياً وتطلبه، وتستطيع أن تجمع تلك الأمم على طريق جامع واحد، أو قدر مشترك، أو نقطة أصولية واحدة. والسبب التكويني والطبيعي لذلك أن استعداد عالم البشرية إنما نما بالتدرج؛ ولم يكتمل دفعة واحدة، كما أن الطفل لا يبلغ الشباب والبلوغ إلا بالتدرج، وكما أن الشجرة لا تصير شجرة عظيمة ولا تثمر إلا بالتدرج. ولذلك تكون حالتها الأولى والوسطى ناقصة بالطبع.

ومن الواضح أن أجزاء عالم البشرية إذا كانت تبلغ النضج بالتدرج، سواء أكانت نباتاً أم حيواناً أم إنساناً، فمن الطبيعي أن يكون ذلك التدرج نفسه صفة لمجموعها أيضاً. ومن المستحيل أن تبلغ أجزاء العالم من النبات والحيوان والبشر والإنسان حد الكمال بالتدرج، ثم يبلغ المجموع قمة الرقي دفعة واحدة، مع أن المجموع ليس إلا اسماً لهذه الأجزاء التي يشاهد فيها التدرج. ومن الواضح أيضاً أن الحالة قبل البلوغ لا يمكن أن تسمى إلا ناقصة غير تامة؛ إذ لو كانت حد الكمال فلماذا تُزاد تقدماً؟ ومن الواضح كذلك أن أحكام الحالة الناقصة أو الضعيفة غير أحكام حالة البلوغ، فلا تجري أحكام البلوغ على غير البالغ، ولا أحكام غير البالغ على البالغ. ولذلك فإن جميع القوانين المتوسطة من آدم عليه السلام إلى تكميل الإنسانية كانت لإنسانية غير تامة. ولهذا كانت هي أيضاً، كالإنسانية نفسها، طالبة للتكميل. فكلما تقدم المجتمع الإنساني نحو حد الكمال، تقدمت القوانين الدينية كذلك بالتدرج نحو الشباب والكمال. وكلما اتسعت ألبسة مدنية الإنسان الطبيعية وانفسحت، وتقدم تمدنه، اتسعت أيضاً ألبسة الدين الشرعية وأقمصة الشرائع وانفسحت في داخلها، حتى تكون تربية الإنسانية بحسب ذهنها ومزاجها.

والحاصل أن الدين إنما اتسع بقدر اتساع التمدن. فكلما نشأت نواحٍ للتمدن، وظهرت من طريقها احتمالات الضلالة ووقائعها للإنسان، اتسعت نواحي الهداية بقدرها، حتى يسد كل خرق من خروق الضلال بالهداية، وحتى يوجِّه الإنسان من هذا الطريق نفسه إلى مالكه وخالقه. فكان هذا الترقي والتكميل التدريجي للأديان، بحسب تدرج الإنسانية، أمراً طبيعياً لا يحتاج الإيمان به إلى البحث عن الأسباب الظاهرة.

ومع ذلك، فبما أن لكل حقيقة في عالم الأسباب هذا، وهو بلا شك معمل طبيعي للقدرة، أسباباً موضوعة لإظهار القدرة، فإن بقاء الدين في العصور الأولى والوسطى من العالم محدوداً بحدود القوميات والأوطان، وعدم كونه واسعاً شاملاً، أو بعبارة أخرى بقاؤه طالباً للتكميل مستدعياً بلسان الاستعداد للتكميل الأخير، هو كما أنه طبيعي، فهو معلل أيضاً بالأسباب الظاهرة. ووجه ذلك أن كل قوم، لعدم وجود الوسائل والأسباب الشاملة، ولعدم توجه الطبائع المتباعدة إليها، كان

منفصلاً عن قوم آخر، وكل إقليم مقطوعاً عن إقليم آخر، وكل بلد غير ذي صلة ببلد آخر. فلم يكن هناك اختلاط عام ولا امتزاج شامل. كان كل قوم لا يعرف القوم الآخر، وإن عرفه إلى حد ما فإنما يعرفه بسماع شيء من أحواله العامة من بعيد. فلا اشتراك في التمدن، ولا وحدة في العادات والرسوم، ولا اتحاد في الذوق. وكان كل قوم عند القوم الآخر أسطورة، وشيئاً عجيباً من نوادر الزمان، تسمع أخباره على أنها خارقة للعادة بعجب، وتروى في القصص والحكايات للتسلية بأسلوب النوادر، كأن ذلك القوم ليس من سكان هذا العالم، بل هو من أهل عالم جديد.

ومن الواضح أنه مع هذا البعد وهذا التفاوت، حين لم تكن في أذواق الإنسانية وأمزجتها نفسها وحدة وشمول، ومع وجود هذا البعد المتوسط لم تكن وحدة الأمزجة، واتحاد الرسوم والعادات، وائتلاف الخلق والطبع، ووحدة الوجهة الذهنية ممكنة، فكيف توضع الشمولية والوحدة في قانون الشريعة والتربية، حتى يكون للجميع منصة واحدة، وقانون واحد، وطريق شرعي واحد، لا تكون فيه قومية بل دولية، ولا وطنية بل عابرة للأوطان؟ ولذلك جُعلت الشرائع منفصلة، وجاءت القوميات منفصلة، وبقيت أمزجة الشرائع متفاوتة، وجُعلت أمزجة مربّي الدين أيضاً مختلفة بحسب أحوال أمزجة الأمم. وكانت هذه الشرائع كلها كاملة بلا شك بهذا المعنى: أنها كانت كافية وافية لنجاة أقوامها. لكنها في نفسها كانت طالبة للتكميل، ولم تكن جامعة بإطلاق.

وإذا كان معنى عدم جامعيتها أنها كانت محدودة في دائرة القوميات والوطنيات، وأنها جاءت بلون جزئي مراعاةً للأمزجة الجزئية للأمم، فقد اتضح من ذلك معنى كون الشريعة جامعة: أن تكون دولية بدل أن تكون قومية، وعابرة للأوطان بدل أن تكون وطنية، وأن تراعي نفس الإنسانية ومزاجها الكلي بدل مراعاة الأمزجة الجزئية للأمم. ولذلك تكون رسالة لا لقوم واحد، بل لجميع أمم العالم، وتستطيع أن تجمعها على منصة واحدة. ولا يمكن هذا إلا إذا جاءت مراعِيةً المزاج الكلي للعالم كله، ومشتملة على أصول وقوانين شاملة تكون مقبولة على السواء لجميع أمم العالم.

ولكن لما اتضح أن الدين اتسع بقدر اتساع التمدن، فمن الواضح أن ديناً جامعاً كهذا لا يمكن أن يرسل إلا حين تنشأ في تمدن أمم العالم ومزاجها المدني مشاعر الشمول والوحدة، وحين ينشأ فيها ذوق الدولية العالمية بدل تفريق القوميات؛ حتى تثقل على عقول الناس الحدود القومية والوطنية والعرقية والطبقية، ويثقل على الطبائع فرق السيادة والعبودية، ويُعد تفاوت الملكية والمسكنة حادثاً مكروهاً في نظر العقول، وينادي الناس على النسب والطبقة بأنها لعنة، ويعدّون النبذ وعدم المساس عيباً لا مهارة، وتمحى حدود الذهنيات فتظهر قابلية المساواة الشاملة، وتبرز قابليات الأخوة الإنسانية بدل العلو والدنو. فذلك هو الوقت الذي يمكن أن تنادي فيه فطرة الإنسانية نداءً صامتاً بقانون شامل وشريعة دولية، وأن تهبها القدرة قانوناً جامعاً من هذا القبيل.

وبعد هذا الأصل، فانظر الآن في ضوء الوقائع: متى برز هذا الاستعداد؟

أما العدل والمساواة فأمرهما يأتي بعد ذلك؛ فقد زال حتى احترام نفس الإنسانية. ولم يكن ذلك في حد الأفعال فقط، بل حتى من جهة الجوهر الإنساني، إذ جعل العالون أنفسهم فوق الأدنين. فكانت

بعض الطبقات منسوبة إلى الشمس والقمر، وبعضها مخلوقاً من فم الإله، وفي مقابلهم كان الأدنون مخلوقين من قبضة تراب أو من قدمي الإله. فكأن الطبقة العليا نوع مستقل فوق النوع الإنساني، حتى إن مادة تولدها ليست كمادة عامة الناس، وكأن الأدنين نوع دون مستوى عامة الناس لا يملكون حتى حقوق الإنسانية. فالعالي عالٍ إلى الأبد، والدني دني إلى الأبد. فلم يكن العلو والدنو اجتماعياً فحسب، بل كان جوهرياً وأساسياً، ودخل التفاوت الطبقي حتى في الجوهر الإنساني. ولذلك كان ظل الدني يعد نجساً، وبقيته نجسة كذلك. ومن ثم لم تكن علاقات الأخوة الإنسانية الاجتماعية لتقوم معه.

ثم لم يكن هذا التفريق في المعاشرة وحدها، بل كان في العبادة أيضاً يعد حقاً جائزاً. فلم يكن المنبوذ وغير المنبوذ يجتمعان في معبد واحد، أما الوقوف على قدم المساواة فكيف يمكن؟ وكان علم الدين حقاً للطبقة العليا وحدها، وكان تحصيل التعليم الديني محرماً على الأدنى. وبالجملة، كانت صور مرعبة مختلفة من العلو والدنو والتفريق الطبقي رائجة في أقوام مختلفة، وكانت تعد حسن معاشرة وديناً صحيحاً. ولم يكن من نتيجتها الطبيعية إلا اشتعال نار البغض المتبادل وروح الانتقام، وقد وقع ذلك. فكانت الرعية تلعن الملوك، وكان الرعاة يعدون الرعية ملعونة. ولم تكن هذه الحالة في الدنيا والدين مختصة ببلد واحد أو قوم واحد، بل كان العرب والعجم واقعين في هذه البلية نفسها. ولهذا لما نظر خالق ذلك العالم المنكوب في ذلك الدور إلى قلوبه، نظر إلى العالم كله نظر غضب، كما كشف لسان النبوة حقيقة الجاهلية هذه كشفاً بيناً.

والإرشاد النبوي هو:

«إن الله نظر إلى قلوب بني آدم فمقت عربهم وعجمهم».

أي لم يبق في القلوب خير، وغابت علامات الروحانية، ولم يبق إلا سلطان المادية والنفسانية.

وكان العالم قد ضاق بهذا الغرور القومي والتعصب الوطني والتحقير والإذلال الاجتماعي. فلم يكن رد فعله الطبيعي إلا هذه المشاعر، وقد كانت: أن تنتهي هذه القسمة المصطنعة بين الشريف والوضيع، وأن تزول نخوة النسب وتعصبات القوميات، وأن تنتهي هذه التفريقات. ومن الواضح أن إرادة زوال هذه الحدود الوطنية والقومية كانت في الحقيقة إرادة للأخوة الإنسانية والمساواة. وأن الرغبة في زوال جو العلو والدنو بين السيد والعبد، والملك والفقير، والغني والمسكين، والحاكم والمحكوم، كانت في الحقيقة رغبة في الوحدة المتبادلة والارتباط البيني. ومن ثم بدأت الأحاديث عن ذلك في الطبقات المتأخرة، وبدأ فكر هذه الأقوام المنبوذة يتغير. فلم يعودوا مستعدين للرضا بقضاء هذا التحقير والإذلال، بل تولد فيهم، على سبيل رد الفعل، شعور بأن يلقوا عن أكتافهم نير هذا التحقير والنبذ.

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن التصورات المحدودة للاجتماع التي رسخت في الأذهان على أساس هذه التفريقات والحدود انتهت أيضاً بانتهاء هذه التفريقات. وجاءت مكانها تلك التصورات العامة الشاملة للمدنية، التي كانت إلى ذلك الحين ممزقة بالتجمع، والعرقية، والقومية، والتفريق

الطبقي بين الغني والفقير أو السيد والعبد، وبالمساس وعدم المساس. فلما صارت في الأذهان كالثوب البالي الممقوت الذي يستحق أن ينزع ويطرح، كان رد فعلها الطبيعي أن تبدأ الرغبة في الاختلاط الشامل والمساواة المتبادلة على خلاف هذه التفريقات، وأن تظهر مشاعر الأخوة والارتباط الشاملة للإنسانية، وهي المقام الصحيح الأعلى للفطرة الإنسانية.

ولا شك أن المدنية الكبرى التي هي طبيعية للإنسان، وبسببها يسمى الإنسان مدنياً بالطبع، بلغت بهذا الشعور مقام الظهور في صورتها الأصلية. فإن مقامها الأول هو أن يثبت الإنسان الاجتماع في الحياة المنزلية فقط، وأن يعيش أهل بيت واحد بالألفة والموانسة والنظم والتنظيم. ومن الواضح أن نظام تدبير المنزل نظام ابتدائي بحيث يتميز به الإنسان عن الحيوان فقط، فلا يعيش كالحيوان منفرداً في الجحور والأعشاش، لكنه من حيث المعاشرة الإنسانية ليس مقاماً يذكر حتى يسمى تنظيماً للإنسانية. ففي العهد الأول كان الإنسان يعيش كذلك، إذ كان كل بيت واقعاً تحت سياسته الفردية الخاصة، لا عموم فيها.

ثم لما اتسعت هذه المدنية تعلم الإنسان الحياة القبلية، حيث صار مجموع عدة بيوت يقيم نظامه مجتمعاً، وصارت تلك الاجتماعية المنزلية تضيق عليه، ولم تبق لها في نظره قيمة خاصة. ولكن هذا أيضاً لم يكن نهاية المدنية. ولذلك لم تقف محبة المدنية الطبيعية في الإنسان عنده، بل تجاوزته إلى الحياة المدنية الحضرية، حيث اعتادت قبائل عدة أن تعيش بالارتباط والاتحاد المتبادل. وبذلك صارت الاجتماعية القبلية الأولى تبدو لهم كالطفولة. ولكن هذا أيضاً لم يثبت أنه نهاية المدنية، لأن معيار هذا التنظيم كان المدنية الحضرية لا الإنسانية. ومن جهة الإنسانية، لم يكن تفريق المدن علاجاً كاملاً للعطش الأصلي في الفطرة. ولذلك تقدم الإنسان بعد ذلك فجعل المدنية اجتماعاً بلدياً، وأقام نظاماً بلدياً مؤلفاً من مدن عديدة. ولم تعد صورة هذا الاجتماع صورة زعامة قبلية أو إمارة حضرية أو إقطاع، بل صارت صورة حكومة، صار فيها للمدن المختلفة نظام واحد، واتسعت روابط الإنسان أكثر، وقامت في العالم حكومات مختلفة بمعايير مختلفة: ففي مكان ارتبط أهل بلد واحد بالرابطة العرقية، وفي مكان نشأ الاجتماع من جهة قومية ووطنية.

وبعد هذا النظام، بدا له الاجتماع الحضري الأول ضيقاً جداً، لأنه وجد دائرة واسعة من الارتباط المتبادل، فظهر كونه مدنياً بالطبع بقوة أكبر. لكن هذه المدنية أيضاً لم تثبت أنها الأخيرة والنهائية، فمحبة الاجتماع الفطرية في الإنسان اتخذت في البلدان شأناً إقليمياً، وقام نظام إقليمي مؤلف من عدة بلدان، دخل تحت تأثيره مئات البلدان. واتسعت دائرة شعور الإنسان بإنسانيته من طريق هذا الاجتماع الواسع اتساعاً أعظم. ومن ذلك عُلم أن كونه مدنياً بالطبع لم يكن بالطبع محدوداً بالحياة المنزلية، ولا الحياة القبلية، ولا الحياة الحضرية، ولا الحياة البلدية. وإنما كانت هذه الحدود نتيجة جهله ببيئته المجهولة، أو نتيجة قيود همته. فما إن وجد طموحه فرصة للاتساع حتى تذكرت فطرته الواسعة سعتها، وقفز إلى هذا الميدان الواسع من المدنية العامة الذي به خفتت الاجتماعات المحدودة الأولى.

ولكن لما بلغ هذا الحد دفعته فطرته إلى أبعد من ذلك، وأخبرته أن هذا أيضاً حد، أي أن يبقى محدوداً في دائرة إقليم ما؛ لأن هذه الدائرة جغرافية أيضاً. فإذا التزم الإنسان هذا الحد الخاص وانحصر فيه، بقيت إنسانيته، وهي أوسع إحاطة من كل إحاطة، مقيدة أيضاً بقطع الأرض وممزقة بهذا القيد. وفي ذلك إهانة لإنسانيته، إذ يجعل الواسع كالضيق. فإن كانت إنسانيته إلى الآن قد مزقتها تفريقات السيد والعبد، والغني والفقير، والعالي والدني، فإن تلك القطع نفسها صارت الآن بقطع الأرض والأقاليم. وهذا على كل حال تحديد وتفريق وطني للإنسان.

ولذلك رسمت فطرته الآن الصورة الذهنية للمدنية الكبرى على هذا النحو: أن يقيم الاجتماع بمعيار الإنسانية بدل المعيار الجغرافي أو العرقي. وبما أن الإنسانية مشتركة بين السيد والعبد، والدني والعالي، والحاكم والمحكوم، بل بين أفراد القبيلة والمدينة والبيت والبلد والإقليم جميعاً، وهي لذلك أوسع من الجميع وشاملة للجميع، فلم لا يقام الاجتماع بهذا المعيار الإنساني الأوسع والأجمع، الذي تدخل في إحاطته لا المدن والبلدان وحدها بل الأقاليم كلها، ويكون لبشر العالم كله نظام واحد، وتمدن واحد، وأسلوب معاشرة واحد، ونوع واحد من الدساتير والقوانين، حتى تظهر الإنسانية الكبرى في العالم، وتظهر الإنسانية تفوقها بغلبتها على جميع المعايير؟

فتأمل الآن: إذا كان الخروج من كل دائرة محدودة سابقة من دوائر الاجتماع إلى الدائرة الأوسع التي فوقها، وتوسيع الأخوة الإنسانية والمساواة توسيعاً بعد توسيع حتى تصير عالمية، هو ترقّي كونه مدنياً بالطبع، فإن بلوغه تلك المدنية التي يصير فيها بشر العالم كله في مقام أخوة واحدة سيكون يقيناً آخر منزل لمدنيته واجتماعه، ولا يبقى بعد ذلك أي درجة أصولية للمدنية. لأنه بعد جمع البشر كلهم وضمهم بعضهم إلى بعض، أي طبقة تبقى للإنسان حتى يدخلها في مدنيته؟ ومع من يقيم علاقات الأخوة والروابط المدنية؟ أما الحيوانات فلن تدخل في أخوته حتى يمد إليها يد الأخوة، والجن لن يأتوا حتى يدخلهم في جماعته، والملائكة لن يأتوا حتى يدخلوا في جماعته ويصيروا جزءاً من نظام تمدنه. أما الإنسان فقد دخل كله في نظام اجتماع واحد. فلم تبق طبقة يوسع التمدن لأجل ضمها، وتمد إليها يد الأخوة والمساواة.

ولهذا يقال: عند بلوغ هذا الحد، أي أن يكون لبشر العالم كله نظام واحد، ينتهي الاجتماع الإنساني والتمدن. فإن أمكن في اجتماعه بعد ذلك ترقٍّ، فهو في جزئيات تحسين هذه المدنية نفسها أو تثبيتها، أما ترقّي نفس المدنية فلا يبقى له بعد ذلك درجة. ولذلك يسمى هذا الحد النهاية النوعية للتمدن، التي لا يبقى بعدها ميدان أصولي لترقي الذهن الإنساني. وهذا الاجتماع في الدائرة الأخيرة هو الذي يسمى الاجتماع العالمي؛ فأخوته عالمية، ودستوره عالمي، وقانون معاشرته عالمي، وتمدنه ومساواته عالمية.

ألم تكن هذه الذهنية العالمية نفسها تنشأ في الإنسان شيئاً فشيئاً منذ الجاهلية؟ ألم تكن العرقية والقبلية والوطنية والقومية والسيادة والأنانية ونحوها قد مزقت هذه العالمية نفسها؟ وحين نشأت في الجاهلية عند الناس نفرة من هذه المعايير ووحشة من علوها ودنوها، وكانت هي حواجز في طريق العالمية، فبعد خروجها من أذهانهم، ألا يقال إن الذهن الإنساني قد صار إلى ذهن عالمي،

وإن فيه قد نشأت القابلية القصوى للشمول والعالمية؟ لا شك أنه سيعترف بذلك. ومن الواضح أنه بعد هذه القابلية للمدنية العالمية، كان أمراً طبيعياً أن ينشأ في فطرته طلب وبحث عن دين من نوع عالمي: لا يكون قومياً بل دولياً، ولا وطنياً بل عابراً للأوطان، ولا عرقياً بل عابراً للأعراق، ولا لسانياً بل عابراً للألسنة، ولا لونياً بل عابراً للألوان، ولا يكون رسالة إلى طبقة واحدة بل رسالة إلى جميع طبقات الإنسان. لا يكون نبيه محلياً بل عالمياً، ولا يكون كتابه آنياً أو محصوراً في لحظة زمنية، بل يكون جهانياً شاملاً، ولا تكون قبلته بلدانية بل بين البلدان، ولا يكون حفظه زمانياً بل عابراً للأزمان، ولا يكون نشره جهاتياً بل عابراً للجهات، ولا يكون تعليمه زمانياً بل عابراً للأزمان. وبالجملة، يكون كل ما فيه شاملاً عالمياً عالمينياً.

لأن الدين لا يكون نافعاً لقوم ولا كفيلاً بتربيته الصحيحة إلا إذا كان بحسب حاله. فإذا جاء وقت قابلية العالمية في مجال التمدن، وجب أن يكون الدين أيضاً بحسب تلك القابلية. وحين ينتهي التمدن، من جهة سعته، إلى النقطة النهائية، كأن تصل آخر منزلة من كون الإنسان مدنياً بالطبع، بحيث لا يبقى بعدها ميدان للسعة الأصولية في التمدن، فلا يبقى بعد التكميل الأخير للدين أيضاً سؤال عن مجيء دين جديد. فكما أن احتمال الضلال يظل ينشأ بلون بعد لون من زوايا هذا التمدن الواسعة بلا نهاية، كذلك يصير حقيقة أن تنبعث من زوايا هذا الدين الأخير الواسعة بلا نهاية هدايات دافعة للضلال بذلك اللون نفسه، تكون عدة كاملة لدفع تلك الضلالات. ولا يكون ذلك بأن يمحو الدين الكامل زوايا التمدن، بل بأن تكون في هذا الدين العالمي قوة تجعل زوايا التمدن نفسها وسيلة للهداية، من غير أن تصرف الناس عن التمدن العالمي.

لقد جاء حاملاً قوى تُري من كل زاوية من زوايا التمدن جمال الله المزدان به العالم. ومعنى ذلك أن الدنيا والآخرة قد جُمعتا في هذا الدين الأخير الكامل وضُمّتا معاً، وكما أن العبادات جزء منه، فكذلك المعاملات والمعاشرات والشؤون الملكية والسياسية جزء منه أيضاً. فهداياته اللامحدودة ليست محصورة في المسجد وحده، بل هي متسعة من الحياة المنزلية إلى حياة الحكومة العالمية.

فإذا كان زمن التمدن العالمي قد جاء اليوم — وقد جاء لا محالة، لأن الاكتشافات الحديثة والاختراعات الجديدة جعلت العالم كله عائلة واحدة وقبيلة واحدة — فقد صارت الأقاليم اليوم كأنها بلدان، وصارت البلدان كأنها أحياء. ويمكن اليوم أن يطاف بالعالم كله في سبع عشرة دقيقة بواسطة الصواريخ. وقد ترك الإنسان اليوم سطح الأرض، واستقر في أعماق البحار ومرتفعات الأجواء. واليوم تصل إلى أذن الإنسان، وهو جالس في بيته، أصوات المشرق والمغرب ولغاتهما. واليوم يرتفع من سطح الأرض ويطير في الأجواء. واليوم تقطع مسافات الشهور في ساعات، ومسافات الساعات في دقائق. واليوم تنجز أعمال الأسابيع بواسطة الآلات في لحظات. بل إن أذنه اليوم لا تتعرف إلى الحاضر فحسب، بل صارت تتعرف أيضاً إلى أصوات الماضي البعيد. وقد ظهرت على سطح العالم آلات تزن حتى الأخلاق والعلوم، وبلغت بعد الجسمانيات إلى عالم المعاني أيضاً. وبالجملة، لما كانت الاختراعات والاكتشافات الجديدة اليوم قد طوت الزمان والمكان، والجواهر والأعراض أيضاً، وصار الإنسان من حيث معاشرته ومدنيته لا

محلياً بل عالمياً، ولا عالمياً فحسب بل عالمينياً، فينبغي أن تكون رغبته الطبيعية أن لا يبقى دينه أيضاً محلياً أو قومياً، بل يكون عالمياً، بل لا يكون عالمياً فقط بل عالمينياً.

فإن لم يصر دين العالم كله اليوم واحداً بالفعل، فقد بلغت المشاعر الإنسانية على الأقل هذه النقطة يقيناً: أنه ينبغي أن يكون واحداً. فهذا هو الوقت الذي يجب أن يكون فيه الدين العالمي النازل من السماء موجوداً، ليتقدم لإشباع هذا الشعور ويعطي رسالة إصلاح العوالم. ومن الواضح أن دين اليوم لا يمكن أن يكون ديناً يدعو قوماً واحداً، أو يتخذ وطناً واحداً ثم يقف عنده، أو يعمد إلى تقطيع الإنسانية من طريق الامتيازات العرقية، أو يزرع بذور الكراهية في الإنسانية بتعليم النبذ وعدم المساس، أو يستعد لتمزيق الإنسانية بتفريق اللون واللون. ولا يمكن أن يكون دين اليوم ديناً يحبس الناس في الحدود المحلية والمضايق الضيقة، ويدلهم خطأً على طريق التمحض للمحلية. بل دين اليوم لا يكون إلا الدين الذي يبين أن داعيه ونبيه الأعظم عالميني، ويعلن:

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين.

والذي يبين أن داعيه الأول نذير للعالمين:

ليكون للعالمين نذيراً.

والذي يسمي كتابه كتاباً للعالمين:

إن هو إلا ذكرى للعالمين.

والذي يسمي قبلته قبلة للعالمين:

إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين.

والذي يوجه رسوله نداء الإصلاح لا إلى قوم واحد، ولا إلى إنسان زمان واحد فقط، بل إلى عالم الإنسانية كله الممتد إلى يوم القيامة:

قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً.

والذي لم يخص إلهه بشارته وإنذاره بدور من الأدوار:

وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً.

والذي وضع نبيه يد الرحمة والشفقة على رؤوس الجميع من غير أن يفرق بين الأسود والأبيض في الناس، وأعلن:

بعثت إلى الأسود والأحمر؛ أي لهداية جميع أمم العالم.

والذي جاء ليمحو تفريقات السيد والعبد:

يدخل في أمتي حر وعبد.

والذي أعلن المساواة بمحو تصور العلو والدنو في الناس من جهة جوهرهم:

كلكم بنو آدم، وآدم من تراب.

والذي جاء لينهي الامتيازات العرقية، فقال:

يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا.

والذي جاء ليمحو حدود الوطنية وليجعل الدنيا كلها وطناً واحداً:

إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها؛ أي إلى المشرق والمغرب.

والذي جاء ليقضي على الغرور الوطني:

ليس لعربي على عجمي فضل إلا بدين وتقوى.

والذي جاء ليقضي على حدود القوميات:

كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة.

والذي أعلن محو النبذ وعدم المساس، وأباح طعام الكفار وشرابهم:

اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم.

وخلاصته أنه جاء حاملاً لواء الأخوة الإنسانية مع الأخوة الإيمانية، حتى لا تبقى في الإنسان بذرة كراهية الإنسان للإنسان:

اللهم اشهد أن الناس كلهم إخوة.

والذي جاء بنصب عين خدمة الناس كلهم:

الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من يحسن إلى عياله.

والذي جاء بتعليم التعاطف المتبادل من أجل هذه الأخوة الإنسانية:

أحب لأخيك ما تحب لنفسك.

والذي جاء يبين أن العبيد إخوة:

إخوانكم خولكم.

والذي جعل الأسفار الأخلاقية دولية:

قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين.

والذي جعل الأسفار التجارية دولية:

هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور.

والذي عمم الأسفار التعليمية:

فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.

وبالجملة، فإن روح العموم والجامعية والدولية جارية في كل تعاليمه. فقد علم غاية التسامح مع كل قوم، ومحا بذرة التنافر. فليقال إذن: أي دين هو اليوم غير الإسلام؟ وإن لم تكن التعاليم المذكورة أعلاه تعاليمه، فلمن تكون؟ ومن غيره يريد أن يرى المجتمع الإنساني لا محلياً بل عالمياً، ولا عالمياً فقط بل عالمينياً؟ ولذلك لا يمكن أن يكون دين العالم العالمي اليوم إلا الإسلام، الذي يهدي إلى المالك من كل ناحية من نواحي التمدن من غير أن يمحو شيئاً من تلك النواحي.

نعم، لا شك أنه حيث أعطى هذا التعليم الشامل وهذه الهداية إلى الأنس والإنسانية الشاملين لإيجاد العالمية والاجتماع العالمي، والتي تنفتح تحتها طرق المؤانسة والمسالمة مع أمم العالم، وينتهي التنافر، فإنه من جهة أخرى قد منع المسلمين أيضاً من الاختلاط غير المنضبط، والمخالطة العامة، والارتباط والضبط، والمودة والمحبة الشخصية مع غير المسلمين، ليبقى الوجود الشخصي للأمة المسلمة قائماً في المجتمع، ولا يطرأ خلل على استقلالهم الإسلامي. ولكنه في المعاملات الاجتماعية العامة والمعاشرة العامة، مع الاحتراز من تلك المخالطة، أراد تعميم مشاعر التسامح، وحسن السلوك، والمواساة، ودفع المظالم، ومحبة السلم، وإزالة التنافر، حتى لا يقع خلل في معاملاته الدولية التي تثبت في النهاية وسيلة للانتشار الإسلامي والدعوة والتبليغ العامين.

وثانياً، لما لم تأت الأديان الأخرى أصلاً بمثل هذا التعليم والتربية الشاملين، وإنما جاء الإسلام وحده بهذا التعليم والتلقين المحتويين للإنسانية، فإن منعه المودة والاختلاط غير المشروع مع غير المسلمين هو في الحقيقة منع من الكراهية المتبادلة، لا إيجاد للكراهية. فإن ذلك الاختلاط الذي يُمنع منه هو نفسه منبع الكراهية. فهذا المنع ليس من التعصب، بل لحفظ المقاصد العالمية.

وخلاصة الأمر أن ذهنية العالم لما بلغت استعداد اللون الدولي، كما نشأت في ابتداء هذه الأمة، بعد الضيق بالعلو والدنو، ذهنية المساواة والأخوة المتبادلة، واليوم ظهرت هذه الذهنية نفسها بالفعل بعد أن كانت استعداداً، إذ صنعت هذه الذهنية بعينها اختراعات عالمية جديدة فجعلت تلك الذهنية العالمية عالمية بالفعل؛ فقد أنزل الله الشريعة الدولية في دور هذه الذهنية نفسه، وهي

ليست سوى الإسلام. فكان ينبغي للإسلام أن يأتي في الدور الذي بدأ فيه مزاج الإنسان يطير نحو الدولية.

وإذا أمعن النظر، فإن الدولية والشمول اليوم قد بلغا من حيث النوع نهاية الأصل. ولم تبق بعد ذلك فيهما درجة ذات طبيعة أصولية، ولا سعة فيهما من حيث الأصل والنوع لنقص أو زيادة بحيث يبقى للذهن الإنساني مجال للتقدم. نعم، إن وقع نقص أو زيادة، فهو في الجزئيات والفروع، لا في دائرة الدولية. لأنه إذا بلغ بشر العالم كله مقام أن يصيروا أمة واحدة، فلا يبقى بعد ذلك إنسان آخر حتى يمتد إليه رباط الأخوة. وكما اتضح الآن، فقد وصل التمدن من جهة العمومية إلى نقطته الأخيرة، ولم يبق بعد ذلك مقام للدولية حتى يطلب الإنسان بعده عمومية أخرى وتتسع دائرة المدنية. ولذلك أرسل الدين الموافق لهذه الذهنية ديناً عاماً عالمياً بحيث لا يبقى بعده للدين والشريعة مقام أصولي يتقدم الدين إليه أو يحتاج فيه إلى دين جديد.

ولهذا، فإن كان هناك ترق ديني بعد الآن، فسيكون داخل دائرة هذه العمومية، لا بالخروج منها. وهذا الترقي يسمى ترقياً جزئياً، لأنه يكون محدوداً داخل دائرة أصل من الأصول. فمثلاً، إذا تقدم الإنسان إلى ما وراء الأرض، فإنه يتقدم باسم الأرض أو المكان، لا باسم أخوة الإنسانية؛ لأن إنسانية العالم كلها إذا دخلت في نظام الأخوة، لم يبق بعد ذلك أخ نسبي يقام معه رباط الأخوة. ولذلك فقد بلغ التمدن من حيث الأصل حده الأخير، وبلغ الاجتماع أيضاً نقطته الأخيرة، ولا نقطة بعدها. ولذلك كان ينبغي أن يأتي الدين أيضاً خاتماً، حتى لا يبقى بعده للدين من حيث الأصل أي نقطة.

غير أنه كما أن في هذا التمدن الخاتم للمدنية، تحت أصله نفسه، مجالاً لخروج فروع لا تحصى، وسيبقى ذلك، تظهر بالاختراعات؛ فكذلك في الدين خاتم الأديان مجال لخروج الفروع تحت أصوله الجامعة، وسيبقى ذلك، وتظهر تلك الفروع بالاجتهادات. أما نفس الدين وقواعده وأصوله فلا تتبدل، ولا بقي مجال أصلاً لمجيء قواعد وأصول جديدة.

ثم كما احتاجت الأسرة الأولى لآدم عليه السلام، أول النبيين، إلى نوع ابتدائي من الدين والتعليم، فكذلك احتاجت أسرة آدم النهائية والهرمة في دور خاتم النبيين إلى نوع نهائي من الدين والتعليم، يمكن أن تخرج منه فروع لا تحصى، ولكن الجذر والجذع يبقيان واحداً. فكما أن الحدود القومية لمدنية الدنيا بلغت حد البلوغ، ولم يبق فيها مجال للنمو من حيث الأصل، وإن كان هناك مجال فهو للفروع الجديدة والاختراعات الجزئية الجديدة التي صارت أصولها الشاملة في اليد، وفي ضوئها يستمر خبراء العلوم في استخراج أشياء جديدة؛ فكذلك الدين الذي بدأ من آدم قد نما وبلغ حد البلوغ، ولم يبق فيه مجال للنمو. فإن كان مجال، فهو لنشوء المسالك الفرعية، بحيث يستمر مجتهدو الأمة والمفتون أصحاب البصيرة في استخراج الفروع بحسب حال الزمان من قواعده وضوابطه في ضوء أصوله. وتستمر تربية الأمة، وذلك يكون بواسطة أئمة الهداية والعلماء والمشايخ. ولم تبق حاجة إلى نبوة جديدة.

وبالجملة، فإن كل أمر اليوم قد صار أمر البشر كلهم. وذهنية التعاون والتناصر المتبادل بين البشر كلهم هي الذهنية الأخيرة التي لا يبقى بعدها للذهن الإنساني طريق للتقدم. وإن اكتشف إقليم جديد، فسيكون أيضاً لهؤلاء البشر كلهم. وبالجملة، فقد جاءت في العالم المتمدن الحدود الأصولية لعموم البشرية. وبعد ذلك لا تبقى بشرية وراء البشرية، فماذا يستطيع الإنسان أن يفكر وراء عالم البشرية؟ ولذلك تنتهي أصول وثبة الذهن، ولا يبقى بعدها إلا طرق إلباسها لباس العمل، وهذه فروع ستنبعث من الإنسان من أجل هذه الإنسانية الشاملة، ولن يكون لها أثر في إنقاص هذه الإنسانية الشاملة أو زيادتها.

وخلاصة ذلك أنه لما انتهت الوثبة الأصولية للذهن الإنساني، انتهى أيضاً طلب الأصول الجديدة. ولذلك لم يبق مقتض لمجيء دين جديد، حتى يأتي دين جديد أو نبوة جديدة. ولهذا كان ينبغي أن يأتي في هذا الدور خاتم الأدوار دين خاتم الأديان. وقد جاء، ونسخت الأديان المحلية والمحدودة السابقة كما نسخت المدنيّات المحدودة السابقة وانتهت بعد مجيء التمدن الخاتم للمدنية. وكما أن تلك المدنيّات السابقة لم تكن خاطئة في أوقاتها، بل كانت مقتضى الذهنيات الإنسانية في ذلك الوقت، فإن نسخت فلأن تغير الذهن الإنساني لم يبق مسوغاً لبقائها. كذلك الأديان الأولى لم تكن خاطئة في أوقاتها، بل كانت مقتضى عقول الناس وأمزجتهم في ذلك الوقت وموافقة لنداء أذهانهم. فإن نسخت، فبسبب تغير الذهن الإنساني الذي كان يقطع منازل الارتقاء. والآن لما انتهى جريه الأصولي أيضاً، إذ جاء الطرف الأخير للاجتماع الإنساني، فقد انتهى من حيث الأصل. وكذلك لما جاء وقت الإكمال الأصولي للدين، فقد انتهى هو أيضاً من حيث الأصل. وأما مجال الفروع الشاملة فموجود في التمدن وفي التدين، وسيبقى جارياً.

فالآن، كما أن محاولة إرجاع المدنيّات السابقة هي أخذ للذهن الإنساني إلى الترقي المعكوس، كذلك فإن محاولة إرجاع الأديان السابقة بعد مجيء الإسلام هي أخذ للذهن الإنساني إلى الترقي المعكوس، وهو ما لا يمكن للفطرة أن تستعد له أبداً. فكما يقال إن الحياة الآن متوقفة على التمدن الحاضر، وأنه لا يجد العالم اليوم ملجأ ولا وقاية بتركه؛ وكما أن من يترك البندقية والقنبلة ويرجع إلى القوس والسهم والمعول والفأس لا يستطيع أن يحمي نفسه؛ أو كما أن من يحاول بعد ظهور العالمية أن يسير مرة أخرى على نفس التمدن القديم المحدود المنزلي أو القبلي أو الحضري لا يستطيع النجاة من آفات التمدن حتى يأخذ بحمى ذلك التمدن الذي ظهر بمقتضيات الوقت؛ فكذلك يقال أيضاً: بعد مجيء الدين الكامل، فإن الحياة الأخروية والنجاة متوقفتان على هذا الدين نفسه. وتركه وطلب النجاة في الأديان السابقة غير التامة، التي كانت كافية لأهل أوقاتها لكنها لم تكن تامة كاملة، لا يمكن أن ينفع في النجاة في الآخرة.

ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين.

وإذا تأملت، فإن هذه الخصوصية لدين خاتم النبيين موجودة أيضاً في مثال الشمس. فإن القول بأن طلب النور من دين آخر بعد مجيء الإسلام وتركه أمر خسران وخسارة، يشبه أن يقال: إذا طلعت الشمس ثم تركها إنسان وطلب نوراً من نجم، فإنه لا يستطيع أن يدبر أمره، بل يقع في

الخسران. وكما أن هذا غير معقول، فكذلك ذاك غير معقول. فالنجوم كانت في أوقاتها تنفع الناس بأنوارها الهادئة الملائمة للوقت، وكانت صحيحة في مواضعها. لكن لما طلعت الشمس لدفع الليل وتوارت النجوم، لم يكن اختفاؤها لأنها كانت خاطئة، بل لانتهاء حالة عملها؛ ولأن وقت عملها كان ظلمة الليل.

وبعد طلوع الشمس، لا يثبت في النهار نافعاً للخلق عاملاً إلا الشمس. ولا يبقى للنجوم عمل في النهار حتى تقوم بعمل الهداية. وعلى كل حال، يثبت بهذا المثال أن دين حضرة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ناسخ الأديان، وأن النجاة في دوره منحصرة فيه، وأنه جاء في دور هذا التمدن الآلي والمدنية العالمية.

وخلاصة الأمر أن شمس النبوة البشرية أشرقت منذ الأزل البشري، وستظل تشرق إلى الأبد الكوني. وفي خلال ذلك لم ينقطع نورها في وقت من الأوقات، ولن ينقطع. ففي موضع بلا واسطة، وفي موضع بواسطة، كان نورها هو العامل وسيبقى هو العامل.

أول ما خلق الله نوري.

كنت نبياً وآدم بين الماء والطين.

أنا أول من تنشق عنه الغبراء.

أنا أول من يفتح باب الجنة.

فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين.

وبالجملة، فمن الأزل البشري إلى الأبد البشري، مع الأولية ومع الخاتمية، ظل هذا النور نفسه يشرق وسيظل يشرق. فلا نهاية له ولا اختتام، وبفيضه ظلت الكائنات تشرق، وستظل تشرق في صور مختلفة.

هذا هو الاسم الذي يطهر التراب ويصقله؛
وهذا هو الاسم الذي يجعل الشوك زهراً ويزينه؛
وهذا هو الاسم الذي يرفع الأرض فيجعلها سماء؛
يا أكبر، ردده بصدق مرة بعد مرة:
صل على محمد، صل على محمد .

فهذه كانت بعض الجوانب الأساسية لختم النبوة في ضوء تشبيه الشمس، عُرضت بلون طالب علم. وقد كانت بعض الجوانب الأخرى مدونة إجمالاً في المذكرات، لكن كثرة الأعمال لا تتيح أن أعرضها أيضاً تفصيلاً، أو إجمالاً، على ترتيب ما. ولو طلب الوقت وانتظر الفراغ، وكانت النتيجة تأخيراً بين الرجاء والخوف، لبقيت هذه المادة المرتبة أيضاً، وخيف عليها الضياع.

ولذلك، من غير انتظار تسويد تلك الجوانب وتبييضها، قدمت الجوانب التي ترتبت بين يديكم. تقبلها الحق تعالى.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.
والحمد لله أولاً وآخراً.

محمد طيب، غفر له، مهتمم دار العلوم ديوبند.
21 ذو القعدة 1378 هـ.